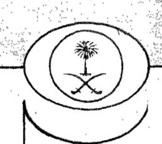
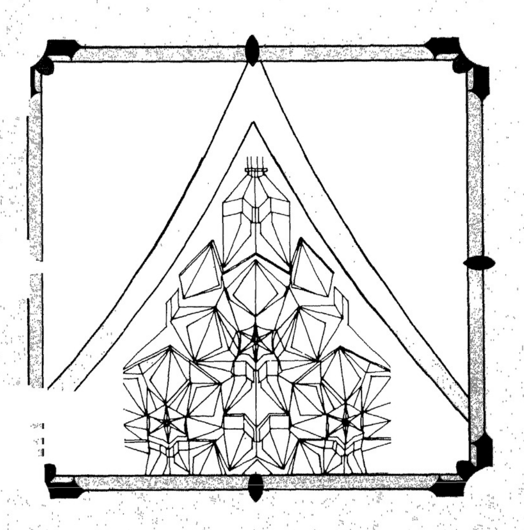
الدكتور عبد الله الصالح العثيمين



محاضرات وتعليقات

في

تاريخ المملكة العربية السعودية





في

تاريخ المملكة العربية السعودية

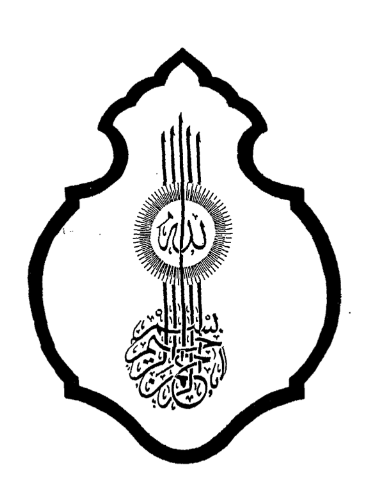
الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

محاضرات وتعليقات

في

تاريخ المملكة العربية السعودية

الدكتور عبد الله الصالح العثيمين



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّد الأولين والآخرين، نبيّنا محمد الناصح الأمين، وعلى آله الطيبين الكرام وصحبه البررة الأعلام.

وبعد.

فقد كتبت في تاريخ وطننا، الذي اكتملت وحدته المباركة بتكوين المملكة العربية السعودية، كتابات كثيرة، ودوّنت عنه مؤلفات متعددة. ومن هذه المؤلفات والكتابات ما هو موضوعي النقاش، جيد العرض والتحليل. ومنها ما يفتقر إلى العوامل المهمّة في أية كتابة تاريخية جادة. لكن هناك الكثير من جوانب التاريخ الوطني التي تحتاج إلى من يتعهدها بالبحث الجاد، ويتناولها بالنقاش الرصين، ويظهرها بالصورة الواضحة. وليست هذه الجوانب محصورة في فترة زمنيّة دون أخرى. فإذا كانت انطلاقة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حوالى منتصف القرن الثاني عشر الهجري، المنعطف الأكبر في تاريخ وطننا الحديث فإن الدولة السعودية الأولى التي احتضنت تلك الدعوة وناصرتها هي الأساس المتين الذي هبّ قادة البلاد يشيدون عليه ما استطاعوا تشييده من لبنات قوية في صرح هذا التاريخ. ولم يكن القادة ليبنوا ما بنوا، ويشيدوا ما شيدوا، إلا بتوفيق من الله، ثم بوقوف المواطنين الكرام إلى جانبهم يبذلون كل غالٍ في سبيل ما رأوه حقاً، ويقومون بكل أمر اعتقدوه واجباً.

وكانت هذه الصفحات، التي أضعها هنا بين يدي القارىء الكريم، مما ألقيته محاضراً، أو دوّنته معلّقاً، في أمكنة متعددة، وفي أزمنة مختلفة. ومن المحاضرات ما لم يوثّق التوثيق الذي تتطلبه البحوث أو التعليقات النقدية لأن طبيعة المحاضرات، بصفة عامة، لا تحتاج إلى ما يحتاجه البحث من توثيق. لكن من المحاضرات ما استحسن توثيقها لسمة المعلومات الواردة فيها. وقد ورد بعض التكرار في المعلومات التاريخية الواردة في المحاضرات. وكان هذا نتيجة لكون كل محاضرة مستقلة عن الأخرى. ولأن موضوعات المحاضرات والتعليقات متصلة بتاريخ المملكة استحسنت إخراجها في كتاب واحد؛ آملاً أن يجد فيها من يطلّع عليها ما هو شفيع لي في طباعتها ونشرها.

والله وليّ التوفيق

عبد الله الصالح العثيمين

مدينة الرياض
تاريخها وتطورها

مدينة الرياض

تاريخها وتطوّرها[1]

حاضر مدينة الرياض بما فيه من تقدم وازدهار أمر يشاهده كل من زارها ويعرفه كثير ممن لم يزرها بوسائل مختلفة. ولذلك فإنه ليس من أهداف هذه المحاضرة تناول حاضر هذه المدينة. بل إن هدفها الأساسي إعطاء لمحة موجزة عن ماضيها وتطورها حتى دخلت إلى مرحلة التقدم والازدهار التي تمرّ بها الآن.

من أهم العوامل التي اعتمدت عليها نشأة المدن في وسط جزيرة العرب توافر المياه في المنطقة وخصوبة أرضها. ويتوافر هذان العاملان، غالباً، على ضفاف الأودية وعند نهايتها. ويعدّ وادي حنيفة من أكبر أودية وسط الجزيرة العربية، كما تعد ضفتاه من أخصب المناطق فيها. ولذلك قامت حوله عدة مستوطنات زراعية منذ القدم. وتطور بعض هذه المستوطنات إلى بلدان لعبت دوراً كبيراً في تاريخ البلاد قديماً وحديثاً.

وكان بعض تلك المستوطنات الزراعية قد تكوّن نتيجة استقرار فروع قبلية مختلفة. وكان كل فرع منها يتخذ مستقراً منفصلاً عن مستقر الفرع الآخر وإن كان غير بعيد عنه. ومع أن النزاع كثيراً ما حدث بين

(١) ألقيت في مدينة هامبورج في ألمانيا بمناسبة إقامة معرض الرياض هناك سنة ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

تلك المستقرات المتقاربة فإن مسيرة التاريخ غالباً ما صهرتها تحت زعامة واحدة.

وتقع مدينة الرياض في مكان من أنسب الأمكنة لنشأة البلدان. ذلك أنها تقع بين ضفاف واديين: وادي البطحاء شرقاً، ووادي حنيفة غرباً. وهذا ما جعل مكانها موضعاً تتوافر فيه المياه والتربة الخصبة. وما دامت كلمة «روضة» تطلق على التربة الطينية الخصبة التي تزدهر فيها الأعشاب والنباتات الخضراء فلا غرابة إن سُميت هذه المدينة في القرون المتأخرة بالرياض. فهي تتكوّن من عدة أمكنة خصبة تكسوها الخضرة؛ خاصة أشجار النخيل. وكانت قابلية مكانها لقيام نهضة زراعية مع موقعها المتوسط نسبياً بين شرق الجزيرة العربية وغربها وبين شمالها وجنوبها من الأمور التي جعلتها ملتقى الطرق التجارية. وهذا ما ساعد في بناء مجدها القديم، وأسهم في إشادة حاضرها المشرق. وما بين ماضيها وحاضرها سجل حافل بالأحداث والعبر.

بدأ تاريخ الرياض ـ حسبما تفيد المصادر ـ باستقرار قبيلة طَسْم العربية في هذا المكان قبل ألفي سنة. وقد مكّنت النهضة الزراعية والعمرانية تلك القبيلة من إحراز قصب السبق في تنافسها مع قريبتها قبيلة جَدِيس التي استقرت في جوّ اليمامة بمنطقة الخرج الواقعة جنوباً عنها. وكان مما ربط تاريخ القبيلتين لدى المؤرخين زرقاء اليمامة التي أصبحت قوة بصرها مضرب المثل في الأدب العربي حتى الوقت الحاضر. فهي طَسْمية متزوجة برجل من جَدِيس. ولم يقف نفوذ طَسْم عند حدود منطقة اليمامة بل تجاوزها إلى شرقي الجزيرة العربية[1]. ولكن وسائل القوة

---

(١) حمد الجاسر، مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ، دار اليمامة، ١٣٨٦هـ، ص ص ٢٥ ـ ٣٣.

المادية كثيراً ما أغرت من يمتلكها بالقيام بتصرفات تسرع في انهيار قوته وذهاب شأنه. وهذا ما حدث لطَسْم؛ إذ كانت تصرفات زعمائها سبباً في غزو اليمنيين لها وتحطيمهم لقوتها. ولم يقتصر ذلك التحطيم على طسْم؛ بل شمل جَدِيسا[1]. وكان من العنف بحيث لم يبقَ من هاتين القبيلتين إلا فلول اندمجت في فروع قبائل أخرى. فعدّت القبيلتان لدى المؤرخين من العرب البائدة.

ولم تكن القبائل التي تتنقّل وراء الكلأ في وسط جزيرة العرب بمعزل عمّا حدث بطَسْم وجَدِيس. وما أن انسحبت القوات اليمنية من المنطقة حتى حاولت فئات من قبيلة عنزة الاستفادة من تلك الظروف. لكن قبيلة بني حنيفة الوائلية أصبحت المستفيد الأكبر فيما بعد. ذلك أنها استوطنت المنطقة. وقد اختص أحد زعمائها لنفسه عدة قصور ومزارع من مستقر طَسْم السابق ذكره. ولحجره تلك القصور والمزارع عمّن سواه أصبحت المستوطنة كلّها تدعى حَجْراً أو حَجْر اليمامة[2].

ومن المرجّح أن مجيء بني حنيفة للمنطقة حدث قبيل القرن الخامس الميلادي، وأصبحت هذه القبيلة المكوّنة من بادية وحاضرة قوة مرهوبة الجانب عظيمة الشأن بعد ذلك. وبمرور الزمن ازدادت أعداد المستقرين منها للعمل في الزراعة والتجارة. وتقلّصت أعداد البادية حتى طغت عليها الصبغة الحضرية.

ولقد بلغ إنتاج منطقة اليمامة الزراعي تحت زعامة بني حنيفة درجة

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٩.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٤.

كبيرة بحيث أصبح سكان بعض الجهات البعيدة عنها، مثل قريش في مكة، يعتمدون على حنطتها اعتماداً واضحاً قبل ظهور الإسلام.

على أن التنافس كان يحدث، أحياناً، بين فئات بني حنيفة المتحضرة. وأصبحت حَجْر والخِضْرمة، الواقعة في جوّ اليمامة، والتي كانت موطن جَدِيس، تتنازعان مركز الصدارة في المنطقة. وعند ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي كان هَوْذة بن علي زعيم الخضرمة. وكان ثُمَامة بن أُثال أحد زعماء حَجْر المشهورين. ورفض هوذة الدخول في الإسلام إلا إن جعل له النبي ﷺ نصيباً في إدارة شؤون الدولة الإسلامية الناشئة. أما ثمامة فانتهى به الأمر إلى الدخول في الإسلام. وحين تمّ ذلك منع صادرات منطقته من القمح إلى قريش ما لم يأذن بتصديره إليها النبي ﷺ[1].

ومع أن العامل الإيماني كان سبباً قوياً في تحديد مواقف المؤيدين للإسلام والمعارضين له فإن الشعور بالقوة المادية وعمق المشاعر القبلية كانا من بين الأسباب التي دفعت بعض المعارضين من بني حنيفة لاتخاذ الموقف الذي اتخذوه. ولعلّ موقف هوذة ثم موقف مسيلمة بن حبيب، الذي سُمّي مسيلمة الكذّاب لادعائه النبوة، من أوضح الأدلة على ذلك.

ولقد بقيت أكثرية بني حنيفة معارضة للإسلام في عهد النبي ﷺ. ثم تزعّم مسيلمة تلك المعارضة في عهد الخليفة أبي بكر. واستطاع أن يهزم جيشين من الجيوش الإسلامية التي بعثها ذلك الخليفة لقتاله. لكن الجيش الكبير الذي قاده خالد بن الوليد تمكّن من قتله وقتل آلاف

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار الكنوز الأدبية، بيروت، القسم الثاني ص ص ٦٠٧ و ٦٣٩.

من أتباعه في معركة فاصلة قرب الجُبَيْلة الواقعة شمال الرياض[1]. ولعل كثرة عدد القتلى أوضح دليل على ما كان يتمتع به بنو حنيفة من قوة عددية حينذاك.

وبقيت حَجْر قاعدة للمنطقة خلال القرنين الأولين من تاريخ الإسلام. لكن الخِضْرمة انتزعت منها مركز الصدارة في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، وذلك حين انتقل إليها محمد الأُخَيضر، أحد الزعماء العلويين الثائرين في الحجاز، واتخذها قاعدة لحكمه عام ٢٥٣ هـ/٨٦٧ م [2].

وكان الأُخَيضر وأولاده من بعده من أتباع المذهب الزيدي، وهو مذهب يختلف مع المذهب السنّي الذي كان سائداً بين سكان المنطقة. وربما كان هذا الاختلاف المذهبي؛ مضافاً إليه اختلاف نسب الأُخَيضر عن نسب أكثرية أولئك السكان، سبباً في ارتكاب الحكام أعمالاً مجحفة أدّت إلى هجرة كثير من السكان المحلّيين إلى مناطق أخرى داخل الجزيرة العربية وخارجها. وكان للحكم الأُخَيَضري، الذي استمر حوالى قرنين من الزمن، آثاره السيئة على حَجْر بالذات. ذلك أن شمس قوتها آذنت بالأفول [3]. ومع هذا فقد ظل اسمها يتردد في كتب المؤرخين والرحالة المسلمين حتى منتصف القرن العاشر الهجري

(١) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٨٥ هـ، ج ٢، ص ص ٣٦٠ - ٣٦٥.

(٢) حمد الجاسر، المصدر السابق، ص ٦٩.

(٣) عن بني الأخيضر انظر عبد الله الشبل، «الدولة الأخيضرية»، **مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية**، جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد السادس ١٣٩٦ هـ ص ص ٤٥٩ - ٤٦٦.

تقريباً. لكنها بلغت من الضعف خلال بقية ذلك القرن درجة جعلتها تتفكك وتتحول إلى عدة قرى تزيد في تباعدها عوامل الفرقة والنزاع أكثر مما تربط بينها أواصر القربى والتآلف. وانحصر إطلاق اسْم حَجْر على مزرعة قام على أطلالها شارع الوزير، أو ما يسمَّى الآن شارع الملك فيصل[1].

وقد تصدّرت القرى المذكورة بُعيد تفكك مدينة حَجْر قرية مِعْكال الواقعة بين حيّي دُخْنة شمالاً ومَنْفوحة جنوباً من مدينة الرياض الحالية. ومن الأحداث التي مرّت بها محاصرة شريف مكة لها بجيش قوامه خمسون ألف مقاتل سنة ٩٨٦ هـ/ ١٥٧٩ م حسب قول المؤرخ عبد الملك العصامي. وقد ذكر ذلك المؤرخ أن الشريف بقي محاصراً لها مدة قبل أن يرغم زعماءها على الاستسلام له[2]. وربما كان العصامي مبالغاً في تحديد عدد قوات الشريف؛ شأنه في ذلك شأن كثير من المؤرخين السابقين حينما يحاولون أن يضخموا قوة من يميلون إليه. لكن إذا سُلِّم بأن جيش الشريف كان نصف العدد المذكور أو ربعه فإن بقاءه مدة محاصراً لمِعْكال يوضح أنها كانت قوية التحصين. على أن من المؤكّد أنها لم تبلغ من القوة ما بلغته مدينة حَجْر في غابر مجدها. ومن الواضح أن غزو الشريف لها كان سبباً في إضعافها وبداية منافسة جارتها قرية مُقْرن لها. ومن الواضح، أيضاً، أن نتيجة تلك المنافسة لم تكن في صالحها. ذلك أن اسم مقرن بدأ يحتلّ المكانة الأولى في سير الأحداث وكتابات المؤرخين. وظلت مقرن تشد الانتباه أكثر من غيرها حتى قرب

(١) حمد الجاسر، المصدر السابق، ص ٨٧.

(٢) عبد الملك العصامي، **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٠ هـ، جـ ٤، ص ٣٦٨.

نهاية القرن الحادي عشر الهجري. وفي مستهل القرن الذي تلاه بدأ اسم الرياض يطلق عليها أحياناً. ثم أطلق على كل القرى التي كانت أحياء لمدينة حَجْر القديمة[1].

وما دامت هذه اللمحة التاريخية وصلت إلى القرن الثاني عشر الهجري الذي شهد أعظم حدث في تاريخ المنطقة منذ فجر الإسلام، كما سنرى، فإن من المستحسن العودة قليلاً لإيضاح بعض الجوانب المكملة للصورة السابقة. والواقع أن بقية نجد لم تكن أسعد حظاً من حَجْر اليمامة في القرون التي تلت استيلاء الأُخَيضريين على المنطقة. لكن بعض ومضات كانت تشرق في سماء تاريخها بين فترة وأخرى من مكان إلى مكان. فقد كانت مدينة أُشَيقر بمنطقة الوَشْم مركزاً مزدهراً لتعليم الشريعة الإسلامية في المنطقة خلال القرنين التاسع والعاشر من الهجرة[2]. وكانت بلدة العُيَيْنة غير البعيدة عن الرياض أعظم البلدان النجدية في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الذي أعقبه. وهي البلدة التي ولد فيها المصلح الديني محمد بن عبد الوهاب، والتي شهدت أول تطبيق لمبادئه الإصلاحية. وكان بين العُيَيْنة وبين الرياض بلدة أخرى تسمّى الدِرْعِيّة أصبح لها من المجد والشهرة ما فاق مجد وشهرة كثير من البلدان؛ وذلك في النصف الثاني من القرن الثاني عشر والعقود الثلاثة الأولى من القرن الذي تلاه.

---

(١) مما يوضّح ذلك أن أحمد المنقور المتوفى سنة ١١٢٥ هـ ذكر اسم الرياض، وذلك حين كتب عن حادثة ١٠٩٩ هـ. انظر **تاريخ الشيخ أحمد بن محمد المنقور**، تحقيق الدكتور عبد العزيز الخويطر. الرياض، ١٣٩٠ هـ ص ٦٥.

(٢) عبد الله البسام، **علماء نجد خلال ستة قرون**، مكتبة النهضة الحديثة بمكة، ١٣٩٨ هـ ج ١، ص ص ١٤ - ١٥.

ويرجع تاريخ الدرعية إلى عام ٨٥٠ هـ/١٤٤٧ م. ففي ذلك العام غادر مانع المُرَيدي، جد الأسرة السعودية، شرقي الجزيرة العربية، وقدم بأتباعه إلى منطقة حَجْر اليمامة إثر مراسلات تمّت بينه وبين قريبه ابن درع الذي كان له نفوذ في هذه المنطقة. وقد منحه هذا الزعيم المكان الذي قامت عليه فيما بعد بلدة الدرعية. وعمر مانع وأتباعه ذلك المكان، وسمّوه بهذه التسمية إحياء لاسم بلدتهم التي هاجروا منها أو نسبة لابن درع اعترافاً بفضله. ونمت الدرعية شيئاً فشيئاً، وإن كان قد حدث في تاريخ زعمائها ما كان يحدث في تاريخ كثير من الزعماء النجديين حينذاك من صراع حول السلطة[1].

وبعد ثلاثة قرون من نشأة الدرعية بدأ تاريخها المجيد. وكانت بدايته حينما اتفق أميرها محمد بن سعود مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة ١١٥٧ هـ/١٧٤٤ م على نشر مبادىء الإصلاح التي نادى بها ذلك الشيخ[2]. وانضم بعض الأمراء النجديين إلى دولة الدرعية الجديدة وعارضها آخرون. ولا شك أن الاقتناع بصحة تلك المبادىء الإصلاحية أو عدمه كان العامل الأكبر في تحديد موقف هؤلاء وأولئك. لكن من الأمراء من كانت العوامل السياسية أو الاقتصادية وراء قبوله أو رفضه.

---

(١) عثمان بن بشر، **عنوان المجد في تاريخ نجد**، طبعة وزارة المعارف الثانية ١٣٩١ هـ، ج ٢، ص ص ١٠٠٩ و ١٨٩ - ١٩٠.

(٢) حسين بن غنّام، **روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام**، طبعة أبي بطين، القاهرة، ١٣٦٨ هـ، ج ٢، ص ٤.

على أن الدولة السعودية في الدرعية سارت من نصر إلى نصر حتى امتدت رقعتها بعد حوالى سبعين عاماً من الخليج العربي شرقاً إلى البحر الأحمر غرباً، ومن تخوم العراق والشام شمالاً حتى أواسط اليمن وحضرموت جنوباً[١]. وهذا ما لم يحدث لأية دولة في تاريخ الجزيرة العربية باستثناء الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام.

وتكاد تكون بداية دولة الدرعية، أو الدولة السعودية الأولى، متزامنة مع بداية إمارة جديدة في الرياض هي إمارة دهام بن دَوّاس. وكانت علاقة هذا الأمير بمحمد بن سعود قبل اتفاقه مع ابن عبد الوهاب علاقة طيّبة. ولعلّ من أدلة ذلك أن دهاماً لم يستطع القضاء على الثورة الداخلية التي واجهته سنة ١١٥١ هـ/١٧٣٩ م إلا بمساعدة من أمير الدرعية[٢]. وكان من المؤمل أن يسارع دهام إلى مناصرة الدولة الجديدة وتأييدها. لكنه لم يفعل ذلك. وبذل قادة تلك الدولة محاولات عدة لإقناعه بالانضمام إليها، فرفض. ولعلّ استقرار الأوضاع الداخلية في بلدته، ووفرة إمكاناتها الزراعية والمادية، كانا من أهم أسباب معارضته الدخول في ظل دولة الدرعية الفتيّة. وكان من الإجراءات التي قام بها للوقوف أمام مدّ تلك الدولة بناء قصر محكم التحصين وبناء سور يحيط بأكثر مزارع البلدة إضافة إلى أسوارها الداخلية[٣]. وهذا ما جعله مكتفياً ذاتياً من حيث المواد الغذائية بدرجة كبيرة.

---

(١) عبد الله العثيمين، **تاريخ المملكة العربية السعودية**، الرياض، ١٤٠٤ هـ، ج ١، ص ١٤٧.

(٢) ابن بشر، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٠ وج ٢، ص ٢٤١.

(٣) حمد الجاسر، المصدر السابق، ص ٩٥.

ومع أن سير الأحداث كان في صالح دولة الدرعية منذ بداية الصراع بين قادتها وبين دهام بن دواس فإنه تمكّن من مقاومتها بقواته الذاتية حيناً وبمساعدة زعماء المعارضة النجدية وحكام شرق الجزيرة حيناً آخر سبعة وعشرين عاماً تقريباً[١]. على أنه أدرك سنة ١١٨٧ هـ/١٧٧٣ م أن لا قِبَل له بمواصلة الحرب؛ خاصة بعد أن انضمت إلى دولة الدرعية بلدان نجدية كثيرة، وبعد أن تقدمت به السن وقتل ابناه في إحدى المعارك. ولهذا ترك الرياض فجأة منسحباً إلى الخرج ثم إلى الأحساء حيث وافته المنيّة بعد ذلك بقليل. وبانسحابه ترك الرياض كثير ممن كانوا يخشون على مستقبلهم فيها، ودخلها الحاكم السعودي الجديد عبد العزيز بن محمد بن سعود بدون مقاومة. وأصبحت بكل ما تملكه من إمكانات كسباً لدولته. ولعلّ مما يوضح أهمية تلك الحادثة أن ابن غنام، أول مؤرخ للدولة السعودية، سمّاها فتحاً، ونظم بمناسبتها قصيدة طويلة[٢]. وهذا ما لم يقم به ذلك المؤرخ عند حديثه عن دخول أية بلدة نجدية أخرى تحت نفوذ الدولة المذكورة. ومما يثير انتباه الباحث أن الرياض كانت البلدة الوحيدة التي عُيِّن فيها أمير من آل مقرن بعد الاستيلاء عليها[٣]. وهذا دليل آخر على أهميتها لدى قادة الدرعية.

وبقيت الرياض تحت حكم الدولة السعودية الأولى. لكن دخولها تحت ذلك الحكم كان بداية لسير الأحداث فيها سيراً طبيعياً لا يثير اهتمام المؤرخين. فكان أن تلاشى ذكرها في غمرة الأحداث

---

(١) ابن بشر، المصدر السابق، ج ١، ص ٧٧.
(٢) ابن غنّام، المصدر السابق، ج ٢، ص ص ٨٦ - ٨٨.
(٣) ابن بشر، المصدر السابق، ج ٢، ص ١١.

الكبيرة التي مرّت بها تلك الدولة. ومن المؤسف ـ وإن لم يكن مستغرباً من بلدة قاومت الدولة السعودية فترة طويلة ـ أن تتحدث المصادر عن عدة رجال من أهلها وهم يقفون مع أميرها ناصر العائذي إلى جانب إبراهيم بن محمد علي، حاكم مصر، حينما كان محاصراً للدرعية عام ١٢٣٣ هـ/١٨١٨ م [١].

ولما قضى إبراهيم على الدولة السعودية في العام المذكور هدم الدرعية. ولم ينسحب من نجد إلا بعد أن قتل عدداً من زعمائها البارزين وهدم أسوار بعض بلدانها المهمّة أملاً في أن يبقي تلك المنطقة محطّمة المعنوية. لكن محاولات محلية قامت لإعادة بناء الدولة من جديد. وكانت أولى تلك المحاولات بقيادة محمد بن مُعَمَّر، الذي يمتّ بصلة الرحم لآل سعود، والذي كان من أفراد أسرة الإمارة في العيينة. وقد اتخذ من الدرعية مركزاً لنشاطه آملاً أن يعيد بناءها وأن يكون اتخاذه لها دافعاً لكثير من النجديين لمناصرته. وذلك لأن تلك البلدة كانت تمثّل رمز الوحدة الوطنية. ومن الملاحظ أن أمير الرياض، ناصراً العائذي، كان من المعارضين له. على أن الأمر لم يستقم لابن معمّر. فقد وصل إلى الدرعية مشاري بن سعود، وانتزع مقاليد أمورها منه. ومن المرجّح أن مشارياً ولّى تركي بن عبد الله آل سعود إمارة الرياض [٢]. ولما أطاح ابن معمّر بمشاري هبّ تركي بن عبد الله، وداهمه بأعوانه فقضى عليه.

---

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧١.

(٢) فقد ذكر ابن بشر (المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٩٧) أن تركي بن عبد الله كان في الرياض حين قام ابن معمّر على مشاري بن سعود، وأنه تركها إلى الحائر لما أقبل إليها مشاري بن معمّر.

ولم يبقَ تركي في الدرعية، وإنما جعل الرياض مركزاً لنشاطه. وربما كان من أهم أسباب اختياره لها كون الدرعية مهدّمة تحتاج إلى أموال طائلة لإعادة بنائها، وكون الرياض سالمة نسبياً من التخريب سواء في مبانيها أو في مزارعها.. وبتولّي تركي بن عبد الله القيادة بدأت فترة جديدة بالنسبة للأسرة السعودية وبلدة الرياض بشكل خاص، وبالنسبة للمنطقة بشكل عام. ذلك أن الحكم في الأسرة السعودية انتقل من ذرية عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى ذرية أخيه عبد الله بن محمد، وأصبحت الرياض بعد نجاح الإمام تركي قاعدة للحكم السعودي حتى الآن. أما المنطقة فقد توحدت من جديد تحت ظل دولة سعودية تتبع نفس المبادىء التي قامت عليها الدولة السعودية الأولى.

بدأ تركي بن عبد الله نشاطه لإخراج الحاميات العسكرية التابعة لحاكم مصر من نجد سنة ١٢٣٦ هـ/ ١٨٢٠ م. لكن الإمدادات الجديدة، التي أرسلها ذلك الحاكم إلى المنطقة، استطاعت إخراجه من الرياض فترة قصيرة. ثم نجح تركي في إرغام الجنود الموجودين فيها على الانسحاب منها ومغادرة نجد عام ١٢٤٠ هـ/ ١٨٢٤ م. ولما دخلها أعاد ترميم أسوارها وقصر حكمها[1]. وقدم إليها كثير من

---

(١) يذكر بالجريف (Narrative of a Year Journey through Central and Eastern Arabia 1862 - 63, London, 1865, Vol. 2, p. 62). أن تركي بن عبد الله بنى القصر، ثم الأسوار ومسجد الجامع. لكن من الواضح أنه لم يبنِ قصراً للحكم، وإنما رمّم قصر دهام. ذلك أنه في أثناء حربه مع قوات محمد علي كان هناك قصر في الرياض حوصر هو فيه. ويتبيّن من قصيدة لعبيد بن رشيد موجهة إلى فيصل بن تركي أن فيصلاً كان يستعمل قصر دهام.

سكان الدرعية سابقاً ليستقروا فيها. ولم يمضِ عامان على دخول تركي الرياض إلا وقد انقادت له جميع البلدان النجدية[1]. وربما دفعها إلى ذلك ما أدركته من فوائد الوحدة الوطنية زمن الدولة السعودية الأولى، وما لمسته في تركي بن عبد الله من صفات قيادية فذّة. ثم تمكّن هذا القائد من إدخال شرقي الجزيرة العربية تحت حكمه. وبذلك أصبحت الرياض عاصمة لدولة واسعة المساحة.

على أن النجاح الذي حققته البلاد على يد الإمام تركي لم يقدّر له أن يستمر. بل كانت نهاية ذلك الإمام نهاية مؤلمة. ففي عام ١٢٤٩ هـ/ ١٨٣٤ م انتهز ابن أخته مشاري بن عبد الرحمن آل سعود فرصة وجود ابنه فيصل مع قواته في المنطقة الشرقية من البلاد، ودبّر مؤامرة أدّت إلى اغتياله. وبذلك فقدت تلك الشخصية القيادية الناجحة. واستولى مشاري على مقاليد الأمور في الرياض. لكن فيصل بن تركي سرعان ما عاد بالقوات التي معه إلى العاصمة ليجد سكانها ينتظرونه ليقفوا معه ضد من ارتكب جريمة بحق من أحبّوه وأعزّ بلدتهم باتخاذها عاصمة للبلاد، مما زاد من مكانتها وعاد لهم بفوائد كثيرة. ولم يمضِ أربعون يوماً على اغتيال الإمام تركي حتى استطاع ابنه فيصل القضاء على مشاري بن عبد الرحمن وبويع بالحكم[2]. وكان من أبرز قادته حينذاك صديقه عبد الله بن رشيد الذي لعب دوراً كبيراً، تخطيطاً وتنفيذاً، في انتزاع الحكم من مغتصبه والقضاء عليه، والذي أصبح فيما بعد مؤسس إمارة

(١) ابن بشر، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٧.
(٢) انظر تفصيلات ذلك في المصدر نفسه، ج ٢، ص ص ٦٣ - ٦٨.

آل رشيد، وهي الإمارة التي قضت على الدولة السعودية الثانية كما سيأتي.

وبعد أقلّ من عامين على تولّي الإمام فيصل بن تركي الحكم أعاد حاكم مصر الكرّة، فبعث جيشاً للاستيلاء على البلاد التابعة لفيصل. وقد جعل قيادتها الاسمية لخالد بن سعود أخي آخر حكام الدولة السعودية الأولى، آملاً أن يتقبلها السكان المحلّيون الذين يكنّون مودة للأسرة السعودية بصفة عامة. واستطاعت قوات محمد علي في نهاية الأمر أن تنتصر على قوات فيصل بن تركي، وأن تبعثه مع أسرته إلى مصر.

وبعد انسحاب قوات محمد علي من نجد إلى مصر بقي خالد بن سعود مع حامية صغيرة في الرياض حاكماً للبلاد من الناحية الرسمية. لكن عبد الله بن ثُنَيّان، أحد أفراد آل سعود ثار ضده، واستطاع بمعونة أولئك الذين يكرهون الحكم المصري أن ينتصر عليه. فهرب خالد إلى الحجاز. وبقي ابن ثنيان حاكماً للرياض وما يتبعها من مناطق.

وفي عام ١٢٥٩ هـ/١٨٤٣ م عاد فيصل بن تركي من مصر إلى نجد، واستطاع أن يستقطب النجديين من حوله وفي طليعة هؤلاء صديقه عبد الله بن رشيد، الذي كان حينذاك أميراً لجبل شمّر. وحاصر فيصل ابن ثنيان في الرياض حتى استسلم له. وهكذا عاد إلى الحكم مرّة أخرى. واستطاع فيصل أن يدخل المناطق التي كانت تابعة لأبيه تركي تحت نفوذه. وظل حاكماً للبلاد حتى وفاته سنة ١٢٨٢ هـ/١٨٦٥ م.

وكانت صحة الإمام فيصل قد اعتلّت قبيل وفاته. ولذلك كان

ولي عهده، ابنه الأكبر عبد الله، يقوم بكثير من أعباء الحكم نيابة عنه. وكان مما قام به عبد الله في تلك الفترة بناء قصر لسكناه[1].

وحين تولّى مقاليد الحكم بعد وفاة أبيه بنى قصراً آخر محكم البناء والتحصين[2]. وبقي هذا القصر قلعة تعتصم بها حامية آل رشيد بعد نهاية الدولة السعودية الثانية. وكان استيلاء الملك عبد العزيز عليه بعد ذلك أولى خطواته الموفّقة في سبيل توحيد البلاد، كما سيتّضح في هذا العرض. وربما كان من أسباب بناء الإمام عبد الله بن فيصل للمصمك شعوره بأن رياحاً بدأت تهبّ في الأفق الداخلي، ولا بد من التأهب للقائها بكل المستطاع. ذلك أنه لم يمضِ عام واحد على بداية حكمه حين اختلف معه أخوه سعود. واستمر النزاع بينهما سبع سنين. وقد أدّى ذلك إلى خروج منطقة شرقي الجزيرة العربية المهمّة من الناحية الاقتصادية عن الحكم السعودي لصالح والي بغداد العثماني. وعانت الرياض بالذات ما عانت من أفراد البادية الذين كانوا مع سعود بن فيصل؛ إذ قاموا بنهب بيوتها وقطع كثير من أشجار نخيلها. ومع أن وفاة سعود عام ١٢٩١ هـ/١٨٧٤ م مهّدت الطريق لانفراد عبد الله بالحكم إلاّ أن أبناء سعود، الذين كانوا قد اتّخذوا من الخرج مركزاً لهم، هاجموا الرياض عام ١٣٠٥ هـ/١٨٨٧ م وقبضوا على عمهم عبد الله[3].

وفي أثناء ذلك كانت إمارة آل رشيد ـ وقاعدتها حائل ـ تتطور

---

(١) بالجريف، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٩٠. وقد ذكر عبد الرحمن آل الشيخ، وهو من المحققين، في الهامش أن ذلك القصر هو المصمك.

(٢) إبراهيم بن عيسى، عقد الدرر...، طبع ملحقاً لعنوان المجد، ص ٥١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٨.

بسرعة. وقد بدأت هذه الإمارة بتولية الإمام فيصل بن تركي صديقه الحميم عبد الله بن رشيد إمارة جبل شمّر. وظلت تلك الإمارة في عهدي عبد الله وابنه طلال ذات علاقة طيبة بالحكومة المركزية في الرياض. ومع أنها مرّت بفترة اضطراب داخلية قصيرة بعد موت طلال عام ١٢٨٣ هـ/١٨٦٧ م، إلا أنها بدأت تقفز قفزات واسعة حين تسلّم مقاليد أمورها محمد بن عبد الله، الابن الأصغر لمؤسسها، عام ١٢٨٩ هـ/١٨٧٢ م. وبقدر ما كانت الخلافات بين أبناء الإمام فيصل كارثة على الحكم السعودي كانت فرصة سانحة لذلك الأمير ليوسّع نفوذه في منطقة نجد. وإذا كانت معركة أم العصافير، التي انتصر فيها محمد بن رشيد على عبد الله بن فيصل سنة ١٣٠١ هـ/١٨٨٤ م، قد أظهرت أن أمير جبل شمّر أصبح أقوى زعماء نجد فإن اعتقال أبناء سعود بن فيصل لعمّهم عبد الله بعد ذلك بأربعة أعوام قد أتاح له الفرصة للتدخل في شؤون مدينة الرياض ذاتها. ولم يكن من الصعب عليه وقد أضحى قوياً مرهوب الجانب أن يجد مبرراً لذلك التدخل. وكثيراً ما سهل على من يملك القوة إيجاد مبرّر لاستعمالها. كان محمد بن رشيد خالاً لأكبر أبناء عبد الله بن فيصل. وما أن علم باعتقاله حتى جمع قوات كبيرة وتوجه بها إلى الرياض بحجة الدفاع عن حق الإمام الشرعي الذي كان زوجاً لأخته. وبعد أن حاصر هذه المدينة عشرين يوماً اضطر زعماؤها الجدد إلى مصالحته على أن يغادرها أبناء سعود بن فيصل. ودخل ابن رشيد إلى الرياض. ولكنه لم يبقِ الإمام عبد الله حاكماً لها، وإنما أخذه معه إلى حائل، معلّلاً ذلك بأنه يخشى عليه من هجوم أبناء أخيه سعود مرّة أخرى. وهكذا دخلت الرياض من الناحية الواقعية تحت نفوذ ابن رشيد، وأوشكت شمس الدولة السعودية الثانية

أن تغرب.

ولقد شهد عام ١٣٠٧ هـ/ ١٨٨٩ م عبد الرحمن بن فيصل حاكماً على الرياض وإلى جانبه حامية عسكرية بقيادة سالم بن سبهان ممثّل ابن رشيد. لكن عدم الثقة بين الطرفين جعل عبد الرحمن يعتقل قائد تلك الحامية. وكان هذا العمل مبرّراً جديداً لتوجه محمد بن رشيد بقواته إلى الرياض. وقد شدّد الحصار عليها أكثر من أربعين يوماً، وقطع كثيراً من نخيلها. وانتهى ذلك الحصار إلى صلح بينه وبين عبد الرحمن بن فيصل تمّ بموجبه إطلاق سراح ابن سبهان وعودة ابن رشيد إلى حائل[١].

ولم يمضِ عامان على الحادثة السابقة إلّا وقد فقد الإمام عبد الرحمن بن فيصل الأمل في استمرار حكمه. فغادر المنطقة تاركاً حكمها لمحمد بن رشيد. وكان مما قام به هذا الحاكم بعد دخوله الرياض تهديم سورها وقصريها القديم والجديد[٢]. وقد قام بذلك محاولة منه، فيما يبدو، أن يقضي على أمل زعمائها القدامى في اتخاذها مركز مقاومة ضدّه.

على أن نهاية الدولة السعودية الثانية عام ١٣٠٩ هـ/١٨٩١ م لم تكن إلّا بداية لفترة قصيرة نسبياً انتهت ببعث الحكم السعودي للمنطقة من جديد. وقد أتى ذلك البعث على يد الملك عبد العزيز، الذي عُرِف بابن سعود؛ خاصة في الغرب.

---

(١) انظر تفصيلات ذلك في المصدر نفسه، ص ص ٩٣ - ١٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠١. ولم يوضح ابن عيسى هل القصران قصر الحكم وقصر عبد الله بن فيصل أو قصرا عبد الله اللذان بنى أحدهما قبل وفاة أبيه وبنى الآخر بعد وفاته. وعلى أية حال، فمن المحتمل أن ابن رشيد لم يهدم قصر الحكم أو هدم جزءاً منه، وأنه لم يهدم المصمك، أيضاً، إذ ليس من الحكمة هدم قصر حصين يمكن أن يكون حصناً لممثّله في المدينة.

عندما غابت شمس الخامس من شوال عام ١٣١٩ هـ الرابع عشر من شهر يناير سنة ١٩٠٢ م، كان الشاب عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود قد وصل إلى ضواحي الرياض مع عدد من أتباعه الذين لا يتجاوزون ستين رجلاً. وكان يحاول أن ينتزع هذه المدينة من أمير ابن رشيد، حاكم نجد حينذاك. وقد تمكّن في صباح اليوم التالي، بخطّة ذكية شجاعة، من القضاء على ذلك الأمير والسيطرة على قصر المُصْمك الذي كانت فيه حامية رشيدية. وما أن تمّ له ذلك حتى انقاد له أهل الرياض فرحين مسرورين[1].

وبعد أن استتب الأمر لعبد العزيز آل سعود في الرياض شرع في بناء أسوارها التي سبق أن هدمها محمد بن رشيد. ولم يمضِ أربعون يوماً إلاّ وقد كمل بناؤها[2]. ثم انطلق عبد العزيز بعد ذلك يوسّع حكمه ويوحّد المناطق تحت زعامته. ومع أنه كان ضعيفاً في بداية مسيرته من الناحية المادية فقد كان لتوافر الصفات القيادية لديه، وما يكنّه أكثر النجديين لأسرته من تقدير، وما عانوه في ظل حكم ابن رشيد من متاعب، أثر كبير في انضمامهم إليه ووقوفهم إلى جانبه حتى انتصر على خصومه. وبعد خمس سنوات من دخوله الرياض تمكّن من القضاء على منافسه القوي عبد العزيز بن رشيد، كما تمكّن من توحيد جميع أقاليم نجد باستثناء جبل شمّر. واستمر في

---

(١) خير الدين الزركلي، **شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز**، بيروت، ١٣٩٠ هـ، ج ١، ص ص ٨٨ - ١٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢١.

كفاحه لتوحيد البلاد وتثبيت أركان الأمن فيها أكثر من ربع قرن حتى تكللت جهوده بالنجاح. وأقام المملكة العربية السعودة، التي ساد مناطقها المترامية الأطراف أمن قلّ أن وجد نظيره على مرّ التاريخ.

تطوّر عمران الرياض:

كان العمران في مدينة الرياض، قبل نهضتها العمرانية المعاصرة، يمثّل البساطة العربية سواء في المواد المستعملة في البناء أو في مظهره وتفصيله. ذلك أن المواد التي تبنى منها المباني كانت محلّية. فأسس الجدران ـ إلا ما ندر ـ من الطين وحده لجودته في هذه المنطقة وعدم وجود مستنقعات تؤثر فيه. والأعمدة قطع حجارة مستديرة الشكل يربط الجص الواحدة منها بالأخرى. أما الجدران فمن اللبن المجفف الذي يمسك الطين بعضه ببعض، ثم تكسى بطين مخلوط بالتِبْن لتجميلها من ناحية ولتقويتها من ناحية أخرى. وأما السقوف فكانت، بصفة عامة، من خشب الأثل التي يصف فوقها جريد النخل، ثم يفرش فوقه الطين. وكانت الأبواب في الغالب من سيقان النخيل التي تحاط من طرفيها ويربط بعضها بالبعض الآخر بخشب الأثل. وقد تستعمل الحجارة، في حالات نادرة، في أسس الأبنية وكذلك في سقوفها بدلاً من جريد النخل؛ خاصة في المساجد.

ومع أن الطابع العام في بناء البيوت كان محلياً بسيطاً فقد اختلف بعضها عن البعض الآخر من حيث الحجم والتفصيل وتوافر المرافق تبعاً لإمكانات أهلها المادية، وانسجاماً مع الأراضي التي لديهم. على أن غالب البيوت كان يتكوّن من طابقين، يشتمل الأرضي منهما، عادة، على مجلس للضيوف من الرجال، وحجرات

لحفظ الأمتعة والمؤن، ومطبخ، وبهـو داخلي مكشوف السقف يحيط به رواق يؤدي إلى الحجرات، ومرافق صحيّة، وحوش منعزل للبقرة أو الغنم. أما الطابق الذي فوق الأرضي فيشتمل على غرف للنوم في ليالي الشتاء، في حين ينام السكان في أيام الصيف فوق سـطوح البيوت التي ترتفع الجدران المحيطة بها حوالى مترين. وإذا لم يكن في اليت إلاّ طابق واحد فإنه يشتمل على ما يحتاج إليه ساكنه. وكان يوجد في بعض البيوت بئر يستخرج منها المـاء بالـدلو لـلاستعمال اليومي، وللشرب منه إن كان عذباً. على أن أكثر البيوت يجلب إليها الماء بواسطة السقائين. ومن البيوت ما كانت توجد فيه صالة تحت جزء من الطابق الأرضي تسمّـى الخلوة أو القبو. وتستعمل، عادة، للنوم خلال شهور البرد القارس أو وسط النهار خلال أيام الحر.

وكانت جدران مجلس الضيوف من الرجال تطلى بالجص الذي تطرّز أطرافه العليا بأشكال هندسية. وكان المجلس يشتمل على وجار توقد فيه النار لعمل القهوة والشاي وللتدفئة وقت الحاجة. وفي نهاية الوجار رفوف توضع عليها دلال القهوة وأباريق الشاي. ويحيط بتلك الرفوف إطار مطرّز بأشكال جميلة.

وكانت مدينة الرياض؛ شأنها شأن كثير من المدن الإسـلامية التاريخية، تتكون من مركز وأحياء متعددة. وكان يوجد في مركزها قصر الحكم وأمامه مساحة فضاء واسعة نسبياً يجتمع فيها من لهم حاجة بالمسؤولين، وتنفّذ فيها أحكام العدالة على المستحقين لها. وإلى جانب هذه وذاك كان يوجد في المركز الجامع الذي تقام فيه وحده صلاة الجمعة، كما توجد الدكاكين التي يستعمل بعضها في بيع السلع المختلفة وشرائها، ويستعمل بعضها الآخر لمزاولة بعض

الحرف اليدوية كالحدادة والخرازة وإصلاح الأسلحة من سيوف وبنادق.

أما أحياء المدينة فكان كل واحد منها يشتمل على مسجد تقام فيه الصلوات الخمس يومياً. وكان المسجد دائماً مستطيل الشكل يشتمل على مصباح، أو رواق مسقوف، مقام سقفه على صفوف من الأعمدة الحجرية. وفي بعض سقوف مساجد الرياض كانت تفرش ألواح من الحجارة فوق خشب الأثل بدلاً من جريد النخيل. وللمسجد سطح جدرانه مرتفعة قدر مترين. وتحت مصباحه، في الغالب، خلوة، وفي شرقية مساحة مكشوفة تسمّى السرحة، وذلك لاستعمال كل مكان من تلك الأمكنة في الفصل الذي يناسب استعماله من فصول السنة؛ إذ لم يكن يوجد حينذاك من وسائل التقنية الحديثة ما يُتَغّلب به على تقلبات الطقس. ومن الملاحظ أن أغلب مساجد الرياض في الماضي لم تكن فيها مآذن مرتفعة مثل تلك الموجودة في كثير من بلدان العالم الإسلامي؛ بل كان يكتفى، غالباً، بشكل مربع غير طويل فوق السلّم المؤدي إلى سطح المسجد.

وكانت أسواق المدينة، بصفة عامة، ضيقة غير مستقيمة. وربما كان من أسباب ضيقها عدم الحاجة إلى سعتها؛ إذ لم تكن هناك سيارات حينذاك، واعتقاد بعض السكان أن تقارب البيوت أكثر أمناً. ولضيق تلك الأسواق كانت بعض أجزائها تغطّى بسقوف ليستفاد منها إما بإقامة غرف فوقها أو باستعمالها جسراً يربط بين بيتين متقابلين.

وكان السور الذي أقامه الملك عبد العزيز حول مدينة الرياض بعد استيلائه عليها سنة ١٣١٩ هـ/١٩٠٢ م سميكاً يبلغ ارتفاعه

خمسة وعشرين قدماً. وكانت له بروج حراسة أغلبها دائري الشكل يتراوح ارتفاعها ما بين ثلاثين قدماً وأربعين قدماً، كما كانت له بوّابات (وتسمى البوابة محلياً دروازه) محصنة تؤدي إلى المـزارع المحيطة بالمدينة ويمرّ عبرها المسافرون منها والقادمـون إليها. وأشهـر تلك البوابات:

١ - بوابة الثميرى شرقاً.
٢ - بوابة آل سويلم شمالاً.
٣ - بوابة دخنة جنوباً.
٤ - بوابة المذبح غرباً[1].

وإذا كـانت مدينة الرياض قد بدأت تعود إليها مكانتها منذ أن دخلها الملك عبد العزيز في السنة المذكورة فإن تلك المكانة أخذت تـرتفع يـوماً بعـد يوم حتى أصبحت محطّ أنـظار الكثيـرين وملتقى الوافدين إلى قادة البلاد في جميع مراحل توحيـدها. وبعـد أن تمّ توحيد مناطق المملكة واستتب الأمن فيها ازدادت أعداد القادمين إلى الرياض للاستقرار فيها. ولـم تعد مساحتها المحاطة بالأسوار كـافية لاستيعاب الجميع. فكان لا بد من التوسع وتجاوز تلك الأسوار.

ولقد تزامن انخفاض نفقات الحكومة المركزيـة على الشؤون العسكرية نتيجة نهاية مراحل توحيد البلاد مع بداية توافر مصادر مالية جديدة. فأصبح لدى قادتها من الثروة ما يمكّنهم من بناء مساكن أكثر سعة من المساكن التي كانوا فيها. وكان استتباب الأمن في البلاد من الأمور التي أزالت دواعي تفضيل السكن داخل أسوار المدينة. ولهذا

---

(١) Philpy, **The Heart of Arabia,** London 1922. Vol. I, p. 70.

بدأ بعض أفراد الأسرة المالكة يبنون قصوراً خارج أسوار الرياض. ومن أوائل هؤلاء الأمير محمد بن عبد الرحمن الذي بنى قصره المشهور في عتيّقة جنوب هذه المدينة. وبنى الملك عبد العزيز قصر البديعة في إحدى مزارع وادي حنيفة لاستعماله خلال شهور الصيف. ثم بنى قصر المربّع المشهور شمال الرياض سنة ١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م[١]. وقد سمِّي بهذا الاسم لإحاطته بأبراج مربّعة الشكل. وخصصه الملك لسكناه في بداية الأمر. ثم بدأ يزاول أعماله الإدارية فيه إضافة إلى سكنه. وفي تلك الفترة شرعت فئات من الذين هاجروا إلى العاصمة حديثاً يبنون مساكن خارجها؛ خاصة جنوبها وشرقها. وبعد ذلك ازدادات الأحياء الجديدة خارج المدينة، ولم يعد يسكنها المهاجرون الجدد وحدهم؛ بل بدأ بعض سكان الرياض الأقدمين يخرجون منها بغية السكن في منازل أكثر فسحة واتّساعاً.

ومع بداية تدفق عائدات النفط ارتفع دخل الحكومة والمواطنين على حد سواء، فازدادت تبعاً لذلك الأعمال في العاصمة، وازدادت بالتالي الهجرة إليها من البلدان والقرى الأخرى. ونتيجة لتوسعها الكبير خارج أسوارها رأى المسؤولون فيها إزالة تلك الأسوار كي تنصهر جميع أحيائها في بوتقة واحدة، وذلك سنة ١٣٧٠ هـ/ ١٩٥٠ م[٢].

وبعد إزالة أسوار الرياض بثلاث سنوات خطت خطوة واسعة في سبيل التنظيم والتقدم. وذلك حين أسندت رئاسة بلديتها إلى

(١) عبد الرحمن بن ناصر، **عنوان السعد والمجد**... مخطوط، ص ٢٣١.
(٢) حمد الجاسر، المصدر السابق، ص ١٢٢.

فهد بن فيصل آل فرحان الذي قام بما أسند إليه من مهام بنشاط كبير. ثم حولت البلدة إلى أمانة سنة ١٣٧٥ هـ/١٩٥٥[١]. واستمر فهد بن فيصل يواصل جهوده المكثفة لتطوير المدينة بشق الشوارع الواسعة ورصفها، وإقامة الميادين الفسيحة، وتجميلها.

وقد شهدت الرياض نقلة جديدة سنة ١٣٧٢ هـ/١٩٥٢ م حينما ربطت بالمنطقة الشرقية من البلاد بسكة حديد، وربطت مع داخل المملكة وخارجها بمطار[٢]. ثم أعقب ذلك اكتمال أبنية الوزارات في شارع المطار وفق الطراز الحديث من الاسمنت والحديد، ونقل موظفيها من الحجاز سنة ١٣٧٥ هـ/١٩٥٥ م. وأنشئت بعد ذلك أحياء جديدة واسعة الشوارع، مثل حي الملز. وظلت المدينة تخطو خطوات واسعة في العمران حتى دخلت نهضتها المعاصرة، أو ما سمِّي بعصر البنك العقاري، إذ بدأت الحكومة تمنح المواطنين قطع أراضٍ وتقرضهم بدون أية فوائد لبنائها. وهذا ما أدىّ إلى تضاعف مساحة الرياض عشرات المرات خلال عقد من الزمن. بل إن مساحتها قفزت من ٥٠ كيلاً مربعاً سنة ١٣٩٦ هـ/١٩٧٦ م إلى ١٢٠٠ كيلٍ مربع في الوقت الحاضر[٣].

وكما تضاعفت مساحة مدينة الرياض تضاعف سكانها. فقد كان هؤلاء السكان لا يتجاوزون بضعة آلاف عندما اتّخذها الإمام تركي بن عبد الله عاصمة للبلاد سنة ١٢٤٠ هـ/١٨٢٤ م. وحين

---

(١) **الرياض مدينة المستقبل**، إعداد أمانة مدينة الرياض، ١٤٠٣ هـ، ص ص ٦٠ - ٦١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ص ١٩ - ٢١.

زارها بالجريف عام ١٤٧٩ هـ/١٨٦٢ م قدّر سكانها بحوالى ثمانية آلاف. ثم أصبحوا تسعة عشر ألفاً حسب تقدير فيلبي سنة ١٣٣٨ هـ/١٩١٩ م. وظلوا يتزايدون حتى وصلوا إلى خمسين وثلاث مئة ألف سنة ١٣٩٠ هـ/١٩٧٠ م. ثم قفزوا إلى ما يزيد على أربعة أضعاف هذا العدد سنة ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م[1].

وكان تضاعف مساحة الرياض مع تضاعف سكانها مصحوباً بالتقدم الحضاري في كل مجالات الحياة كالنهضة التعليمية، وتوافر الخدمات العامة مثل مياه الشرب والمرافق الصحية والكهرباء والمواصلات والاتصالات. وإذا علم - مثلاً - أن المدينة لم تفتح فيها مدرسة حكومية ابتدائية عامة إلا سنة ١٣٦٠ هـ/١٩٤١ م، وأن فيها الآن جامعتين تشتمل كبراهما على اثنتي عشرة كلية يدرس فيها حوالى ثلاثين ألف طالب وطالبة، إضافة إلى كليات خاصة بالبنات وكليات ذات صبغة عسكرية ونحوها، اتضح مدى التقدم الذي أنجز في هذا المجال. ولا تختلف المجالات الأخرى عن مجال التعليم تقدماً وازدهاراً.

وإذا كانت حكومة المملكة العربية السعودية لم تبخل على عاصمتها بما يحقق تقدمها؛ شأنها في ذلك شأن بقية مدن المملكة وقراها، فإن من الجدير الإشادة بجهود المسؤولين عن تطوير هذه العاصمة. وفي مقدمة هؤلاء أميرها صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز، وأمينها معالي الشيخ عبد الله العلي النعيم. وبهذه الجهود أصبحت تضاهي كبريات عواصم بلدان العالم مساحة وتقدماً وجمالاً.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٩.

علاقة حكام الأحساء
بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب
والدولة السعودية الأولى

علاقة حكام الأحساء
بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب
والدولة السعودية الأولى(*)

المتتبع لتاريخ العلاقات بين نجد وشرق الجزيرة العربية يلاحظ أمرين بارزين:

أحدهما: أن ميزان القوة بين المنطقتين قبل نجاح حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان في صالح المنطقة الشرقية. وذلك أن بعض الدويلات التي قامت في الأحساء نجحت في مدّ نفوذها على مناطق من نجد، كما حدث بالنسبة للدولة الجبرية التي أشير إلى أحد زعمائها، أجود بن زامل، بأنه رئيس نجد وسلطان البحرين[1]. وقيل عن زعيم آخر من زعمائها وهو مقرن بن أجود الذي استشهد دفاعاً عن بلاده ضد الخطر البرتغالي سنة ٩٢٧ هـ[2] بأنه:

حمى بالقنا هجراً إلى ضاحي اللوى ... إلى العارض المنقاد نابي الفرايد
ونجدٍ رعى رِبْعيّ زاهي فلاتها ... على الرغم من سادات لام وخالد[3]

والأمر الثاني: أن شرق الجزيرة العربية كان مهماً لأهل نجد من الناحية الاقتصادية. فقد كانت القبائل النجدية تذهب أحياناً إلى

(*) ألقي ما كتب هنا في مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية المنعقد في الدوحة ٢١ ـ ٢٨ مارس سنة ١٩٧٧ م.

(١) السمهودي. **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى**، القاهرة، ١٣٢٦ هـ ٢٨٨/١.

(٢) ابن إياس. **بدائع الزهور**، القاهرة ١٣٨٠ هـ ص ٤٣١.

(٣) ابن لعبون. **تاريخ حمد بن لعبون**، مكة المكرمة، ١٣٥٧ هـ ص ٣٢.

الأحساء لتشتري ما تحتاج إليه من مواد غذائية؛ خاصة التمر. وكان التجار النجديون يذهبون إلى المنطقة الشرقية ليبيعوا ما لديهم من منتوجات بلادهم ويشتروا ما يجدونه في شرق الجزيرة من منتجات أو مما كان يستورد عن طريق موانئها مما هم في حاجة إليه. يضاف إلى ذلك أن هذه المنطقة كانت الجهة المفضّلة التي ينـزح إليها بعض المتضررين من أهل نجد بسبب القحط أو بسبب الحروب لكي يحسّنوا أوضاعهم المعيشية بالعمل في المجال الزراعي أو المجال البحري أو غيرهما. وكثيراً ما استقر بعض أولئك النازحين في المواطن التي قدموا إليها. والشواهد على ذلك كثيرة في المصادر التاريخية.

والشعر المذكور في مدح مقرن بن أجود يشير إلى أن بني خالد كانت من بين القوى النجدية المعتبرة في الربع الأول من القرن العاشر الهجري. ويذكر ابن بشر أن جماعة من شوكة بني خالد رصدت للشريف حسن بن أبي نمي في طريق عودته إلى بلاده من غزوته لشرق نجد سنة ٩٨٩هـ، وأن الشريف علم بخطتها فانتصر عليها[١]. ومحاولة التعرّض للشريف المذكور دليل على شعور تلك الجماعة بقوتها. على أنه يلاحظ أن المصادر التي تتحدث عن صراع القبائل في نجد خلال القرن العاشر الهجري لا تذكر بني خالد من بينها.

ومهما يكن من أمر فإن قوة بني خالد ظهرت جلية في شرقي الجزيرة العربية خلال القرن الحادي عشر. وبعد منتصفه أصبحت، بزعامة آل حميد، القوة القبلية المسيطرة في تلك المنطقة. وكان

(١) ابن بشر. **عنوان المجد في تاريخ نجد**. طبعة وزارة المعارف السعودية الثانية، ١٣٩١ هـ، جـ٢ ص ١٩٥.

برَّاك بن غُرير آل حميد على رأس هذه الزعامة. ومما يدل على شهرته ما مدحه به أمير روضة سدير، رُمَيْزان بن غشام المقتول سنة ١٠٧٩ هـ[١] حين قال:

بـرّاك بن غـريـر أمضى خـالـد بـاس وأكـرمهـا يـداً ومنـاسبـاً

ولقد ساعدت الظروف تلك الزعامة لتستولي على حكم المنطقة[٢]؛ إذ كانت الدولة العثمانية حينذاك تعاني مشاكل متعددة، وكان نفوذها قد انحسر من اليمن. لكن أكبر العوامل التي ساعدت زعامة آل حميد في مسعاها للوصول إلى الحكم وطرد الأتراك ما قام من مشاكل بين حاكم البصرة وبين باشا بغداد امتدت إلى الولاة العثمانيين في الأحساء. وهكذا استغل برّاك بن غرير الموقف، وأجبر الحامية التركية الموجودة في الكوت على مغادرة البلاد سنة ١٠٨٠ هـ[٣].

وما أن استتب الأمر لبرّاك في شرقيّ الجزيرة العربية حتى اتجه بتفكيره نحو نجد، فظهر إليها في عام ١٠٨١ هـ، وهاجم آل نبهان على بلد سدوس. وبعد ذلك بسبع سنين ظهر إليها ثانية حيث أخذ آل عساف قرب الدرعية[٤]، كما قام بغزو السهول وقحطان سنة ١٠٩٠ هـ[٥]. وحين توفي برّاك سنة ١٠٩٣ هـ تولى الزعامة بعده

---

(١) المصدر نفسه، جـ٢ ص ٢١١.

(٢) عبد الله الحاتم، **خيار ما يلتقط من الشعر النبط**، دمشق، ١٨٣٧ هـ، جـ١، ٨٨.

(٣) ابن بشر. المصدر السابق، جـ٢، ص ٢١١.

(٤) المصدر نفسه، جـ٢، ص ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٥) عبد الله بن بسام. **تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق**، مخطوط، ورقة ٥١.

أخوه محمد بن غرير، الذي استمرت في عهده هجمات بني خالد على بعض قبائل نجد وزعمائها. وكذلك كان الموقف زمن ابنه سعدون الذي تولّى الحكم بين سنتي ١١٠٣ هـ و١١٣٥ هـ. ومما يلفت النظر انضمام عبد الله بن معمّر، أمير العيينة المشهور، إلى سعدون بن محمد في بعض غزواته لنجد ومهاجمته بقواته الخاصة لبعض الفئات التي تعرضت لغزوات سعدون، مما يؤكد الترابط بين حاكم الأحساء وتوابعها وبين أمير العُيَينة. ومما يشاهد، أيضاً، سوء العلاقة بين آل سعود أمراء الدرعية وبين سعدون بدليل غزوه لبلدتهم سنة ١١٣٣ هـ [١].

وكان من نتائج تلك الغزوات الخالدية لبعض مناطق نجد ضعف موقف أشراف مكة في تلك المناطق حيث توقفت غزواتهم ضدها أو على الأقل لم تعد تتعمق تعمقها السابق. وكان لأولئك الأشراف نشاط كبير في نجد؛ خاصة بعد أن استولى العثمانيون على اليمن والأحساء وأصبحت نجد محاطة تقريباً بمناطق خاضعة للنفوذ العثماني الذي كان حكام مكة يستظلون به.

ويبدو أن فترة حكم سعدون بن محمد شهدت توسعاً كبيراً للنفوذ الخالدي في المناطق النجدية الأمر الذي عبّر عنه أحد شعراء نجد المعاصرين له بقوله:

ما غير سعدون مزار إلى عدت	علينا الليالي صايلات جرودها
حمى من ربا هجر إلى ضاحي اللوى	إلى الشام من دار العميري حدودها
إلى خشم رمّان إلى النير مجنب	إلى الشعرا واقمانها من لجودها
إلى العرض والوادي الحنيفي مشرق	وما عن جنوب كل هذي يسودها

(١) ابن بشر. المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٣٣.

إلى طاب منها مرتع زانه الحيا رعاها على رغم العدا ما يكودها[1]

وبعد وفاة سعدون حدث خلاف حول الحكم بين ابنيه دجين ومنيع وبين عميهما علي وسليمان، وانقسم بنو خالد، وتقابل الطرفان، وكانت النتيجة في صالح العمين. على أن دجين بن سعدون لم ييأس من المحاولة. وتولى علي بن محمد زعامة بني خالد، ولكن أخاه سليمان كانت له فيما يظهر كلمة مسموعة بدليل أنه كان هدفاً لهجوم ابن أخيه دجين سنة ١١٣٦ هـ[2]. وبعد ذلك بثلاث سنوات حاصر دجين، ومعه حلفاء من الظفير والمنتفق، عمّه علياً في الأحساء. ولكن هذا الأخير نجح في إبعاد المحاصرين له[3].

وما من شك أن هذه الانقسامات الداخلية في زعامة بني خالد، بالإضافة إلى وفاة حليفهم القوي في العارض عبد الله بن معمّر سنة ١١٣٨ هـ، أثّرت على الموقف الخالدي في نجد. لذا نرى الشريف محسن بن عبد الله يصل بقواته إلى الخرج سنة ١١٤٠ هـ لمهاجمة الظفير ومن معهم[4]، ونجد قبيلة مطير تقدم على مهاجمة حجاج الأحسار وتوابعها سنة ١١٤٢ هـ[5]. وفي نفس هذه السنة تمكن دجين بن سعدون من قتل عمّه علي بن محمد، لكن الزعامة أصبحت لسليمان بن محمد.

وفي عهد سليمان ظهرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

---

(١) عبد الله الحاتم، المصدر السابق، جـ١، ص ص ١٩٣ ـ ١٩٥.
(٢) ابن بشر. المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٣٥.
(٣) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٢٣٨.
(٤) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.
(٥) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٢٣٩.

في نجد. بدأت فكرياً في بلدة حريملاء وأصبح لها مؤيدون في أمكنة عديدة من العارض. لكن الشيخ أدرك أن هذه البلدة غير مناسبة لدخول الدعوة مرحلة التطبيق العملي. فانتقل إلى العيينة مسقط رأسه. واستقبله أميرها عثمان بن معمّر استقبالاً حسناً. وبمؤازرة هذا الأمير بدأ ابن عبد الوهاب تنفيذ ما كان ينادي به. وخلال مدة قصيرة أزيلت من المنطقة المجاورة جميع الأمور التي كان الشيخ يرى فيها خطراً على عقائد السكان، كما قام بمهاجمة ما كان يأخذه بعض القضاة النجديين من المتخاصمين مقابل نظرهم في قضاياهم واعتبر ذلك رشوة. ومن الأمور التي نفّذها رجمه لامرأة توفرت لديه في حقها شروط الرجم. وقد أدّت هذه المواقف إلى ردود فعل من قِبَل بعض المنتسبين إلى العلم من أهل نجد. وتزعم معارضة الشيخ في هذه الفترة سليمان بن سحيم من الرياض. لكن المعارضة النجدية أدركت ضعفها فاتجهت إلى الاستنجاد بعلماء من خارج الإقليم وكتب ابن سحيم رسالة إلى العلماء في الأحساء والبصرة والحجاز ضمّنها مآخذه على محمد بن عبد الوهاب. ويبدو أن هذه الرسالة لقيت صدى لدى بعض علماء هذه الأماكن. لكن النشاط الفكري لم ينجح في إيقاف سير حركة الشيخ محمد في نجد، ولذا اتجه أولئك العلماء إلى استعمال سلاح السياسة. وما من شك أن أنسب زعيم كان يمكن أن يستفيدوا منه حينذاك هو حاكم الأحساء لما بينه وبين قادة العيينة من صلات، ولما له من مكانة لدى أميرها عثمان بن معمّر. ويظهر أن أولئك العلماء أوضحوا لسليمان بن محمد أن من واجبه أن يتدخل للقضاء على حركة الشيخ قبل أن يستفحل أمرها، كما أفهموه أن مما ينادي به الشيخ محمد ثورة العامة على حكامهم. وكسب المعارضون حاكم الأحساء إلى جانبهم.

ويذكر ابن غنّام أن السبب المباشر لغضب الزعيم الخالدي رجم الشيخ للزانية لأنه كان مغرماً بالفسق[1]. ويشارك ابن بشر ابن غنّام في اتّهام سليمان بن محمد بالسفاهة حين يذكر أن ذلك الزعيم ولّى محمد المحاوي إمارة قافلة الحجاج من الأحساء وما حولها سنة ١١٤٢ هـ لأنه كان من جنسه[2]. ويتفق مع هذين المؤرخين صاحب **لمع الشهاب**، الذي يقول: إن سبب عزل سليمان عن زعامة بني خالد سنة ١١٦٦ هـ تعرّضه لبنات هذه القبيلة[3]. والحقيقة أن رجم الزانية كان من الأمور التي أخذها بعض المعارضين على الشيخ محمد بحجة أن تنفيذ الرجم لا يقوم به إلا الإمام أو نائبه. وابن عبد الوهاب ليس الإمام ولا نائبه. ولكن ردّه على هؤلاء كان قوياً؛ إذ قال: إن كل متغلّب على بلد له الحق في تطبيق الشريعة وإلّا تعطلت أحكامها لأن السلمين لم يتفقوا على إمام واحد منذ قرون[4]. وقد يكون موضوع الزانية من بين الموضوعات التي رفعتها المعارضة إلى حاكم الأحساء فأثرت فيه مع غيرها بصفتها النظرية أو بصفته التي اتّهمه فيها الكتاب الثلاثة المذكورون.

وعلى أية حال فإن حاكم الأحساء، بما له من إمكانات عسكرية واقتصادية ولما لعثمان بن معمّر من ارتباط به، تمكّن من الضغط على

---

(١) ابن غنّام، **روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام**، القاهرة، ١٣٦٨ هـ ٢/ ٢ - ٣.

(٢) ابن بشر. المصدر السابق ٢/ ٢٤٠.

(٣) لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب. تحقيق أحمد مصطفى أبو حاكمة، بيروت ١٩٦٧ م ص ١٦٠.

(٤) ابن غنام. المصدر السابق ٢/ ٢٠٧.

هذا الأمير ليتخلّى عن محمد بن عبد الوهاب، فاضطر الشيخ إلى مغادرة العيينة والتوجه إلى الدرعية التي كانت مكاناً مناسباً له لأسباب كثيرة؛ منها أن قوتها كانت آخذة في النمو تحت قيادة محمد بن سعود. ومنها أن علاقتها بحكام الأحساء كانت سيئة. وكما يقول المثل: عدو عدوك صديقك. فاحتمال تعاون البلدة مع القادم إليها كبير جداً. ومنها وهو الأهم أنه كان يوجد فيها أنصار مخلصون للشيخ من بينهم إخوة الأمير وابنه عبد العزيز. وكانت صلاتهم به وهو لا يزال في العيينة قوية. وهكذا انتقل ابن عبد الوهاب إلى الدرعية سنة ١١٥٧ هـ. واتفق مع الأمير محمد على نشر الدعوة بمختلف الوسائل. وانضمت بعض البلدان النجدية إلى الدولة الجديدة طائعة مختارة. وعارضت الانضمام بلدان أخرى. ولا شك أن العامل الديني كان بارزاً في مواقف المؤيدين والمعارضين على حد سواء. فبعض المؤيدين اعتقدوا صحة ما كان يدعو إليه الشيخ فانضموا إلى حركته. وبعض المعارضين رأوا خطأه فوقفوا ضدها. ولكن هناك عوامل أخرى سياسية واقتصادية حددت مواقف فئات ممن ناصروا الحركة أو عارضوها.

وعلى أية حال فإن انضمام بعض البلدان النجدية إلى الدرعية مهما كانت أسباب ذلك الانضمام أو وسائله غيّر ميزان القوة المحلية لصالح الدولة الجديدة، فتمكنت بذلك من تثبيت أسس قوتها قبل أن تمتد إليها أيدي قوى من خارج نجد. وهي وإن لقيت بعض المشاكل الداخلية في سنواتها الأولى؛ مثل تلك الثورات التي قامت في بعض البلدان التابعة لها بين سنتي ١١٦٥ و ١١٦٧ هـ، إلا أنها تمكنت من القضاء على تلك المشاكل.

وكان أكبر احتمال تدخل خارجي ضد الدولة الناشئة متوقعاً من زعماء بني خالد نظراً لقربهم منها، ولما لهم من نفوذ سابق في بعض جهات المناطق التي انضمت إليها. لكن الحظ كان حليف الدرعية؛ إذ كان الوضع الداخلي لبني خالد غير مستقر تماماً بدليل أن زعيمهم سليمان بن محمد توفي مبعداً في الخرج سنة ١١٦٦ هـ[1]. ولم يقف الأمر عند نفي سليمان بن محمد وإنما جاوزه إلى حدوث خلاف بين خليفته عريعر بن دحين وبين بعض زعماء بني خالد أدّى إلى إجلاء عريعر عن المنطقة حيث استقام فترة في جلاجل، ثم عاد إلى الأحساء بعد أن قام أناس من قبيلته ضد من أجلاه[2].

وما أن استقرت الأمور لعريعر ثانية، وتوطدت زعامته في شرقي الجزيرة حتى التفت إلى نجد محاولاً الحدّ من توسع الدولة الجديدة فيها. فجهز جيشاً كبيراً أكثره من البادية واتجه إلى الأراضي النجدية، كما اتصل بالمعارضة داخل نجد واستنفر مقاتليها. وكانت الدرعية على علم بجميع تحركاته فأعدت للأمر عدّته، وقامت بزيادة تحصين البلدان التابعة لها، ومن ذلك بناء سورين منضودين بالبروج حول الدرعية. وحين وصل عريعر إلى نجد حاول أن يفتح جبهتين في آن واحد لكي يربك خصومه. فأمدّ معارضي الحكم السعودي في الوشم وسدير بفرقة من بني خالد وعنزة لمهاجمة حريملاء. لكن هؤلاء فشلوا في الاستيلاء عليها، فالتحقوا بعريعر الذي واصل سيره حتى وصل إلى الجُبَيلة. وكان قد انضم إليه، أيضاً، أهل الخرج

(١) ابن بشر. المصدر السابق ١/٤٣.
(٢) المصدر السابق ١/٤٣.

والرياض. وبالرغم من كثرة جيش عريعر فإن صمود القوة الموجودة في الجبيلة وتواصل الإمدادات إليها من الدرعية حالا دون تحقيق أي انتصار لحاكم الأحساء، فعاد بقواته إلى بلاده. وكان ذلك سنة ١١٧٢ هـ[١] وهكذا ابتدأت سلسلة الصراع المسلّح بين الجانبين السعودي والخالدي بغزوة أثبتت قوة الدولة الناشئة في نجد وقدرتها على الصمود. وكان من نتائجها إسراع بعض المعارضين للدرعية في نجد إلى الانضمام إليها[٢]، كما كان من نتائجها شعور الدرعية بالثقة لدرجة أن قامت بغزوة خاطفة على الأحساء سنة ١١٧٦ هـ كان الهدف منها - فيما يبدو - استعراضياً أمام عريعر ومن يؤمل في الاستنجاد به. ولذا نرى دهام بن دوّاس، أصلب معارض نجدي للدرعية، يطلب منها الصلح في عام ١١٧٧ هـ[٣].

وليس غريباً إذن أن يحاول عريعر وضع قواته بجانب قوات حسن بن هبة الله المكرمي رئيس نجران الذي حارب الدرعية سنة ١١٧٨ هـ. ولكن المعركة بين النجراني وقوات الدرعية انتهت بانتصار الطرف الأول انتصاراً عظيماً قبل وصول القوات الخالدية إلى نجد. وانسحب سيّد نجران من الأراضي السعودية بعد انتصاره وما تلا من ذلك من صلح بينه وبين الدرعية. وكان ابن دجين ذا أمل كبير في القضاء على ما بقي من قوة لدى آل سعود بعد اهتزاز معنويتهم نتيجة معركة الحائر الشهيرة. ووصل بقواته إلى الدرعية

---

(١) ابن غنام. المصدر السابق ٢/ ٤ - ٥٥.
(٢) ابن بشر، المصدر السابق ١/ ٥١.
(٣) المصدر نفسه ١/ ٥٦.

نفسها. وكان معه بعض المدافع، ولكنه لم يحسن استعمالها فلم تؤثر في أسوار البلدة التي صمد أهلها ورأوا أن المعركة معه معركة حياة أو موت. ولذا فشل عريعر مرة ثانية أمام صمود الدرعية وأنصارها وعاد إلى بلاده[1]. ولا شك أن فشله هذا رفع من معنويات السعوديين بعد تلك النكسة التي تلقوها على يد صاحب نجران.

ويلاحظ أن عريعر بن دحين لم يقم بأي عمل عسكري ضد آل سعود خلال السنوات العشر التي تلت هذه الغزوة مما أتاح لهم الفرصة ليمدّوا نفوذهم في مناطق نجد المختلفة. وفي سنة ١١٨٧ هـ سقطت في أيديهم مدينة الرياض بعد فرار أميرها دهام بن دواس. وما من شك أن استيلاء آل سعود على هذه المدينة كان نذير خطر لمن بقي معارضاً لهم في نجد ولحاكم الأحساء على حدّ سواء لما مثلته الرياض من مقاومة للنفوذ السعودي خلال سنوات طويلة. وعلى هذا الأساس تحرك الخصوم بما يستطيعون من قوة. ووصل عريعر بقواته إلى القصيم، وتمكن من الاستيلاء على بريدة، وعين أميراً عليها من قِبَله. ثم واصل زحفه بمن انضم إليه من أنصار نحو الدرعية. لكن المنية عاجلته في مكان يقال له الخابية، وذلك سنة ١١٨٨ هـ. ورجع أتباعه إلى أوطانهم[2]. واستعاد آل سعود بريدة بعد عام من استيلاء عريعر عليها.

وبعد وفاة عريعر تولّى زعامة بني خالد ابنه بطين. وقد ساعد صاحب نجران وحلفاءه مالياً في غزوتهم ضد الدرعية سنة

---

(١) ابن غنام. المصدر السابق ٢/٥ - ٦٩.

(٢) ابن بشر. المصدر السابق ١/٧٨.

١١٨٩ هـ[١]. لكن بطيناً كان سيء التدبير كما كانت علاقته سيئة مع أخويه دجين وسعدون. ولهذا قاما باغتياله. وأصبح دجين زعيم بني خالد. لكنه لم يلبث في الزعامة إلا مدة قصيرة حيث مات مسموماً من قِبَل أخيه سعدون. ويبدو أن أهل الأحساء ضاقوا ذرعاً بأعمال القادة الخالديين، فثاروا ضد سعدون وحصل بينهم وبينه قتال سنة ١١٩٠ هـ، لكنه انتصر عليهم[٢].

وفي عام ١١٩٢ هـ نزل سعدون بأتباعه منطقة الخرج. وكانت غير خاضعة لآل سعود حينذاك. ويبدو أنه أدرك ضعف موقفه فتفاوض مع عبد العزيز بن محمد آل سعود حول الصلح، لكنه صلح انتقض قبل عودة سعدون إلى بلاده[٣]. وظل سعدون متخذاً سياسة عدائية ضد الدرعية مؤيداً لخصومها كما حدث سنة ١١٩٣ هـ حين أيّد الثائرين من أهل حَرْمة ضد بلدة المَجْمَعَة المؤيدة للسعوديين، وكما حدث سنة ١١٩٤ هـ حين هاجم القوات السعودية في العتك، وكما وقع سنة ١١٩٥ هـ حين ساعد أهل الدِلَم في محاولتهم الاستيلاء على قصر البِدْع الذي كانت توجد فيه حامية سعودية[٤].

وفي سنة ١١٩٦ هـ وصل سعدون بقواته إلى القصيم. وانضم إليه المعارضون للحكم السعودي من أهلها، وحاصر بريدة. لكنه فشل في اقتحامها، فتركها إلى الزلفي حيث انضم إليه المعارضون

---

(١) ابن غنام. المصدر السابق ٢/٩١.
(٢) ابن بشر. المصدر السابق ١/٨١.
(٣) المصدر نفسه ١/٨٦.
(٤) المصدر نفسه ١/٨٧ ـ ٩١.

للدرعية. واستولى بهؤلاء على روضة سدير ثم عاد إلى بلاده [1].
وكانت هذه الغزوة آخر الغزوات التي قام بها زعماء بني خالد على الأراضي النجدية التابعة للدولة السعودية الأولى. وقد أوضحت هذه الغزوات صلابة الدرعية لتماسك جبهتها الداخلية بعكس الجبهة الخالدية التي كثيراً ما تعرضت للنزاعات الأسرية حول الزعامة. ومنذ ذلك الوقت تغيّر ميزان القوى بين قادة الدرعية وزعماء بني خالد لصالح الطرف الأول. وانتقل آل سعود من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم. ويعود ذلك التغيّر إلى عاملين:

أحدهما: وهو الأهم ثبات مركز آل سعود في نجد وتمكنهم من السيطرة على أكثر أجزائها بحيث تمّ لهم توحيد هذه المنطقة تحت نفوذهم مع نهاية القرن الثاني عشر الهجري.

والعامل الثاني: حدوث مشاكل داخلية في الأحساء وتجدّد الخلاف بين زعماء بني خالد حيث حاول أهل الأحساء التمرد على الزعيم الخالدي سنة ١١٩٩ هـ. ثم قامت ثورة في العام التالي ضد سعدون بقيادة أخيه دويحس وزعيم خالدي آخر اسمه عبد المحسن بن سرداح. وانضم إليهما قسم من قبيلة بني خالد، كما ساعدتهما قبيلة المنتفق بزعامة ثويني بن عبد الله، وانتصر هؤلاء على سعدون بن عريعر الذي لم يجد ملجأ يذهب إليه أحسن من الدرعية ذاتها [2].

وكان متوقعاً أن يغتنم القادة السعوديون الفرص المتاحة لهم

---

(١) المصدر نفسه ٣/١١ ـ ٩٤.
(٢) ابن غنام. المصدر السابق ٣/٢ ـ ١٢٥.

ليبدأوا محاولاتهم في سبيل السيطرة على الأحساء مدفوعين بعوامل متعددة: لقد وضحت لهم قوتهم العسكرية وارتفاع معنويات أتباعهم، وبان لهم ضعف قيادة بني خالد لفشلها المتكرر ضد مناطق نفوذهم، وحدوث النزاعات داخل تلك القيادة. وكانوا يرون أن الأحساء منطقة مشابهة لنجد من حيث عدم تبعيتها للدولة العثمانية. ومن هنا فإن استيلاءهم عليها لا يبرر تدخل العثمانيين. وكانوا، أيضاً، يرون أن حربهم ضد الأحساء لها ما يبررها نظراً لأن قادة هذه المنطقة وقفوا منهم موقفاً عدائياً زمناً طويلاً، وقاموا بمهاجمتهم كلما حانت الفرص. ولهذا فهجومهم على الأحساء ردّ على عدوان سابق. وبالإضافة إلى ذلك كان السعوديون يعتقدون - وقد قامت دولتهم الجديدة على أساس ديني - أن من واجبهم نشر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كل مكان يستطيعون أن ينشروها فيه مهما كانت الوسائل. ولا شك أن هناك أموراً كثيرة في منطقة الأحساء بالذات تدفع أنصار تلك الدعوة إلى السيطرة على المنطقة المذكورة لتهيمن مبادىء الدعوة فيها. وفوق كل ما سبق كان هناك ما تمثّله المنطقة الشرقية من جزيرة العرب من أهمية حيوية واقتصادية بالنسبة لدولة الدرعية. فهي منطقة غنية بمواردها الزراعية واقعة على الساحل. ولهذا فهي تتيح لمن ملكها التمتع بخيراتها الزراعية وثرواتها البحرية وما تدره من مكاسب عن طريق التجارة.

ومنذ سنة ١١٩٨ هـ بدأت سلسلة الهجمات السعودية على الأحساء. فقد هاجم سعود بن عبد العزيز عيون الأحساء وحصل على بعض الغنائم في تلك السنة[١]. وكانت هذه الغزوة بمثابة جس النبض

(١) ابن بشر. المصدر السابق ٩٦/١.

واستطلاع المنطقة التي ستكون مسرح خططه المستقبلية.

وكما ذكرنا لجأ سعدون بن عريعر إلى الدرعية سنة ١٢٠٠ هـ. وكان متوقعاً أن يقف حاكمها عبد العزيز بن محمد موقفاً حذراً من قضية لجوئه إليها. ذلك لأن علاقته بزعيم المنتفق المعادي لسعدون كانت إلى ذلك الوقت طيبة. وكان يخشى أن تتأثر تلك العلاقة بسبب قبوله لسعدون. وقد حدث ما كان يخشاه حين قام ثويني بن عبد الله بغزو منطقة القصيم السعودية سنة ١٢٠١ هـ. غير أن ظروفاً طارئة أجبرته على العودة إلى العراق[١]. على أن لجوء سعدون إلى الدرعية كان، على أية حال، مفيداً لها في خططها التي كانت تعدّها للاستيلاء على الأحساء لما لديه من خبرة عنها، وما قد يكون له فيها من أتباع مهما قلّ عددهم.

وفي عام ١٢٠٢ هـ قام السعوديون بقيادة سليمان بن عفيصان بهجومين استهدف أحدهما الجِشّة والثاني العُقير. أما سنة ١٢٠٣ هـ فقد شهدت انتصار سعود بن عبد العزيز على ثويني بن عبد الله في ديرة بني خالد وعلى فريق من هذه القبيلة، كما شهدت غزوة للمُبَرَّز وأخذه لقرية الفُضُول شرقي الأحساء[٢]. وأما عام ١٢٠٤ هـ فقد شهد غزو سعود لبني خالد مصحوباً بزيد بن عريعر ومن معه من الجالين لدى الدرعية من هذه القبيلة. وقد انتصر سعود على خصومه وخضع له بعضهم. ويذكر ابن غنّام أن سعوداً طلب من زيد أن يصحبه لمهاجمة الأحساء، لكنه اعتذر[٣]، بينما يقول ابن بشر إن

---

(١) المصدر نفسه ١/٩٩.

(٢) المصدر نفسه ١/١٠٠ - ١٠١ و ١٠٤ - ١٠٥.

(٣) ابن غنام. المصدر السابق ٢/١٤٣.

سعوداً عيّن زيداً أميراً على من دخل في طاعته من بني خالد[1]. وقد أقدم زيد بن عريعر على خطوة سيئة حين أعطى أماناً للزعيم الخالدي عبد المحسن بن سرداح ثم قتله بعد حضوره إليه[2]. ويبدو أن عمله هذا أثار كثيراً من رجال قبيلتهما عليه، فانفضوا من حوله، وانضموا إلى ابن القتيل برّاك بن عبد المحسن.

أما سعود بن عبد العزيز فإنه هاجم أماكن معيّنة من القطيف سنة ١٢٠٦ هـ واتخذ ضدها إجراءات عنيفة[3]. وفي السنة التالية قام بمهاجمة برّاك بن عبد المحسن وأتباعه من بني خالد قرب اللصافة وانتصر عليهم انتصاراً عظيماً عبّر عن درجته ابن بشر بقوله: «ولم يقم لبني خالد بعد هذه الوقعة العظمى قائمة»[4]. وبعد ذلك الانتصار زحف سعود بقواته نحو مدينة الأحساء بعد دعوته لزعمائها بالدخول في طاعته. وقد أدرك أولئك الزعماء خطورة الموقف فأعلنوا ولاءهم له. وعيّن سعود محمداً الحملي أميراً على هذه المدينة من قِبَل الدرعية. لكن ما أن غادر سعود المنطقة حتى ثار الأحسائيون على الأمير السعودي وقتلوه، كما قتلوا غيره من الإداريين السعوديين. واستقدموا زيد بن عريعر إلى مدينتهم فأصبح أميراً عليهم[5].

وليس غريباً أن نرى برّاك بن عبد المحسن يغيّر موقفه نوعاً ما وينضم إلى سعود بن عبد العزيز في هجومه على الأحساء سنة

---

(١) ابن بشر. المصدر السابق ١٠٦/١.
(٢) المصدر نفسه ١١١/١.
(٣) المصدر نفسه ١١٠/١.
(٤) المصدر نفسه ١٢٨/١.
(٥) ابن غنام. المصدر السابق ٢/٢ - ١٦٣.

١٢٠٨ هـ، ما دام ذلك الهجوم موجهاً ضد عدوه زيد بن عريعر وأنصاره. وقد لعب برّاك دوراً بارزاً في إقرار الصلح بين أهل الأحساء، الذين أدركوا ضعف موقفهم أمام قوات سعود بن عبد العزيز المهاجمة لهم، وبين الدرعية. وأخذ لهم أماناً من عبد العزيز بن محمد آل سعود. وعاد سعود إلى عاصمة دولته بعد أن أصبح برّاك أميراً سعودياً على ما دخل تحت نفوذ الدرعية من المنطقة الشرقية. وانتهى بذلك حكم آل حميد لهذه المنطقة في تلك الفترة[1].

على أن أهل المنطقة انقسموا في ولائهم. فبعضهم استمر مؤيداً لبرّاك وللحكم السعودي من ورائه. وبعضهم؛ خاصة أهل الشرق، فضلوا تأييد زيد بن عريعر وإخوانه. على أن هذا الفريق كان أضعف من الناحية العسكرية. ولذا اضطر زيد ومن معه إلى مغادرة المنطقة.

واستمر برّاك في إمارته عامين تقريباً، لكنه عجز عن تنفيذ بعض ما طلب منه القادة السعوديون. وبدا وكأن اتحاد الموقف بينه وبينهم كان مربوطاً بظروف خاصة؛ وهي وجود زيد بن عريعر العدو المشترك. وحين زالت تلك الظروف لم يعد مستغرباً أن ينفرط عقد ذلك الاتحاد. وهكذا نرى ابن بشر يتّهم براكا بممالأة الثائرين على الحكم السعودي من أهل الأحساء سنة ١٢١٠ هـ، ونجد سعود بن عبد العزيز بعد قضائه على أولئك الثائرين يعيّن شخصاً يقال له ناجم بن دهينيم أميراً على المنطقة[2].

---

(١) ابن بشر. المصدر السابق ١/١٣٠ - ١٣١.

(٢) المصدر نفسه ١/١٣٦.

وكان لسقوط الأحساء في أيدي القادة السعوديين نتائج متعددة. فقد بدأت الجهات الخارجية التي لها مصالح معيّنة في منطقة الخليج العربي تقيم وزناً لحكام الدرعية أكثر من ذي قبل. ومن بين تلك الجهات شركة الهند الشرقية التي كان يهمّها جداً سلامة بريدها في هذه المنطقة، كما أن الدولة السعودية المتحفزة أصبحت ذات حدود مع إمارات الخليج ومع الدولة العثمانية ممثّلة في باشوية بغداد. ومعنى ذلك أنه قد أصبح لزاماً على هذه الدولة الجديدة أن تتعامل مع دول خارجية. ولقد جسّم استيلاء السعوديين على الأحساء خطورتهم في عيون القادة العثمانيين؛ ولهذا نراهم يحثّون واليهم على بغداد ليقوم بمحاربة الدرعية، فتقوم حملة ثويني المشهورة سنة ١٢١١ هـ بعد أن كانوا قد امتنعوا عن مساعدة شريف مكة ضد آل سعود سنة ١٢٠٧ هـ[١]. ولقد اتّسعت رقعة الدولة السعودية بدخول الأحساء فيها مما زاد في عدد مقاتليها من ناحية وزاد في هيبتها وقدرتها أمام مختلف الخصوم من ناحية ثانية؛ خاصة أن منطقة الأحساء غنية صالحة لأن تكون نقطة انطلاق عسكري لغزو بقية مناطق الخليج أو العراق بدلاً من أن تأتي القوات من نجد البعيدة نسبياً والمفصولة عن هذه المناطق بالدهناء. وإذا كانت بعض الإغارات السعودية على أماكن خليجية غير الأحساء قد حدثت قبل استيلاء آل سعود على هذه المنطقة فإن استيلاءهم عليها أعطاهم الفرصة الكبيرة لمواصلة مشاريعهم بنجاح.

---

(١) المصدر نفسه ١/١٣٧.

ولقد تمكّن آل سعود باستيلائهم على الأحساء من الوصول إلى البحر، فأصبح بمقدوهم استيراد ما يريدون استيراده من بضائع خلال موانئه كما جنى أتباعهم كثيراً من الأرباح نتيجة الغوص واستخراج اللؤلؤ. ويضاف إلى كل ما تقدم أن منطقة الأحساء أرض خصبة زاد إنتاجها خزينة الدولة السعودية غنى وأمدّها بثروة كبيرة.

(١) أحمد زيني دحلان. خلاصة الكلام، القاهرة ١٣٠٥ هـ ص ٢١٦.

لمحة عن تاريخ المملكة العربية السعودية وعوامل نجاح الملك عبد العزيز في توحيدها(*)

لمحة عن تاريخ المملكة العربية السعودية وعوامل نجاح الملك عبد العزيز في توحيدها(*)

تتكوّن المملكة العربية السعودية ـ كما يعرف الكثيـرون ـ من أربـع مناطق جغـرافية رئيسيـة هي: الحجاز، وعسيـر، والأحساء. ونجد. ويطلق على هذه المناطق في الوقت الحاضر مسمّيات إدارية هي: المنـطقة الغـربية، والمنـطقة الجنـوبية، والمنـطقة الشـرقيـة، والمنطقة الوسطى.

وهنـالك منـاطق اتخذت مسميّـات إدارية وإن كـانت ملحقـة بمنطقة أو منطقتين من المناطق السابقة من الناحية الجغرافية؛ مثل المنطقة الشمالية الملحقة جغرافياً بنجد والحجاز، ومنطقتي جـازان ونجران الملحقتين بمنطقة عسير.

(*) هذا العنوان مقتبس من عنواني محاضرتين إحداهما بعنوان: «عوامل نجاح الملك عبد العزيز في توحيد المملكة العربية السعودية». وقد ألقاها المؤلف في الرياض بمناسبة المؤتمر العالمي لتاريخ الملك عبد العزيز، الذي عقدته جامعة الإمـام محمـد بن سعود عـام ١٤٠٦ هـ. وثانيهمـا بعنوان: «تـاريخ المملكـة العـربيـة السعودية». وقد ألقاها المؤلف في القاهرة بمناسبة معرض الرياض، الذي أقيم هناك عام ١٤٠٧ هـ.

أما الحجاز ـ أو المنطقة الغربية ـ فمهوى أفئدة المسلمين أينما كانوا. فبيت الله الحرام في مكة ومسجد الرسول، ﷺ، في المدينة قد جعلا منها مكاناً لا يضاهيه أي مكان جلالاً وقدراً. وبالإضافة إلى أهمية طول سواحلها على البحر الأحمر ونشاط حركتها التجارية فإن فيها أماكن زراعية كثيرة.

وأما عسير ـ أو المنطقة الجنوبية ـ بسراتها وتهامتها فكثيرة المدن والقرى، ذات سواحل طويلة على البحر الأحمر، وذات إمكانات زراعية متنوعة. وبالإضافة إلى ذلك فإن جبالها تمثّل في الوقت الحاضر منطقة جذب سياحي من داخل المملكة ودول الخليج العربية. ويدخل في مسمّى هذه المنطقة جغرافياً إقليم جازان على ساحل البحر الأحمر؛ وهو إقليم برز منه علماء أجلاء في عصور مختلفة، كما أنه إقليم زراعي مهم. ويدخل في مسمّاها الجغرافي، أيضاً، إقليم نجران المشهور بآثاره التاريخية، والمزدهر زراعياً في الوقت الحاضر.

وتشتمل منطقة الأحساء ـ أو المنطقة الشرقية ـ على إقليمي الأحساء والقطيف. وهي غنية زراعياً، ومطلة على مياه الخليج العربي. وقد ازدادت أهميتها الاقتصادية كثيراً بعد ظهور النفط في أراضيها.

أما منطقة نجد ـ أو المنطقة الوسطى ـ فواسعة الأرجاء تشتمل على عدة أقاليم توجد فيها واحات زراعية مهمّة. ومن أهم ميزاتها جودة مراعيها المناسبة للإبل بصفة خاصة. ولتلك الجودة ووفرة الإبل فيها كانت تسمّى «أم البل».

وأما المنطقة الشمالية الملحقة جغرافياً بنجد والحجاز فيوجد

فيها مراعٍ جيدة، كما يوجد فيها إقليم الجوف الغني بزراعته وآثاره، ويوجد فيها مدن مهمّة مثل مدينة تبوك والعلا.

تلك هي المناطق المكونة للمملكة العربية السعودية. وتلك أهم سماتها. فكيف كانت أوضاعها قبل الحكم السعودي الذي بدأ قبل قرنين ونصف القرن من الزمن؟.

كانت الحجاز تحت حكم الدولة العثمانية من الناحية الرسمية. لكن أشراف مكة كانوا مستقلين في إدارة الشؤون الداخلية لتلك المنطقة بدرجة كبيرة. وكان التنافس بينهم على الحكم يصل، أحياناً، إلى صراع مسلّح عانى منه السكان المحليون والحجاج الشيء الكثير. ومع وجود عدد من العلماء الأجلاء في الحرمين الشريفين فإن الجهل كان منتشراً بين عامة السكان؛ خاصة البادية. وبانتشار الجهل انتشرت البدع والخرافات وبعض الأمور التي لا تتفق مع تعاليم الدين الحنيف.

وكان لأشراف مكة نفوذ في بعض جهات عسير، خاصة في تهامتها. لكن زعماء تلك المنطقة المحليين كانت لهم القوة الحقيقية في تصريف أمورها. وكان رؤساء نجران مستقلين بتدبير شؤون بلادهم. أما جازان فكانت تحت حكم أمرائها المحليين من الأشراف. على أن التنافس الداخلي كان يحدث، أحياناً، بين أولئك الزعماء والرؤساء. ولم تكن المنطقة بأقاليمها أسعد حظاً من الحجاز من حيث انتشار الجهل بين العامة ووجود البدع والخرافات والأشياء التي لا يقرّها الدين القيّم.

ولقد دخلت منطقة الأحساء تحت حكم الدولة العثمانية فترة من الزمن. ثم استقل بحكمها زعماء قبيلة بني خالد. وكانت في داخل

مدنها حركة علمية جيدة. لكن الجهل كان منتشراً بين عامة سكانها، وكان يوجد فيها ما يوجد في كثير من الأقطار الإسلامية حينذاك من بدع وخرافات.

وكان لأشراف مكة نفوذ ضعيف على بعض بلدان نجد، ولزعماء بني خالد نفوذ مثله على بعض بلدانها الأخرى. لكن كان لكل بلدة أمير محلي، ولكل قبيلة زعيمها الخاص. وكان النزاع بين أمراء البلدان وزعماء القبائل شديداً. ومع وجود علماء في كثير من بلدان نجد فإن الجهل كان منتشراً بين عامة السكان؛ خاصة القبائل الرّحل. ولهذا انتشر في نجد ما انتشر في غيرها من الأقطار من البدع والخرافات.

ولم تشر المصادر إلى وجود علماء في المنطقة الشمالية من البلاد. ولذلك فإن الجهل بأمور الدين لدى سكانها ربما كان أكثر منه في غيرها من مناطق البلاد.

وهكذا يلاحظ أن الجهل بأمور الدين كان سائداً بين عامة السكان في جميع المناطق التي تكونت منها المملكة فيما بعد، وأنه قد انتشر فيها ما كان منتشراً في الأقطار الإسلامية حينذاك من بدع وخرافات، كما يلاحظ أن الصراع على السلطة والتنافس على السيادة قد كانا سبباً في التفكك السياسي المرير.

ولذلك كانت البلاد، بمختلف مناطقها، في حاجة إلى دعوة إصلاحية تنشر عقيدة التوحيد الخالص من شوائب الشرك، وإلى حكومة قوية توحّد بلدانها وقبائلها المختلفة وتحقق الأمن في ربوعها.

ومن حسن الحظ أن منطقة نجد لم تكن خاضعة لحكم الدولة العثمانية المباشر، وكانت بعيدة عن عاصمة تلك الدولة ومراكز

ولاياتها القوية. ولهذا كانت مكاناً مناسباً لنجاح الدعوة الإصلاحية والحكومة الموحِّدة. وقد شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن تكون منبع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية، التي ساندها قادة آل سعود حتى عمّ خيرها سكان المملكة فيما بعد.

وقد ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العيينة سنة ١١١٥ هـ، ونشأ نشأة علمية مباركة. ثم سافر إلى خارج نجد لطلب العلم. وبعد أن عاد إلى نجد من أسفاره خارجها بدأ دعوته الإصلاحية فيها. ومن أهم أهداف تلك الدعوة إفراد الله بالعبادة، ومحاربة الشرك بجميع أنواعه، وسدّ الذرائع المؤدية إليه، والقضاء على البدع في الدين، وتطبيق الشريعة في كل أمور الحياة؛ وذلك في ظل دولة قادرة على تحقيق تلك الأهداف.

وانقسم سكان المنطقة بين مؤيد لدعوة الشيخ محمد ومعارض لها. وكان المعارضون في البداية أكثر وأقوى. ثم استقر به المقام عام ١١٥٧ هـ (١٧٤٤ م) في بلدة الدرعية التي كان أميرها محمد بن سعود. وكان جد آل سعود، مانع المريدي، هو الذي أنشأ هذه البلدة في منتصف القرن التاسع الهجري. وبقيت ذريته توسّع البلدة، ويتنافس أفرادها على إمارتها شأنهم في ذلك شأن بقية أمراء البلدان النجدية في تلك الفترة.

ولما استقر الشيخ محمد في الدرعية رحب به الأمير محمد بن سعود، وعاهده على مناصرة الدعوة التي نادى بها. وبذلك قامت الدولة السعودية الأولى المعتمدة على أسس دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. ولقد انضمت إلى الدولة الجديدة بعض الإمارات النجدية طائعة مختارة. لكن إمارات نجدية أخرى رفضت أن تنضم

إليها. ولا شك أن العامل الديني كان العامل الأكبر في الانضمام إلى تلك الدولة أو عدم الانضمام إليها. لكن عوامل أخرى سياسية واقتصادية كان لها أثر واضح، أيضاً، في تحديد المواقف. ولأن النزعة السلبية تجاه الوحدة كانت الصفة المهيمنة على مواقف كثير من أمراء نجد وقبائلها حينذاك استغرق توحيدها تحت راية الدولة الجديدة وقتاً طويلاً. على أنه كان واضحاً منذ البداية أن الزمن كان في صالح تلك الدولة. ذلك أنها كانت تحارب قوى محلية مفككة، وكانت تمارس نشاطها في منطقة بعيدة نسبياً عن متناول السلطة العثمانية. ولم يُتَوَفَ الأمير محمد بن سعود عام ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) إلا وقد شمل نفوذها عدة أقاليم نجدية. وقد خلفه في الحكم ابنه عبد العزيز الذي كان من أعظم الحكام الذين ظهروا في جزيرة العرب عبر التاريخ من حيث العلم بأمور الشريعة، والمهارة العسكرية، والقدرة الإدارية، والعدل، والتديّن. وقد اتّسع نفوذ الدولة في عهده اتساعاً عظيماً. فقد واصل جهود أبيه حتى وحّد جميع أقاليم نجد حاضرة وبادية في مستهل القرن الثالث عشر من الهجرة.

وما أن وحدت الدولة الجديدة منطقة نجد حتى بدأت تكتسح الكيانات السياسية المجاورة لها والتي كانت قد ناصبتها العداء وبدأتها بالحرب. فبعد ست سنوات من توحيد نجد تمكنت تلك الدولة من إدخال المنطقة الشرقية من الجزيرة تحت حكمها، وبدأت جيوشها تتوغل في أراضي الحجاز. وهنا أدرك العثمانيون قوتها، فأرسلوا حملات عسكرية من العراق ضدها، لكن هذه الحملات باءت بالفشل. بل إن الدولة الجديدة في جزيرة العرب تمكنت من شن حملات عسكرية ناجحة داخل الأراضي العراقية ذاتها.

وظلت الدولة السعودية تزداد قوة واتساعاً في اتجاهات مختلفة. وكان من الجهات التي انضمت إليها منطقة عسير المهمّة. وفي مستهل عام ١٢١٨ هـ (١٨٠٣) دخل اتباع الإمام عبد العزيز بن محمد، بقيادة ابنه المظفر سعود، مكة المكرمة دون إراقة دماء. وكان ذلك النجاح السعودي صدمة عنيفة للعثمانيين، الذين كانت تلك البلدة المقدسة تابعة لهم رسمياً. لكن عبد العزيز بن محمد لم ينعم بذلك النجاح طويلاً. ذلك أن أحد العراقيين، بتأييد من باشا بغداد، قام باغتياله وهو يؤدي الصلاة في مسجد الدرعية في العام المذكور سابقاً. وقد خلفه في الحكم ابنه سعود، الذي كان موفّقاً في نشاطه العسكري بدرجة كبيرة حتى لم يعد خارجاً عن نفوذه من كل مناطق الجزيرة العربية إلا الكويت، وحضرموت، وأجزاء غير كبيرة من اليمن وعمان. بل إنه بسط له نوعاً من النفوذ خارج الجزيرة؛ إذ اضطرت بعض القبائل في كلٍ من العراق والشام إلى دفع الزكاة إليه. ولذلك لقب بسعود الكبير.

ولما استولى آل سعود على الحجاز ازداد تصميم العثمانيين على محاربتهم والقضاء على دولتهم. فأمروا والي مصر، محمد علي باشا، بتجهيز حملة عسكرية تقوم بما كانوا يطمحون إليه. ووصلت تلك الحملة إلى الحجاز سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م)، فتكبّدت خسائر فادحة في بداية الأمر، لكنها نجحت أخيراً في دخول المدن الحجازية الكبيرة دون مشقة. وكان من أهم أسباب ذلك النجاح تواطؤ شريف مكة مع قادتها ضد آل سعود.

وبينما كانت قوات محمد علي تواصل حروبها في منطقة عسير، وتتلقى الهزيمة إثر الهزيمة هناك، توفي سعود بن عبد العزيز سنة ١٢٢٩ هـ (١٨١٤ م)، وخسر السعوديون بوفاته قائداً من أمهر

القادة العسكريين. وخلفه في الحكم ابنه عبد الله، الذي لم يكن له من التاريخ الحربي مثل ما كان لأبيه. وبدأت قوات محمد علي تحقق انتصارات ضد السعوديين. ورغم ما أبداه أتباع الإمام عبد الله بن سعود من بسالة فقد تمكن إبراهيم بن محمد علي في نهاية الأمر من إرغام ذلك الإمام على الاستسلام له عام ١٢٣٣ هـ (١٨١٨ م). وأُخِذَ الإمام إلى مصر، ثم بُعِثَ به إلى تركيا حيث أعدم هناك. وبذلك انتهت الدولة السعودية الأولى.

وبعد نهاية الدولة السعودية الأولى عادت البلاد؛ خاصة منطقة نجد، إلى شبه ما كانت عليه قبل قيام هذه الدولة من تفكك سياسي واضطراب أمنيّ. لكن محاولات بذلت لتوحيدها. وكللت تلك المحاولات بالنجاح حينما تمكن الإمام تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود من إجبار بقية أفراد الحاميات التابعة لمحمد علي على الانسحاب من نجد عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤ م). واتخذ تركي من الرياض عاصمة للدولة السعودية الجديدة، أو الدولة السعودية الثانية. ولأنه كان متديّناً شجاعاً حسن السياسة، ولما لأسرته في قلوب السكان من مودة التف حوله النجديون. ولم يمض عامان على انسحاب حاميات محمد علي من نجد إلا وقد انضمت إلى دولته جميع البلدان النجدية مختارة بصفة عامة. وبعد ذلك بخمسة أعوام تمكن من توحيد المنطقة الشرقية مع نجد، كما انضمت إليه أجزاء من جهات عمان.

على أن مشاري بن عبد الرحمن بن سعود طمع في الحكم، فدبر مؤامرة أدّت إلى اغتيال الإمام تركي آخر سنة ١٢٤٩ هـ. وسارع فيصل بن تركي فقضى على مشاري، وأصبح حاكماً للبلاد.

لكن محمد علي كان حينذاك قد نجح في توسيع نفوذه خارج مصر، فعزم على أن تكون جزيرة العرب داخلة تحت حكمه. وبذلك حارب الإمام فيصل بن تركي حتى استسلم لقائده خورشيد سنة ١٢٥٤ هـ، وأُخذ الإمام إلى القاهرة حيث بقي خمس سنوات، ثم عاد إلى نجد، واستطاع، بمساعدة مؤيديه، أن يستعيد حكمه عليها. وبعد ذلك دخلت تحت حكمه المناطق التي سبق أن دخلت تحت حكم أبيه تركي.

وظلّ الإمام فيصل حاكماً للبلاد حتى وفاته سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م). وخلفه في الحكم ابنه عبد الله، لكن الخلافات سرعان ما نشبت بينه وبين أخيه سعود. وكانت تلك الخلافات، وما ترتّب عليها من حروب داخلية، أكبر الأسباب في نهاية الدولة السعودية الثانية. فقد كانت وسيلة للعثمانيين ليستولوا على المنطقة الشرقية من البلاد عام ١٢٨٨ هـ، وفرصة لمحمد بن رشيد - أمير جبل شمّر - لتوسيع إمارته حتى شملت الأقاليم النجدية، وانتهى حكم آخر أئمة الدولة السعودية الثانية، الإمام عبد الرحمن بن فيصل، عام ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ م).

وإذا كانت الدولة السعودية الثانية قد انتهت، وأصبحت البلاد التابعة لها مقسمة بين العثمانيين في المنطقة الشرقية وآل رشيد في نجد فإن من المعلوم أن منطقة الحجاز قد عادت عثمانية رسمياً كما كانت قبل دخولها تحت حكم الدولة السعودية الأولى، وأن منطقة عسير بعد نهاية ذلك الحكم ظلت تشهد صراعاً بين العثمانيين وأعوانهم وبين المناضلين من أهلها الذي يسعون إلى استقلالها. وقد نجح هؤلاء المناضلون، رغم التضحيات الكبيرة، في نيل كثير مما سعوا إليه.

ولقد استقر المقام بآخر حكام الدولة السعودية الثانية، الإمام عبد الرحمن بن فيصل، وأسرته في الكويت. وظل معها هناك حتى تمكن ابنه عبد العزيز (الملك عبد العزيز) من دخول الرياض وانتزاعها من حكم آل رشيد عام ١٣١٩ هـ /١٩٠٢ م؛ مبتدئاً بذلك أولى خطواته الموفّقة في توحيد المملكة العربية السعودية. فما العوامل التي تهيأت لذلك الملك حتى حقق ما حققه من نجاح في مساعيه التوحيدية؟.

لم تكن مسيرة الملك عبد العزيز لتوحيد البلاد قصيرة سهلة؛ بل كانت طويلة شاقة في معظمها. ذلك أنها استغرقت ربع قرن من الكفاح المستمر. ثم كللت جهوده بالنجاح. والمتأمل في تاريخ ذلك القائد يلاحظ أن عوامل نجاحه تعود في مجملها إلى أمرين: صفاته القيادية، والظروف الداخلية والخارجية التي أحاطت بمسيرته.

وكانت صفات الملك عبد العزيز القيادية كثيرة. لكن أهمها ما يلي:

١ ـ التدين.

وتديّن الملك عبد العزيز ذو مظهرين: أحدهما سلوكه الشخصي؛ إذ كان مستقيماً خُلقياً محافظاً على أداء الواجبات والسنن الدينية. وثانيهما مناداته بالإسلام عقيدة صافية وشريعة سمحة. ولا شك أن التديّن عامل قوة للفرد يكسبه صفات جليلة في طليعتها الثقة بالله والتوكل عليه، والعزيمة على اقتحام الأهوال، والصبر عند الشدائد.

وكان لتدين الملك عبد العزيز بمظهريه أثره البعيد في استقطاب أكثرية سكان المنطقة التي بدأ فيها تأسيس حكمه. ذلك أن

هؤلاء السكان؛ خاصة الحاضرة منهم، كانوا يكنّون مودة للدين. وكان حب الدعوة الخيّرة التي تبنتها الدولتان السعوديتان الأولى والثانية لا يزال متغلغلاً في أفئدتهم. ولعلّ من أوضح الأدلة على تلك المودة وذلك الحب ما تضمنته بعض قصائدهم الحماسية في مرحلة توحيد البلاد كلها من إشادة بالدين وبمن ناصروه. ثم كان اندفاع البادية إلى حركة الإخوان الدينية المشهورة مثلاً آخر على مكانة الدين في نفوسهم وتحمسهم له.

٢ ـ الكرم.

وكان سخاء الملك عبد العزيز جزلاً غير متكلف. فقد كان من أحب الأمور إلى نفسه أن يستقبل الضيوف ويهب الهدايا. ولم يعهد عنه أنه فكر يوماً من الأيام بادخار المال والاتجار به. وإذا كان حب الكرم والإعجاب به من طبائع البشر أينما كانوا فإن الكريم يحتلّ منزلة خاصة في نفوس العرب بالذات. وإذا كانت إشادتهم بالفروسية مما حفلت به كتب تراثهم فإن إشادتهم بالكرم لا تقل عنها، بل ربما تفوقت عليها. ولا شك أن كرم الملك عبد العزيز كان عاملاً قوياً لنيل إعجاب السكان به وانضمامهم إلى صفّه.

٣ ـ الشجاعة:

وكانت شجاعة الملك عبد العزيز شجاعة المتّزن الواعي لا شجاعة المتهوّر غير المبالي. كان لا يتأخر عن المعارك. وما كان في جسده من جراح أكبر شاهد على ذلك. لكنه كان يقدم إذا رأى الإقدام ضرورياً مفيداً، ويحجم إذا رأى الإحجام ضرورياً مفيداً أيضاً. على أنه أبدى من الشجاعة ما كسب به إعجاب السكان وهو

لا يزال في عنفوان شبابه. وكانت معركة الرياض ثم معركة الدلم من أبرز أدلة شجاعته في تلك المرحلة. وعندما وصل إلى القصيم في مستهل عام ١٣٢٢ هـ كان برفقته فئات من النجديين في طليعتهم أهل العارض وزعماء القصيم الذين كانوا لاجئين في الكويت. وكان حينذاك لا يزال فتى في العقد الثالث من عمره. وهذا ما جعل بعض الشعراء يشيدون بذلك. ومن هؤلاء الشاعر إبراهيم القاضي الذي قال في تلك المناسبة:

جَـاكْ وادي حنيفةْ يصـطفق كلَّهْ والبحر جهّزْ اللّي به وجا ماشي[(١)]

جَوكْ يتْلُونْ من يثْقلْ على الحِلّه أشقرٍ مخلبهْ من ناش ما عاشِ[(٢)]

توّ سنّهْ صغيرْ وبان فعلٍ لِهْ قبّ واعولْ هديرٍ لهْ وهو حاشي[(٣)]

وتتجلّى شجاعة الملك عبد العزيز المتّزنة الواعية في عدة أمور: أولها أنه أدرك منذ البداية أنه لا يخطط لمعركة واحدة تنتهي بنهايتها مسيرته هزيمة أو انتصاراً؛ بل يخطط لحكم واسع مستمر. ولهذا كان يحاول ـ ما أمكنه ـ تفادي الحرب. وكان يفضّل دائماً أن يكسب الآخرين بدون قتال بدلاً من أن يحاربهم لينتصر عليهم. ولم

---

(١) جاك وادي حنيفة: وادي حنيفة وادي كبير تقع على جوانبه مدن مهمّة كالرياض والدرعية. جاك: اندفع بقوة. والمراد: أقبل إليك باندفاع سكان ذلك الوادي وما حوله من أهل العارض. والبحر جهّز اللّي به..: المراد بالبحر الكويت لوقوعها على ساحل الخليج ويشير الشاعر بذلك إلى أمراء القصيم اللاجئين هناك وأنصارهم.

(٢) من يثقلْ على الحلّة: من ينزل ضربات قوية بخصومه. أشقر: المراد الصقر. ووصف الملك بالصقر دون إيراد اسمه أبلغ.

(٣) توّ: لا يزال. قب: بان منه ما لا يبين، عادة، إلا في كبار السن. الحاشي: صغير الإبل. والمراد أن الممدوح رغم صغر سنّه اشتهر بالشجاعة.

يكن هذا الموقف ناتجاً عن رغبته في الإبقاء على أرواح من كانوا معه فقط؛ بل عن رغبته، أيضاً، في الإبقاء على أرواح من كانوا مع خصومه لظروف خاصة أو لعدم وضوح المسائل لديهم. ذلك أنه كان يتصرّف تصرّف المدرك بأنه سيكسب هؤلاء كما كسب أولئك عاجلاً أو آجلاً، وأن كلاً من الفريقين سيصبحون شعبه المنتظر. وثاني تلك الأمور أن شجاعته بلغت درجة جعلته يثق بأقرب المقربين إلى خصومه سابقاً ليصبحوا بعد الانتصار على أولئك الخصوم من حرسه الخاص. وثالثها أنه كان لا يجد غضاضة في الاعتراف بما يتحلّى به خصومه من صفات الفروسية. وكان في مقدمة أولئك الخصوم الذي اعترف لهم بالفروسية العظيمة خصمه الأول الأمير عبد العزيز بن رشيد. فقد انطلق ذلك الأمير مرة وحده من معسكره في الشنانة، واستردّ غنمه التي كان قد أخذها حوالى عشرين فارساً من جيش الملك عبد العزيز. وكان ابن رشيد يحدو على حصانه وهو يستردها قائلاً.

ولد الخَنِيْش يجي خنيشْ والعود ينبت في مكانه عودْ[٢]

فماذا كان تعليق الملك عبد العزيز عندما سمع ذلك الحداء ورأى ذلك الفعل؟ لم يحاول أن ينتقص من قدر ابن رشيد الفارس، ولم ينكر عظمته في ميدان الفروسية، وإنما قال: «ونعم، ونعم. لكن سعد من الله عوينه[١].

(١) الخيش: الحيّة المهلكة، والمراد إذا مات فارس حلّ فارس آخر محلّه. والشطر الثاني من البيت تأكيد للمعنى الأول. وعلى هذا فإنه لا يبالي بالموت لأنه سيترك بعده من يحلّ محلّه في أداء ما يقوم به.

(١) يقصد بالعبارة: نعم من قال ذلك القول، وفعل ذلك الفعل. لكن السعد لمن كان الله عوناً له.

٤ ـ حسن التخطيط الحربي:

ويتجلّى حسن التخطيط الحربي لدى الملك عبد العزيز بسريّة الحركة، والتمويه على الخصوم، والحذر منهم. ولا شك أن هذه الأمور من الأمور المتّبعة قديماً وحديثاً داخل الجزيرة العربية وخارجها. وكانت مما اشتهر به سعود بن عبد العزيز ثالث حكام الدولة السعودية الأولى. وقد بلغ الملك عبد العزيز في إتقانها درجة كبيرة. فلم يكن يطلع على حقيقة حركته العسكرية إلا من يثق به ثقة كاملة من المقربين إليه. وكان ينطلق، أحياناً، غازياً إلى جهة الشمال ـ مثلاً ـ فيفهم الآخرون أنه قاصد إلى بلدة أو قبيلة في تلك الجهة. لكنه لا يلبث أن يغيّر اتجاهه، وينقضّ على بلدة أو قبيلة في جهة أخرى قد تكون عكس الجهة التي كان قاصداً في بداية سيره. وبذلك يتحقق له عنصر المفاجأة، ويسهل عليه الانتصار. ومن الأساليب التي اتبعها في هذا المجال أنه كان يعدّ، أحياناً، جيشاً قليل العدد نسبياً، فيظن من رآه أنه سيهاجم خصماً ضعيفاً، لكنه سرعان ما يباغت خصماً قوياً. وقد يعمل عكس ذلك، فينال في كلتا الحالتين ما يريد.

أما حذر الملك عبد العزيز فيتّضح في مظهرين: أحدهما رصد حركات خصومه. وثانيها أخذ الحيطة والتأهب لهجماتهم المحتملة. ومن ذلك أنه شرع فور دخوله الرياض، عام ١٣١٩ هـ/١٩٠٢ م، في إقامة أسوارها تحسباً لأي هجوم قد يقوم به عبد العزيز بن رشيد عليها. ومن ذلك، أيضاً، أنه لم يبدأ بمهاجمة الجهات الواقعة شمال الرياض بعد تثبيت مركزه في هذه المدينة قبل أن يؤمن ظهره؛ بل اتجه إلى الجهات الواقعة جنوبها؛ وهي المناطق البعيدة نسبياً من مركز إمارة آل رشيد في جبل شمّر.

٥ ـ قوة الإرادة:

لم تكن حروب الملك عبد العزيز مع خصومه كلها انتصارات. فقد انتصر في كثير من المعارك التي خاضها، لكنه نعرّض لهزائم مختلفة الأحجام. والحرب سجال يوم لك ويوم عليك. على أن ميزة الملك عبد العزيز أنه عرف كيف يتعامل مع النصر والهزيمة. فلم يدخل النصر إلى نفسه الغرور، ويصدّه عن جادة الصواب، فيبطش بفلول خصومه، ويترك في نفوس الناجين منهم، ونفوس أقاربهم، جروحاً يصعب اندمالها في مستقبل الأيام. ولم تدخل الهزيمة اليأس إلى قلبه، وتحطم معنويته، وتفلّ من عزيمته. وكما كان يتوّج انتصاره العسكري، في أغلب الأحيان، بالعفو، فيكسب من كانوا ضده كان يستشف من هزيمته درساً يساعده على تحسين خططه مستقبلاً. وكان من قوة إرادته مثابرته للوصول إلى هدفه المنشود. فلم يكن يفتر عن العمل لتحقيق ذلك الهدف حتى يصل إليه ما لم تتضح له في أثناء عمله أن غيره أفضل منه؛ فحينئذ تتجلّى مرونته المعهودة وحنكته المشهورة. ويعدل إلى الأمر الأفضل له.

٦ ـ المشورة:

وكان من أدلة رجاحة عقل الملك عبد العزيز أنه كان دائم المشورة تمشياً مع الحكمة القائلة: «ما خاب من استشار» ومع قول الشاعر:

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافي قوة للقوادم

ثم إن استشارة الملك ذوي المشورة مما يجلب مودتهم له، ويعمّق ثقتهم بزعامته، لأنها تشعرهم بأهميتهم في تسيير عجلة الأمور لصالح الجميع.

وكان الملك يستشير ذوي الخبرة في المجالات المختلفة؛ فرادى أو مجتمعين، ثم يتأمل آراءهم بفطنة لمّاحة، ويقرّر ما يراه مناسباً. وكان يقبل المشورة وإن لم يطلبها إذا رأى أنها صائبة. من ذلك قبوله رأي زعيم برقا من قبيلة عتيبة، محمد بن هندي، في الانتقال إلى البكيرية ليحول دون استيلاء الأمير عبد العزيز بن رشيد عليها، ورأيه في محاولة التوصل إلى هدنة مع ذلك الأمير حين طال مناخ الرس ـ الشنانة.

٧ ـ حسن الحظ:

وكان سكان البلاد؛ حاضرة وبادية، يرون أن حسن الحظ من الصفات التي لا بد من توافرها في القائد الذي يحاربون تحت لوائه. وكلما كان حظه أوفر كان اندفاعهم إلى الغزو معه أعظم. وحسن الحظ ذو مظهرين: أولهما أن يوفّق القائد في تخطيطه وتحركاته وأعماله. وثانيها أن تعمى بصيرة خصمه، فيقع في مشكلات لا يوفّق إلى حلّها. والأمثلة على حسن حظ الملك عبد العزيز كثيرة؛ وهو أمر كثيراً ما قاله الآخرون عنه، وما ردّده بنفسه ليدلّل به على أن الله معه. ومن كان الله معه فهو الغالب حتماً. والقول بأن الملك عبد العزيز كان ذا حظ عظيم لا ينقص من عظمته الشخصية، أو يقلل من شأن عبقريته. فما اتّصف به من صفات، وما رسمه من خطط جيدة، وما نفّذه من أعمال جليلة، شواهد على عظمته وعبقريته. ثم إن القائد إن لم يكن ذا حظ حسن فإن نجاحه من غير المحتمل.

٨ ـ إتقان فنّ الإعلام:

كان الإعلام مهمّاً جداً في جميع مراحل توحيد البلاد؛ خاصة

في المجال الحربي. ولقد برهن الملك عبد العزيز في عدة مواقف على أنه كان يجيد فنّ الإعلام إجادة فائقة. ولنأخذ مثلين من أمثلة فنون إعلامه. بعد أن ثبّت مركزه في الرياض، وقدم إليه أبـوه من الكويت، ودخلت منطقة جنوبي نجد تحت حكمه، ظهـر من هذه المدينة مشيعاً أن خلافاً وقع بينه وبين أبيه، وأنه اضطر إلى مفارقته. وكان يهدف بذلك إلى استدراج ابن رشيد ليلتقي به عسكرياً فوق أرض صلبة بالنسبة له. وصدّق ابن رشيد تلك الإشاعة، فقدم مسرعاً إلى المنطقة ليستفيد من ذلك الخلاف. لكنه أصيب بخيبة أمل حين اقترب من الرياض، وعلم أن المراد من الإشاعة استدراجه. وبهذا تمّ للملك عبد العزيز ما أراده من إطلاق الإشاعة المذكورة، فتقابل مع ابن رشيد، وانتصر عليه، وأصبح في نظر الجميع نداً له.

وحينما لقي الملك عبد العزيز هزيمة على أيدي العجمان سنة ١٣٣٣ هـ في كنزان، وقتل أخوه سعد، وجـرح هو جـرحاً بليغـاً، ظهرت إشاعة بأنه قتل. فماذا عمل؟ خطب فوراً امرأة، وطلب أن تُزفّ إليه حالاً، وأن يروّج لذلك الزفاف بقـدر المستطاع. ودخـل بالمرأة وجراحه لا تزال بليغة. وبذلك تبيّن للناس أنه حيّ، واعتقدوا بأنه معافى. وقضى بذلـك على إشاعـة مقتله، وارتفعت معنويـات أتباعه.

٩ ـ عمق معرفته بقومه:

ومعرفة الملك عبد العزيز بأحوال قومه؛ حاضـرة وباديـة، من الأمور التي أثارت انتباه الكثيرين من الكتاب. كان يعرف الزعامات والأسس التي قامت عليها تلك الزعامات. وكان يعرف أسر الحاضرة البارزة كما يعرف فروع القبائل المتعددة. ولم تكسبه تلك المعرفة

إعجاب الجميع بشخصيته فقط، بل أكسبته مهارة في التعامل مع كل فرد وفريق وفق ما يناسبه من تعامل. ولقد أدرك أن الجميع كانوا لا يطيقون وجود حاجز بين الحاكم والمحكوم. ولذلك جعل بابه مفتوحاً بينه وبين أفراد شعبه بدرجة كبيرة، فنال حبهم ورضاهم.

١٠ ـ وعيه للتاريخ:

كان الملك عبد العزيز حريصاً كل الحرص على معرفته التاريخ والاستفادة من عبره. ولقد ركز بشكل خاص على دارسة تاريخ أمته ووطنه والتأمل فيه حتى وعى أسباب نجاح أسلافه من آل سعود وأسباب فشلهم. لقد أدرك أن من أسباب نجاح أولئك الأسلاف في تكوين دولة مترامية الأطراف ترفرف عليها أعلام الأمن مناصرتهم للعقيدة الصافية وتطبيقهم للشريعة الغرّاء. ومن هنا كان تمسكه بتلك العقيدة، وتصميمه على تطبيق هذه الشريعة من الأمور التي لا محيد عنها. ولقد أدرك، أيضاً، أن العمود الفقري لقوة أولئك الأسلاف كان الحاضرة من السكان، وأن القبائل الرحّل إن وقفت بجانب السعوديين في أوقات انتصاراتهم فإن غالبيتها لم تلبث أن غيّرت ولاءها بسرعة بمجرد ظهور بوادر ضعفهم. وأدرك من ناحية أخرى أن قادة آل سعود الأوائل لم يولوا أوضاع البادية ما كانت تستحقه من اهتمام. صحيح أنهم أرسلوا، أحياناً، إلى مضاربها وعاظاً يرشدونهم إلى دين الله القيم. لكن جهودهم في هذا المجال لم تكن عامة، ولم تكن بالقدر الكافي. بل إن تجربة الملك عبد العزيز الخاصة التي مرّ بها في السنوات العشر الأولى من مسيرته لتوحيد البلاد زادت اقتناعه بأن البدو الرحّل تصعب الحيلولة بينهم وبين أمور تعودوا عليها منذ مئات السنين؛ مثل تبادل الغزوات ومهاجمة القوافل، وأنه لا

يمكن الاعتماد عليهم في المعارك كما يعتمد على الحاضرة. وهكذا وافته فكرته الرائدة الذكية لتوطين البدو في مستقرات خاصة، وبث الروح الدينية في نفوسهم. وبذلك التوطين المبني على أساس ديني قضى على اعتداءات بعضهم على بعض واعتداءاتهم على الآخرين بدرجة كبيرة، كما كوّن منهم وحدات عسكرية تستميت في سبيل الهدف الذي كان يطمح إليه. وكانت جهود الإخوان، الذين استقروا في المستوطنات أو الهجر، بين سنتي ١٣٣٥ و ١٣٤٤ هـ (١٩١٦ - ١٩٢٥ م) في مسيرة توحيد البلاد أكبر دليل على صواب رأيه ونجاح فكرته.

ومن تأمل الملك عبد العزيز لتاريخ أسلافه رأى أن الانتصار العسكري في كثير من المعارك ليس كافياً لتحقيق نجاح سياسي مستمر، وأن تقدير كل إمكانات الخصوم، ومراعاة الظروف، والتعامل مع كل خصم وظرف وفق ما يناسبه أدعى إلى الفوز النهائي. وأدرك أن من أسلافه من ذهب بعيداً في شدته على خصومه المحليين، وفي تحدّيه لخصومه غير المحليين، وأن تلك الشدة وذلك التحدّي كانا من أسباب القضاء المؤقت على الحكم السعودي. ومن هنا كان الرفق بالخصوم المحليين الصفة الغالبة في تعامله معهم. وكان تقرّبه إلى بريطانيا، القوة الكبرى المحيطة به حينذاك، سياسته المتّبعة؛ خاصة إذا كان ذلك لا يعيق خططه التي رسمها لتوحيد البلاد، ولا يضر باستقلالها الوطني على المدى البعيد.

١١ - حسن اختياره للرجال:

كان الملك عبد العزيز من أمهر القادة في اختيار الرجال الذين يعملون معه. ومن غير الصحيح أن يقال بأن جميع أولئك الرجال

كانوا في مستوى المسؤولية التي ألقيت على كواهلهم. لكن أكثرهم كانوا كذلك في ظل الظروف التي تولّوا خلالها تلك المسؤولية. والذين عملوا مع الملك عبد العزيز كثيرون؛ منهم المواطنون أصلاً، ومنهم من وفدوا إلى البلاد هرباً من بطش المستعمرين خارجها. ومن رجال ذلك الملك من كانت تصرفاتهم في الظروف الحرجة مثار الإعجاب. ومن هذه التصرفات ما قام به وزير المالية، عبد الله بن سليمان، قبيل معركة السبلة. كان الملك عبد العزيز في أشد الحاجة إلى المال لتوزيعه على أتباعه؛ خاصة المتحضرين الجدد. فطلب من وزير ماليته أن يمدّه بما لديه من نقود. لكن صندوق الوزير لم يكن فيه ما يكفي حاجة الملك. فماذا عمل ذلك الوزير؟ اشترى من أهل القصيم جميع بضائعهم التي كانوا قد وصلوا بها إلى مكة بمكسب ٤٠٪ بشرط ألّا يستلموا أثمانها إلا بعد ستة شهور. ثم وجه البضائع إلى السوق، وباعها فوراً بأقل كثيراً من قيمتها التي اشتراها بها. ذلك أن ما كان يهمّه حينذاك هو الحصول الفوري على نقود. وهكذا لم يمضِ يومان إلا والنقود في طريقها إلى الملك، الذي حلّ بها مشكلة لم تكن لتحلّ لولا ذلك التصرّف الذكي.

ومن تلك التصرفات ما قام به شلهوب قبيل إحدى الغزوات التي كان الملك عبد العزيز يريد القيام بها. كان الملك في بريدة، ولم يكن معه من المال ما يستطيع به تجهيز غزوته. وكان قد استدان من تجار المنطقة الشيء الكثير. ولهذا كان من الصعب عليه سؤالهم إمداده بأموال أخرى. فضاق صدره جداً. قال له شلهوب: «ما يصير إلا خير». وبعد ساعة ذهب إلى أحد تجار بريدة المشهورين ومعه أكياس ثقيلة الوزن، وقال له: إن عبد العزيز ينوي القيام بغزوة لا يعلم نتائجها إلا الله. وإنه رأى أن يودع لديك هذه النقود. وقد كتب

على كل جزء في داخلها اسم صاحبه. فإن قدّر الله ورجع من غزوته سالماً أخذه منك، ووزعها على أصحابها. وإن كان الأمر خلاف ذلك فالمرجو منك أن تفتحها وتوزعها على من هي له. واطمأن ذلك التاجر إلى ما قال شلهوب الذي قال له في اليوم التالي: إن الملك محتاج إلى ألفي ريال، وإنه لا يريد أن يأخذ الأكياس التي عندك ويفتحها بعد أن ختمها. وأبدى التاجر استعداده لإقراضه؛ خاصة أن أكياس نقوده أمانة لديه. فدفع إليه المبلغ المذكور. وبذلك حلّ مشكلة تجهيز الغزوة التي كان يراد القيام بها. وانتهت تلك الغزوة بالحصول على غنائم كثيرة باعها شلهوب في أسواق القصيم، ثم دفع إلى التاجر ما سبق أن استلفه منه. وطلب منه هذا الأخير أن يأخذ ما أودعه لديه من أكياس النقود. فقال له شلهوب بابتسامة لطيفة: «أبشر». فماذا كانت تلك النقود الشلهوبية؟ قطع حديد مختلفة صغيرة الأحجام وضعت في داخل الأكياس بطريقة تخفي على لامسها ما في داخلها. وبتلك الحيلة الذكية حقق رجل عبد العزيز المخلص مصلحته المرجوّة.

الظـروف: -

تواجه القادة دائماً ظروف معيّنة وهم يحاولون أن يصلوا إلى أهدافهم التي خططوا لها. ومن هذه الظروف ما يساعد القائد في مسيرته لبلوغ هدفه. لكن منها ما يعرقل مساعيه ويضع العقبات في طريقه. وتتبين مقدرة القائد وكفاءته في تعامله مع الظروف المختلفة. فالقائد الكفء هو الذي يستطيع أن يستفيد من الظروف المساعدة إلى أبعد حد، ويتمكن من توظيفها التوظيف الممتاز لصالح الهدف الذي يسعى إليه. وهو الذي يستطيع أن يخفف من وطأة الظروف غير

المساعدة بحيث يكون تأثيرها السلبي على مسيرته تأثيراً ضعيفاً جداً.

وكان الملك عبد العزيز قائداً كفؤاً استطاع أن يستثمر الظروف المساعدة استثماراً جيداً، وتمكن من تخفيف وطأة الظروف غير المساعدة بطريقة تثير الإعجاب. ويقتصر الحديث هنا على الظروف التي ساعدته في تحقيق ما حققه من نجاح. وأهمها ما يلي: -

١ - الإرث التاريخي: -

فالملك عبد العزيز من أسرة حكم أقامت في البلاد دولة لم تقم مثلها دولة في تاريخ الجزيرة منذ صدر الإسلام سعة والتزاماً بعقيدة التوحيد الصافية وتطبيقاً لشريعة الله، كما سبق أن ذكر. ولا شك أن أكثرية سكان المنطقة؛ خاصة الحاضرة منهم، قد أصبحوا يكنّون مودة وتقديراً لهذه الأسرة بعد أن جنوا على أيدي قادتها الأوائل ثمار الوحدة وذاقوا حلاوة العقيدة وعدل الشريعة. ولذلك كانوا على استعداد للوقوف مع أي قائد منها ما دام يتصف بالصفات القيادية المطلوبة. ومما يوضّح هذه المسألة أن قادة الدولة السعودية الأولى لم يستطيعوا أن يوحدوا منطقة نجد إلا بعد أربعين سنة من الكفاح المستمر. ذلك أن السكان لم يجرّبوا الفوائد المترتبة على الدخول في ظل الدولة. لكن موقف هؤلاء السكان اختلف اختلافاً عظيماً بعد أن جرّبوا تلك الفوائد. فمن الملاحظ أنه لم يمضِ عامان على دخول الإمام تركي بن عبد الله الرياض وإجلائه بقية جيش محمد علي من المنطقة إلا وقد دخلت جميع البلدان النجدية في ظل دولته بطريقة سلمية إلا ما ندر.

وحينما بدأ الملك عبد العزيز مسيرته لتوحيد البلاد رأت فيه

أغلبية السكان القائد المنتظر لصفاته الشخصية من جهة ولانتمائه إلى الأسرة السعودية التي يكنّون لهـا المودة من جهـة أخرى. على أن البلدان النجدية كانت عند بدء نشاطه تحت إمارة آل رشيد. وهذا مما أعاق انضمام بعضها إليه نوعاً ما وإن لم يحل دونه في نهاية الأمر.

٢ ـ أن حكم آل رشيد لأكثر البلدان النجدية لم تكن له جذوره العميقة؛ إذ لم يشمل كل نجد إلا قبل دخول الملك عبد العزيز الرياض بعشر سنوات. وكان الأمير عبد العزيز بن متعب، بالذات، غير مؤهل لمواجهة المرحلة الجديدة. فلم يكن السياسي المحنّك الذي حاول أن يكسب الناس بالحكمة، وإنما كان فارساً مغواراً أراد أن يحكم السكان بالقوة. ومما ينسب إليه أنه حين توفى عمه محمد بن عبد الله أرسل إلى زعماء القبائل يقول لهم: «محمد مات وأنا وليت، ولا عندي لكم إلا الحافر وصنع الكافر» ـ أي الخيل ـ والسلاح ـ. ولعلّ مما يوضّح اعتماده على قوته وغروره بها أنه حين علم بدخول الملك عبد العزيز الرياض استخف به وقال: «أرنب محجورة».

وبالإضافة إلى ما تقدم كان من بين أمراء نجد من كانت لهم مشكلات خاصة مع آل رشيد. ومن هؤلاء أمراء البلدتين الكبيرتين في القصيم؛ بريدة وعنيزة، الذين كانوا لاجئين في الكويت بعد معركة المليداء المشهورة، التي وقعت سنة ١٣٠٨ هـ. وكان سكان هاتين البلدتين موالين لأمرائهم التقليديين ناقمين على آل رشيد الذين قتلوا الكثيرين منهم في المعركة المذكورة. ومما يوضّح تعاطف غالبية النجديين مع آل سعود ورغبتهم في التخلّص من حكم ابن رشيد أن الملك عبد العزيز لم يجد صعوبة في إدخال منطقة جنوبي نجد والمناطق الواقعة بين الرياض وبين القصيم تحت

حكمه، وأنه وجد تعاوناً كبيراً من غالبية أهل القصيم عندما وصل إلى هناك بأتباعه ومعه أمراء البلدتين الكبيرتين القادمون من الكويت؛ وهم آل مهنّا وآل سليم. ولإدارك ابن رشيد لموالاة أغلبية النجديين للملك عبد العزيز لم يجد أمامه إلا الاستنجاد بالدولة العثمانية التي أمدته بالسلاح والمال والرجال.

ومع أن إمداد الدولة العثمانية ابن رشيد بما أمدته به قد بدا في صالحه من الناحية المادية إلا أنه أعطى السكان المحليين الدليل الواضح على أن مستقبل حكمه في نجد أخذ في الضعف. بل إن حكمه مقضي عليه عاجلاً أو آجلاً. ذلك أن بقاءه بات مرهوناً بوجود قوة خارجية تدعمه. ها هو العوني الشاعر المعروف يقول:

يوم أن أبو متعب نحاه أبو تركي   عن نجد وأهله حط الأتراك مركي[1]
عاف العرب بسموتهم صار تركي   حتى بعد بلسانهم صار بيطار[2]
يَبِي بهم حكمٍ وهم حاكمينْه   ما اعتاظ من قَبْلَهْ حدٍ نافعينهْ؟[3]
فَضُّوا خْزونْه والدِّبشْ والظَعِينةْ   ما بيَّنوها لُه إلى وقت الاثمار[4]

---

(١) أبو متعب: الأمير عبد العزيز بن متعب بن رشيد. نحاه: أبعده. أبو تركي: الملك عبد العزيز. حط: جعل. مركي: متكأ يعتمد عليه.

(٢) عاف: كره. بسموتهم: بأخلاقهم؛ أي كره العرب وشمائلهم. بيطار: متفوق؛ أي أنه لشدة إعجابه بالأتراك أتقن لغتهم وأصبح يتكلم بها. والمبالغة واضحة في كلام الشاعر، لكن لغة الشعر حينذاك كانت لغة الإعلام المسموعة.

(١) يبي: يبغي ويريد. ما اعتاظ: لم يأخذ العظة والاعتبار. من قَبْلَهْ حدٍ نافعينه؟: من الذي نفعوه قبله؟

(٤) فضوا: بتشديد الضاد وبدون بمعنى أخلوا. خزونه: خزائنه. والدبش: الأنعام. ومعنى البيت، بصفة عامة، أن الأتراك أصبحوا عبئاً على ابن رشيد يأكلون كل ما يملك.

ومعروف أن النجديين لم يكونوا يودّون الأتراك، بصفة عامة، بعد أن عانوا منهم في الماضي ما عانوا من بطش وتعسف.

ومن الملاحظ أنه لم تمضِ ثلاث سنوات على دخول الملك عبد العزيز الرياض إلا وقد دخلت نجد كلها تحت حكمه باستثناء جبل شمرّ مركز إمارة آل رشيد. وظل النجديون يبذلون دماءهم وأموالهم في سبيل الهدف العام الذي أراده الملك عبد العزيز طيلة مسيرة توحيد البلاد.

وكان من أدلة عظم حظ الملك عبد العزيز وتغيّر الظروف لصالحه أن الخلافات الداخلية في جبل شمّر ذاته بدأت تعصف بإمارة آل رشيد بعد مقتل الأمير عبد العزيز بن متعب سنة ١٣٢٤ هـ بقليل.

٣ ـ إذا كانت تلك هي الظروف الموافية في مرحلة توحيد نجد فماذا عن عوامل نجاح الملك عبد العزيز في الأحساء؟

المتتبع لسير الأحداث في الحكم السعودي في جميع مراحله يلاحظ أن نجداً كانت دائماً البداية والمنطلق، ثم يبدأ امتداد ذلك الحكم بمنطقة الأحساء. وكانت هذه المنطقة حينما بدأ الملك عبد العزيز مسيرته التوحيدية تحت حكم الأتراك العثمانيين، لكن وجودهم العسكري فيها كان ضعيفاً. وكانت القبائل الرحّل تعمل ما تريد ضد سكان المدن والقرى خارج أسوارها. ولم يكن الأتراك قادرين على اتخاذ أية خطوات تحدّ من أعمال تلك القبائل. ولذلك كان سكان المدن والقرى يتطلعون إلى من يخلّصهم من الوضع السيىء الذي كانوا فيه. ومن هنا بدأ بعض زعمائهم يتصلون بالملك عبد العزيز، ويحثونه على القدوم لإنقاذهم، ويعاهدونه على الوقوف

معه. ولم يبقَ أمامه لتوحيد تلك المنطقة مع نجد إلا التغلب على الجنود الأتراك والقبائل المستفيدة من الوضع السائد حينذاك. وكان من المهارة والذكاء بحيث أبعد كبرى تلك القبائل عن المنطقة موضحاً لها أنه سيساعدها في مهاجمة قبيلة مختلفة معها في ذلك الوقت. وبعد أن اطمأن إلى إبعاد القبيلة الكبرى عن مسرح عملياته المرتقبة انقض مسرعاً، وفاجأ الحامية التركية بدخوله الأحساء. فلم يكن لرجال تلك الحامية بد من الاستسلام للأمر الواقع.

٤ ـ عسير وجازان:

من المعلوم أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد لقيت قبولاً عظيماً لدى كثير من سكان هاتين المنطقتين اللتين كانتا جزءاً من الدولة السعودية الأولى. وقد ظهرت آثار ذلك في المواقف البطولية التي وقفها سكان عسير، بصفة خاصة، أمام قوات محمد علي التي جاءت إلى جزيرة العرب للقضاء على الحكم السعودي. وظلت الصلات الودية قائمة بين زعماء هذه المنطقة وبين قادة آل سعود. ولما انسحب الأتراك منها بعد الحرب العالمية الأولى أصبح أميرها حسن بن عائض. لكن زعماء بعض القبائل الكبيرة اختلفوا معه. ولصلة أولئك الزعماء القديمة بآل سعود من ناحية، وما شاهدوه من نجاح الملك عبد العزيز؛ خاصة بعد انتصار أتباعه الشهير في تُربة سنة ١٣٣٧ هـ، رأوا أنه الزعيم المؤهل لحلّ المشكلات القائمة بينهم وبين أمير منطقتهم. فاتصلوا به، وطلبوا منه أن يساعدهم. فأرسل الملك عبد العزيز إلى الأمير حسن وفداً للصلح بين الطرفين. لكن الحسن ردّ الوفد رداً غير موفق. وهذا مما دفع الملك إلى غزو عسير. وكان غزوه لها موفّقاً أدّى في نهاية الأمر إلى

دخولها تحت حكمه.

أما جازان فكان زعماؤها في أثناء توحيد المملكة الأدارسة. وكان جد هذه الأسرة مغربياً صاحب طريقة صوفية، استقر في نهاية مطافه بصبياً سنة ١٢٤٦ هـ، وأصبح لطريقته أتباع في المنطقة. ولكن وصول هذه الأسرة إلى الحكم تمّ على يد حفيده الداهية محمد بن علي، الذي ولد عام ١٢٩٣ هـ؛ وهو العام الذي صح أن الملك عبد العزيز ولد فيه. وتحالف محمد مع الإيطاليين ضد الأتراك حتى أصبح حاكماً للبلاد. وبعد ذلك وجد نفسه بين جارين يطمعان في بلاده: إمام اليمن يحيىٰ، وملك الحجاز الحسين بن علي. فعقد معاهدة مع الملك عبد العزيز أملاً في الحصول على مساعدته. وبعد وفاته حدث خلاف أسري بين ابنه وبين أخيه الحسن بن علي. وأصبح الحسن هو الحاكم. لكن الظروف المحيطة به داخلياً وخارجياً جعلته يطلب حماية الملك عبد العزيز سنة ١٣٤٥ هـ. ثم أدّى عجزه عن إدارة شؤون البلاد إلى إسناد إدارتها إلى ذلك الملك. وهكذا أصبحت جزءاً من المملكة.

٥ ـ الحجاز:

والظروف التي أدّت إلى دخول الحجاز تحت حكم الملك عبد العزيز مشابهة، بدرجة كبيرة، لتلك الظروف التي أدّت إلى دخولها تحت حكم الدولة السعودية الأولى. لم يبدأ الملك عبد العزيز ملك الحجاز بحرب؛ وإنما بدأ هذا الأخير بغزو نجد تماماً كما حدث لأسلاف هذا وذاك؛ إذ كان الشريف غالب هو الذي بدأ بمحاربة الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود. ثم وقع الخلاف بين الملك عبد العزيز وبين الملك الحسين بن علي حول واحتي تربة

والخرمة، اللتين يكنّ أكثر سكانهما وداً لآل سعود. واختلف أمير الخرمة، الشريف خالد بن لؤي، مع ملك الحجاز، فانضم إلى الملك عبد العزيز تماماً كما اختلف عثمان المضايفي، قريب الشريف غالب، مع ذلك الشريف وانضم إلى الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود. وكما كان انضمام المضايفي إلى الدولة السعودية الأولى كسباً لها كان انضمام ابن لؤي إلى الملك عبد العزيز كسباً له. وبقدر ما كان إسهام المضايفي في إدخال الحجاز تحت حكم الدولة السعودية الأولى كان إسهام ابن لؤي في إدخالها تحت حكم الملك عبد العزيز. وكما منع الأشراف الأوائل السعوديين من أداء الحج منع الملك الحسين أتباع الملك عبد العزيز من أداء تلك الفريضة. وكان منعه لهم من أكبر أخطائه السياسية؛ إذ زاد من حماس أولئك الأتباع؛ خاصة الإخوان، ضده، فاندفعوا في قتالهم له اندفاعاً عظيماً.

ومن العوامل التي ساعدت الملك عبد العزيز على إدخال الحجاز تحت حكمه أنها أصبحت محاطة من جهتيها الشرقية والجنوبية بمناطق سعودية. ومنها أن الحجاز لم تعد خاضعة للأتراك بعد أن أبعدهم عنها الحسين بن علي بالتعاون مع بريطانيا، ولم يعد ملكها يلقى من البريطانيين العون الذي كان يلقاه منهم بعد أن وصلوا إلى مآربهم التي أعانوه في السابق من أجل الوصول إليها. وتوافرت الظروف الداخلية والخارجية المناسبة ليقوم الملك عبد العزيز بتوحيد الحجاز مع بقية مناطق المملكة، ففعل.

وهكذا استطاع الملك عبد العزيز - بتوفيق الله ثم بما كان له من صفات قيادية، وما واكب تحركه من ظروف - توحيد مناطق البلاد المختلفة.

الحياة العلمية والثقافية والفكرية في المملكة العربية السعودية

الحياة العلمية والثقافية والفكرية
في المملكة العربية السعودية[1]

قبل بدء الحديث عن الحياة العلمية والثقافية والفكرية في المملكة العربية السعودية تجدر الإشارة إلى أمرين:

أحدهما: أن طبيعة الموضوع المتحدث عنه تسوِّغ إعطاء لمحة تاريخية عن المملكة ذاتها وعن تكوينها.

وثانيهما: أن هذا الموضوع له من صفات الشمول والسعة ما يجعل من الصعب إيفاءه حقه من الحديث في محاضرة واحدة. ولذلك فإن الكلام عنه ما هو إلا عرض يتناول النواحي البارزة فيه.

تقرب مساحة المملكة العربية السعودية من مليونين وربع مليون كيل مربع، أي ما يزيد على ثلاثة أرباع مساحة شبه الجزيرة العربية كلها. وتمتد من سهول تهامة على ساحل البحر الأحمر غرباً فجبال الحجاز ثم هضبة نجد حتى تصل إلى السهول الشرقية على ساحل الخليج العربي. ويقرب عدد مواطنيها من سبعة ملايين كما تشير إليه الإحصائيات قبل عشرة اعوام. وتتكون من أربع مناطق أساسية هي: نجد والحجاز والأحساء وعسير، أو ما تسمّى الآن المنطقة الوسطى والغربية والشرقية والجنوبية.

---

(١) محاضرة أعدت بمناسبة الأسبوع الثقافي السعودي في الجزائر سنة ١٤٠٤ هـ. ولذلك فإن ما ورد فيها من إحصاءات قد تغيّر الآن نوعاً ما.

وفي النصف الأول من القرن الثاني عشر كانت لكل منطقة من المناطق المذكورة سابقاً أوضاعها السياسية الخاصة. فقد كانت الحجاز تابعة للدولة العثمانية من الناحية الرسمية. لكن أشراف مكة كانوا يتمتعون بنوع كبير من الاستقلال؛ خاصة فيما يتعلق بالأمور الداخلية للمنطقة. وكانت أجزاء من عسير واقعة تحت نفوذ أولئك الأشراف بدرجة معينة، بينما كانت أجزاؤها الجنوبية ـ منطقة جازان ـ لها حكامها المحلّيون. أما المنطقة الشرقية فكانت تحت حكم زعماء قبيلة بني خالد الذين انتزعوها من العثمانيين عام ١٠٨٠ هـ. وأما نجد فكانت مفككة سياسياً؛ كل بلدة من بلدانها يحكمها أمير محلّي. ومن الأمراء النجديين من كان حليفاً لأشراف الحجاز أو لزعماء بني خالد. وكان ذلك التحالف القائم بين أمير ضعيف وبين حاكم قوي أشبه ما يكون بتبعية الأمير للحاكم. ومع هذا فإن ما كان يوجد من علاقات بين الأمراء النجديين وبين حكام الحجاز والأحساء لم تمنع قيام الحروب بين أولئك الأمراء أنفسهم من حين إلى آخر مثلما كانت الصراعات على السلطة تحدث بين حكام المنطقتين المذكورتين.

وكان من بين الإمارات النجدية، حينذاك، إمارة آل سعود في بلدة الدرعية القريبة من الرياض. وفي عام ١١٥٧ هـ (١٧٤٤ م) بدأت القوة الحقيقية لهذه الإمارة حيث اتفق الأمير محمد بن سعود مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب على نشر المبادىء التي نادى بها ذلك الشيخ. ومن أهم تلك المبادىء إخلاص العبادة لله وحده، والقضاء على البدع والخرافات، وتوحيد البلاد على أساس من العقيدة الصافية، وتطبيق الشريعة. وبذلك قامت في المنطقة دولة جديدة تعتمد على أسس دينية وسياسية واضحة.

وقد انضمت إلى الدولة الجديدة بعض الإمارات النجدية طائعة مختارة. لكن أكثر إمارات نجد رفضت أن تنضم إليها. وكان العامل الديني سبباً مهماً في تحديد مواقف المؤيدين لتلك الدولة والمعارضين لها على حد سواء. فالذين رأوا صحة المبادىء التي نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب أيّدوا الدولة القائمة على أساسها. والذين رأوا عدم صحتها عارضوا الدولة المتبنية لها. لكن من الأسباب الأخرى التي منعت بعض الأمراء النجديين من الانضمام إلى الدولة المذكورة ما كان يوجد لديهم من نزعة سلبية تجاه الوحدة الإقليمية. ولذلك استغرق توحيد الدولة الجديدة لنجد أكثر من أربعين سنة. على أنه كان واضحاً منذ البداية أن الزمن كان في صالح تلك الدولة؛ إذ كانت تحارب ضد قوى محلّية مفككة، وكانت تمارس نشاطها في منطقة بعيدة نسبياً عن متناول السلطة العثمانية.

وما أن تمكنت الدولة السعودية من توحيد نجد حتى بدأت محاولاتها لإدخال المناطق المجاورة لها تحت نفوذها. وكان زعماء تلك المناطق قد ناصبوها العداء وبدأوها بالحرب. ولم تجد صعوبة كبيرة في الانتصار على أولئك الزعماء. فبعد ست سنوات من توحيدها لنجد استطاعت أن تضم الأحساء إليها. وبعد ذلك بعشر سنوات دخلت الحجاز وعسير تحت نفوذها. ولم ينته الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري إلا وقد تمكن قادتها من توحيد كل مناطق شبه الجزيرة العربية باستثناء الكويت وحضرموت وبعض أجزاء اليمن وعمان. بل إنهم استطاعوا أن يبسطوا نوعاً من النفوذ على قبائل معينة في كل من العراق والشام.

وقد دفع نجاح الدولة السعودية الأولى القادة العثمانيين إلى أن يجرّدوا ضدها عدة حملات عسكرية. ومع أنهم فشلوا في كثير من

تلك الحملات إلا أنهم نجحوا آخر الأمر في القضاء على تلك الدولة عن طريق حاكم مصر، محمد علي باشا، وذلك سنة ١٢٣٣ هـ (١٨١٨ م).

وبانتهاء الدولة السعودية الأولى دبّت الفوضى في البلاد؛ خاصة في منطقة نجد، وضعف الأمن بدرجة كبيرة. فقامت محاولات لإعادة توحيدها. وبعد سبع سنوات تكللت المحاولات بالنجاح على يد الإمام تركي بن عبد الله آل سعود، الذي اتخذ الرياض عاصمة لدولته الجديدة. واستطاع ذلك الإمام أن يوحد نجداً والمنطقة الشرقية. وظلت الدولة السعودية الثانية قائمة بدرجات مختلفة من القوة والضعف حوالى سبعين عاماً. وكانت نهايتها نتيجة لما حدث من انقسامات داخل أفراد الأسرة الحاكمة، ولما واكب ذلك من أطماع الدولة العثمانية في أراضيها ومن طموح بعض الزعامات المحلّية لانتزاع الحكم منها. وبذلك استولى العثمانيون على المنطقة الشرقية، وانتزع آل رشيد حكم نجد.

على أنه لم تمضِ عشر سنوات على نهاية الدولة السعودية الثانية حتى بدأ عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ـ الملك عبد العزيز ـ نشاطه لحكم البلاد وتوحيدها. وكان نجاحه في دخول الرياض سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠٢ م) وانتزاعه حكمها من عامل ابن رشيد الخطوة الأولى في ذلك النشاط. وقد تكللت أعماله بالتوفيق حتى وحد جميع مناطق البلاد بعد كفاح دام حوالى ربع قرن من الزمن. وبعد توحيد تلك المناطق أصبحت تسمّى المملكة العربية السعودية. وظل الملك عبد العزيز يوالي جهوده في سبيل تطوير البلاد حتى وفاته سنة ١٣٧٣ هـ (١٩٥٣ م). وقد خلفه في الحكم أبناؤه

سعود وفيصل وخالد وفهد على التوالي مواصلين ما بدأه من أعمال تطويرية.

* * *

الحيـــاة العلميـــة:

لقد كان لكل منطقة من المناطق التي تكوّنت منها المملكـة أوضاعها العلمية الخاصة بها. فقد كانت الحجاز تفوق غيـرها من المناطق من حيث نشاط الحركة العلمية؛ إذ كان الحرمان الشريفان في مكة والمدينة ملتقى العلماء من جميع الأقطار الإسلامية. وكان من أولئك العلماء من يبقى مجاوراً قربهما فترة من حيـاته أو طيلة حياته كلها، فيسهم في التدريس ونشر العلم والمعرفة. ولقد لعب المغـاربة من جميـع جهات المغـرب الكبيـر دوراً بـارزاً في ذلـك المجال. ومع أن التعليم في الحـرمين الشريفين كـان مركّـزاً على العلوم الشرعية فإنه شمل، أيضاً، فروعاً أخرى من المعرفة؛ خاصة تلك الفنون التي تخدم العلوم الشـرعية مثـل قواعـد اللغة العـربية والمنطق والحساب.

وفي مستهل القرن الرابع عشر الهجري بـدأ التعليم الحديث المنظم في الحجاز. وكان في بدايته حكومياً مشابهاً لما كان مطبقاً في مدارس بقية أقطار الدولة العثمانية من حيث المواد المدرّسة، ومن حيث اللغة التي تدرس بها تلك المواد، وهي اللغة التركية. وإلى جانب التعليم الحكومي التركي قامت مدارس أهلية على نفقة بعض المحسنين متخذة من اللغة العربية أداة لتدريس المواد فيهـا. وفي طليعة هذه المدارس الأهلية المدرسة الصولتية ومدرستا الفلاح اللتان تخرج منهما عدد ممن أسهموا في النهضـة الأدبية في أوائـل عهد الملك عبد العزيز.

أما منطقة عسير، أو المنطقة الجنوبية، فقد كان جنوبها أوفر حظاً من شمالها في مجال الحركة العلمية. ذلك أنه ظهر في جازان علماء أجلاء. ولعل من أسباب ذلك مجاورة ذلك الإقليم لبلاد اليمن التي كان كثير من مدنها مراكز علمية شهيرة. ومنذ أن دخلت تلك المنطقة تحت حكم قادة الدولة السعودية الأولى ازداد عدد المتعلمين والعلماء في ربوعها جنوباً وشمالاً. على أنها لم تشهد نظاماً تعليمياً حديثاً قبل تكوين المملكة العربية السعودية حوالى منتصف القرن الرابع عشر الهجري.

وأما منطقة الأحساء، أو المنطقة الشرقية، فكانت ملتقى مذاهب فقهية وأصولية مختلفة منذ زمن طويل. وكان يوجد بين أصحاب تلك المذاهب حوار شجع الحركة العلمية ودفع بها إلى الأمام. وإلى جانب ذلك كان عدد من ذوي الفضل فيها يبذلون ما يستطيعون بذله من أموال على العلم وطلابه. ولذلك ظهر فيها علماء كتبوا مؤلفات عديدة. وفي الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجري افتتح العثمانيون فيها مدرسة حكومية مشابهة للمدارس التي افتتحوها في الحجاز منهجاً وأسلوباً. ولأن التعليم فيها كان باللغة التركية كان إقبال المواطنين عليها ضعيعاً جداً مما أدّى إلى إغلاقها.

والمتتبع للحركة العلمية في منطقة نجد يلاحظ أنه قد برز فيها علماء منذ القرن العاشر الهجري. وكان التعليم فيها مركّزاً بدرجة كبيرة على الفقه الحنبلي. وحينما ظهرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ازداد الإقبال على التعلّم وانتعشت حركة التعليم. وبدلاً من التركيز على الفقه الحنبلي، الذي كان سائداً قبل ظهورها، أصبح التركيز على التوحيد وأصول الدين. على أن فروع العلوم الشرعية

الأخرى نالت من الاهتمام ما تستحقه. وما ظهر من مؤلفات لعلماء هذه المنطقة قبل تكوين المملكة العربية السعودية يبيّن ثمرة تلك الحركة العلمية النشطة. ومع أنه قد وجدت مدارس أهلية أكثر حداثة من الكتاتيب التقليدية قبيل منتصف القرن الرابع عشر الهجري إلا أن التعليم الحديث؛ أسلوباً ومنهجاً، لم يبدأ إلا بعد منتصف ذلك القرن.

وبعد أن وحّد الملك عبد العزيز مناطق المملكة واصلت الحركة العلمية نموّها وتقدمها. على أنه من الواضح أن الظروف التي كانت سائدة في البلاد جعلت تقدّم تلك الحركة يختلف بين منطقة وأخرى؛ خاصة في السنوات الأولى من توحيد المملكة. فحينما دخلت الحجاز تحت حكم الملك عبد العزيز سنة ١٣٤٣ هـ كان التعليم الحديث فيها قد قطع شوطاً لا بأس به. وكان أن احتضن الحكم الجديد مسيرة ذلك التعليم عن طريق مديرية ترعى شؤونه وتدفعه إلى الأمام. وبذلك انتشر التعليم، بمرحلتيه الابتدائية والثانوية، في الحجاز انتشاراً عظيماً. أما بقية مناطق المملكة فقد تأخرت بداية التعليم الحديث الحكومي فيها؛ إذ لم تفتح مدارس ابتدائية في نجد - مثلاً - قبل سنة ١٣٥٦ هـ. وظل الراغبون من خريجي هذه المدارس فترة من الزمن يسافرون إلى الحجاز لمواصلة تعليمهم الثانوي إلى أن استطاعت الحكومة، بما أتيح لها من إمكانات فنية ومالية، التوسع في افتتاح المدارس لجميع مراحل التعليم في كل مناطق المملكة.

ولو أخذ التعليم الابتدائي مثلاً لتقدير التوسع في مجال التعليم لاتضح مدى النجاح الذي تحقق في ذلك المجال. ففي سنة ١٣٤٤ هـ كانت المدارس التي افتتحتها مديرية التعليم أربعاً فقط.

وبعد ثمانية وعشرين عاماً؛ أي في سنة ١٣٧٢ هـ، أصبح عددها ستاً وثلاثمائة مدرسة تضم حوالى أربعين ألف تلميذ. وكانت السنوات الخمس الأخيرة من تلك الفترة أعظمها نشاطاً؛ إذ افتتحت خلالها أربعون ومائتا مدرسة من مجموع عدد المدارس المذكورة، كما افتتح خلالها مدارس ثانوية وصناعية ومعاهد للمعلمين ومعهد علمي وكلية للشريعة.

وإدراكاً من المسؤولين في الدولة لاحتياجات البلاد من المتعلمين، ولتقدم الحركة العلمية كمّاً وكيفاً حوِّلت مديرية التعليم إلى وزارة للمعارف، وذلك سنة ١٣٧٣ هـ. وكان أول من تولّى هذه الوزارة فهد بن عبد العزيز، الملك الحالي. وفي ظل وزارة المعارف خطت البلاد خطوات واسعة جداً في مجال التعليم العام الذي شمل مراحل التعليم الابتدائية والمتوسطة والثانوية، وفي مجال التعليم الخاص الذي شمل التعليم الفني والثقافة الشعبية في مرحلتي مكافحة الأمية ومتابعة الدراسة.

ومرة أخرى لو أخذ التعليم الابتدائي للمقارنة بين العهد الذي سبق إنشاء وزارة المعارف وبين العهد الذي تلا إنشاءها لتبين مقدار النجاح الذي تحقق في مسيرة الحركة العلمية في المملكة. ففي سنة ١٤٠١ هـ، أي بعد ثمانية وعشرين عاماً من إنشاء الوزارة المذكورة، قفز عدد المدارس الابتدائية إلى ٣٦٣٨ مدرسة تضم ٥١٧٠٦٩ تلميذاً. وهذه زيادة تقرب من اثنتي عشرة مرة في عدد المدارس، وتقرب من ثلاث عشرة مرة في أعداد التلاميذ.

ولم يكن التعليم العام والخاص التابع لوزارة المعارف وحده الذي شهد تطوراً عظيماً. بل إن جهات تعليمية أخرى نشأت أو

تطورت خلال تلك الفترة، وحققت من النجاح قدراً مشابهاً لما حققته الوزارة المذكورة. وهذه الجهات:

١ ـ المعاهد العلمية:

وكان الهدف الأساسي من إنشائها تهيئة طلابها لدراسات جامعية يسدّ خريجوها حاجة البلاد في مجالات القضاء والإرشاد وتدريس العلوم الدينية. وقد أسندت إدارتها إلى مفتي المملكة حينذاك. واقتتح أول معهد منها في الرياض سنة ١٣٧٠ هـ. وأقبل كثير من الطلاب على الدراسة في المعاهد؛ خاصة أنها تمنح مكافآت سخية لمن يدرس فيها. ويوجد في المملكة منها الآن أكثر من خمسين معهداً تضم ما يقرب من اثني عشر ألف طالب. وتمثّل العلوم الدينية والعربية في مناهجها ما يقرب من ٧٠٪ من مجموع المواد المدرَّسة فيها. ولأن الرعيل الأول من طلاب المعاهد كان يضم أناساً درسوا على أيدي بعض العلماء الأفاضل قبل التحاقهم بها اتخذت تجاههم سياسة مرنة أنهوا بموجبها الدراسة في ثلاث سنوات. ولذلك فإن الإدارة العامة لها افتتحت كلية الشريعة لطليعة الخريجين منها سنة ١٣٧٣ هـ.

٢ ـ التعليم العسكري:

ولحاجة قطاعي الدفاع والأمن في البلاد إلى فئات ذات تعليم خاص افتتحت مدارس عسكرية تجمع مناهجها بين مواد تدرس في التعليم العام وبين دروس تدريبية. ثم أنشئت كليات تسهم في تلبية احتياجات القطاعين المذكورين، وهي كلية الملك عبد العزيز الحربية وكلية الملك فيصل الجوية التابعتان لوزارة الدفاع، وكلية قوى الأمن التابعة لوزارة الداخلية، وكلية الملك خالد العسكرية التابعة للحرس

الوطني. ولا يقتصر قبول الطلاب في هذه الكليات على المتخرجين من المدارس العسكرية، وإنما يشمل خريجي المدارس الثانوية العامة.

٣ ـ تعليم البنات:

كانت توجد في كثير من بلدان المملكة كتاتيب تدرس فيها البنات. ولكن تلك الكتاتيب كانت أقل من كتاتيب الأولاد. ثم افتتحت مدارس أهلية في بعض المناطق مدعومة مالياً من قِبَل الحكومة. وبعد دراسة مستفيضة لظروف البلاد الاجتماعية قررت الدولة أن تفتح مدارس حكومية للفتيات.. فأنشأت رئاسة عامة لتعليمهن. وبدأت تلك الرئاسة عملها بافتتاح ست عشرة مدرسة ابتدائية سنة ١٣٨٠ هـ. واجتمع عامل الرغبة في التعليم لدى الفتيات السعوديات وأولياء أمورهن مع الإمكانات المالية للدولة ونشاط الرئاسة فتطور تعليم البنات بسرعة فائقة. وبلغ عدد المدارس الابتدائية الحكومية سنة ١٤٠٠ هـ؛ أي بعد عشرين سنة من إنشاء الرئاسة، ١٥٩٨ مدرسة تضم ٣١١٧٣٥ تلميذة.

ولم يقتصر نشاط الرئاسة العامة لتعليم البنات على افتتاح المدارس التي تعنى بجميع مراحل التعليم العام غير الجامعي، بل قامت بأمور عدة منها افتتاح معاهد لتأهيل المعلمات، وافتتاح مدارس خاصة ببعض المهن. وبالإضافة إلى ذلك فتحت أبواب المدارس مساء لإتاحة الفرصة أمام كل من لم يدركن قطار التعليم في طفولتهن ليتعلمن القراءة والكتابة، ويواصلن دراستهن.

٤ ـ التعليم العالي:

بدأ التعليم العالي لأبناء المملكة بإيفاد عدد منهم إلى الأقطار العربية السابقة في مجال التعليم؛ خاصة مصر، ليدرسوا في جامعاتها. ثم بدأ التعليم الجامعي في المملكة ذاتها بإنشاء كلية الشريعة في مكة سنة ١٣٦٩ هـ. لكن أول جامعة في البلاد هي جامعة الملك سعود التي أنشئت عام ١٣٧٧ هـ. ثم افتتحت جامعات أخرى حتى أصبح عددها سبعاً لبعضها فروع في بلدان متعددة من المملكة. وتختلف بعض هذه الجامعات نوعاً ما في مجال تخصصاتها. فجامعة الملك سعود في الرياض، وجامعة الملك عبد العزيز في جدة، وجامعة الملك فيصل في المنطقة الشرقية، تشتمل على دراسات مدنية متنوعة. وجامعة البترول والمعادن في الظهران تركز على الدراسات العلمية والتطبيقية. وجامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض، وجامعة أم القرى في مكة، تركزان على العلوم الشرعية والعربية والاجتماعية. أما الجامعة الإسلامية في المدينة فإنها تشبه الجامعتين الأخيرتين في مجال تخصصها. لكن إذا كانت بقية الجامعات السعودية تخصص منحاً لطلاب غير سعوديين ليدرسوا فيها فإن الهدف الأساسي من الجامعة الإسلامية تدريس غير السعوديين.

وإلى جانب الجامعات والكليات العسكرية التي سبق ذكرها توجد في المملكة كليات تابعة للرئاسة العامة لتعليم البنات، وكليات متوسطة تابعة لكل من هذه الرئاسة ووزارة المعارف، تهدف إلى رفع مستوى المعلمين والمعلمات في المرحلة الابتدائية.

وقد نتج عن تعدد الجامعات في المملكة وكثرة المبتعثين إلى خارجها لمواصلة دراستهم الجامعية أو العليا إنشاء وزارة للتعليم

العالي وكل إليها أمر المبتعثين الذين يزيد عددهم على عشرين ألفاً، كما وكل إلى وزيرها الإشراف على سير الجامعات في داخل البلاد.

ولعله من المستحسن، قبل ختام الحديث عن الحياة العلمية في المملكة، الإشارة إلى ما يلي:

١ ـ السياسة التعليمية في البلاد:

وهذه السياسة تهدف إلى أمور ثلاثة:

أ ـ تعليم الناشئة مبادىء الإسلام وأحكامه وتأصيلها في نفوسهم.

ب ـ تعليمهم قواعد اللغة العربية وآدابها وتحبيبها إلى أفئدتهم.

جـ ـ تعليمهم ما تتطلبه حاجات البلاد التنموية في الإدارة والاقتصاد والتقنية وغيرها.

٢ ـ عوامل نجاح مسيرة التعليم:

ومن أهم هذه العوامل:

أ ـ حرص المسؤولين في البلاد على نشر العلم.

ب ـ دخل البلاد الكبير من ثروتها الطبيعية الذي مكّن أولئك المسؤولين من تحقيق كثير مما أرادوا تحقيقه.

جـ ـ التطور الاقتصادي والعمراني في مدن المملكة مما أغرى كثيراً من مواطنيها الرحّل بالاستقرار، ومن ثم إدخال أولادهم في المدارس.

٣ ـ مدى النجاح الكيفي للتعليم:

لقد أدت الجهود المبذولة في مجال التعليم كثيراً من ثمارها.

فأصبح أكثر المدرسين في مراحل التعليم العام من أبناء البلاد. وأصبح عدد الأساتذة من السعوديين في الجامعات يزداد عاماً بعد عام ازدياداً مرضياً. وتسلّمت دفة إدارة المؤسسات الحكومية فئات ذات مؤهلات ثقافية وإدارية جيدة. وكانت من نتائج زيادة عدد الأساتذة السعوديين في الجامعات؛ خاصة في المجالات العلمية والتطبيقية، أن أنشىء مركز وطني للعلوم والتكنولوجيا يقوم بأبحاث علمية متعلقة بتنمية موارد البلاد وتقدمها، وذلك بالاستعانة بأولئك الأساتذة.

على أن الظروف الاجتماعية الخاصة لم تتح للسياسة التعليمية أن تسير وفق كل ما تهدف إليه. فقد زاد عدد طلاب الكليات الإنسانية؛ خاصة في العلوم الاجتماعية، زيادة عظيمة. وكثر المتخرجون في هذه المجالات الذين بدأ بعضهم لا يجدون أعمالاً تتناسب مع ما درسوه. وزاد عدد طلاب بعض الجامعات عما خطط له بصفة عامة. وإلى جانب ذلك ما زال الإقبال على التعليم المهني، الذي تحتاج إليه خطط التنمية احتياجاً عظيماً، دون ما هو مؤمل. وإدراكاً من المسؤولين في الدولة لهذه المشكلة عهد بالتعليم الفني المهني إلى إدارة مستقلة أملاً في أن يتيح لها هذا الاستقلال فرصة لمضاعفة الجهود واتخاذ الوسائل التي تجتذب الطلاب إلى ذلك اللون من التعليم. وإلى جانب ذلك اتخذت توصيات بإدخال بعض التعديلات على مناهج الدراسة الثانوية العامة من بينها إضافة بعض المواد التطبيقية التقنية.

وتجدر الإشارة إلى معهد الإدارة العامة الذي كان الهدف الأساسي من إنشائه رفع مستوى موظفي الدولة علمياً وإدارياً، والذي حقق قدراً كبيراً من النجاح.

* * *

الحيـــاة الثقـافيــة:

والحياة الثقافية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحياة العلمية. ولا يمكن الحـديث عن هذه بمنـأى عن تلك. ذلك أن التعليم أهم عـوامل تثقيف المجتمع. ويمكن الحديث عن الحياة الثقافية من جانبين:

أحدهما: الوسائا المتخذة لنشر الثقافة بين أفراد الشعب.

وثـانيهما: أثـر تلك الوسـائل في انتشـار الثقافـة بين أولئـك الأفراد.

ومعـروف أن من أهم وسـائـل نشـر الثقـافـة، بعـد التعليم، الصحافة. ومن متطلبات الصحافة وجود مطابع محلّية. وقـد بدأت المطابع في الحجاز أواخر العهد العثماني. وذلك نتيجة لتقدم هذه المنطقة على غيرها من المناطق التي تكوّنت منها المملكة العـربية السعودية فيما بعد في مضمار الحركـة العلمية ولاهتمـام العثمانيين بها. وكانت أول مطبعة أنشئت فيهـا سنة ١٣٠٠ هـ. وهي مـطبعة يدوية قامت بطباعة بعض الأمور الخاصة بالمنطقة المذكورة وعدد من المؤلفات الدينية واللغوية والتاريخية. وبقيت المطبعـة الوحيـدة في البلاد حوالى ربع قرن من الزمن. ثم توالى إنشـاء المطابـع. وبدأ صدور الصحف في الحجاز أيضاً، وذلك منذ سنة ١٣٢٦ هـ. وكانت الجريدة الأولى هناك جريدة «حجاز» التي كانت تحرر باللغتين العربية والتركية. وقد صدرت صحف غيرها خلال العهد العثمـاني، لكنها سرعان مـا اختفت ولم يبقَ إلا تلك الصحيفة الأولى. وبعـد ثورة الشـريف حسين على الأتراك صـدرت أربـع صحف هي: «القبلة» و«الحجاز» و«الفلاح» و«بريد الحجاز». لكن أقواها كانت «القبلة» المعبّرة عن آراء الملك حسين.

وحينما دخلت الحجاز تحت الحكم السعودي صدرت فيها جريدة «أم القرى». وبقيت هذه الجريدة تصدر حتى الوقت الحاضر. لكنها بعد سبعة عشر عاماً من صدورها تحولت إلى نشرة رسمية تشتمل على الإعلانات الحكومية والأخبار الإدارية. وتوالى إصدار الصحف والمجلات بعد صدور تلك الجريدة. ومن هذه الصحف والمجلات ما استمرت تصدر حتى الآن. ومنها ما حالت ظروف معينة دون استمرارها. وفي الفترة الأخيرة حوِّلت الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية إلى مؤسسات عامة.

وتصدر في المملكة الآن صحف يومية هي «الندوة» و«البلاد» و«المدينة» و«عكاظ» في الحجاز و«الرياض» و«الجزيرة» و«الجزيرة المسائية» في الرياض، و«اليوم» في الدمام. وهناك صحيفة «الشرق الأوسط» التي تصدر في كل من جدة ولندن في آن واحد، وهي صحيفة مختلفة نوعاً ما عن الصحف المشار إليها سابقاً. وبالإضافة إلى هذه الصحف الصادرة باللغة العربية تصدر صحيفتان سعوديتان باللغة الإنجليزية هما: «Arab News &» و«Saudi Gazette».

أما المجلات الأسبوعية السعودية فهي «إقرأ» و«اليمامة» و«الدعوة» و«المجلة» و«الشرق». وهنالك مجلة سعودية خاصة بالطفل، وهي مجلة «الشبل»، التي تصدر مؤقتاً نصف شهرية.

وأما المجلات الشهرية ففي طليعتها «المنهل» و«العرب»، اللتان تعنيان بتاريخ الجزيرة العربية وآدبها وجغرافية أمكنتها، كما تعنيان بالتراث العربي بصفة عامة. وهناك مجلات شهرية ذات سمعة ثقافية عامة من أشهرها «**المجلة العربية**» و«الفيصل» و«الحرس الوطني». وبالإضافة إلى ذلك كله تصدر في البلاد مجلات دورية

ذات صبغة بحثية مثل «الدارة» ومجلات كليات الجامعات المختلفة.

وتسهم الصحف والمجلات إسهاماً جيداً في إمداد القراء بالأخبار والكتابات الأدبية والعلمية. كما تتيح للكتاب، مهما اختلفت قدراتهم، فرصاً كبيرة لنشر ما يريدون نشره.

ولقد اتضح من الكلام عن الحياة العلمية في المملكة أن الجهات المنوط بها التعليم متعددة هي وزارة التعليم العالي، ووزارة المعارف، والرئاسة العامة لتعليم البنات، والإدارة العامة للمعاهد المرتبطة بجامعة الإمام محمد بن سعود، والإدارة العامة للتعليم الفني المهني، ووزارتا الداخلية والدفاع، والحرس الوطني. وكل جهة من تلك الجهات تؤدي دوراً تعليمياً وثقافياً معيناً. وبجانب تلك الجهات هنالك جهات حكومية أخرى لها أدوار في نشر الثقافة ومن أهم هذه الجهات:

١ ـ الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

٢ ـ وزارة الإعلام.

٣ ـ الرئاسة العامة لرعاية الشباب.

وتقوم هذه الجهة الأخيرة بدور كبير في مجال الثقافة؛ خاصة في مجالي الأدب والفن. ذلك أنه قد وكلت إليها النوادي الأدبية في المملكة، وجمعية الثقافة والفنون، كما عهد إليها بالنوادي الرياضية التي يقوم فيها نشاط ثقافي من حين إلى آخر. وفي السنة الماضية أنشئت جائزة الدولة التقديرية للأدب. وتمنح هذه الجائزة للذين أسهموا في إثراء الحياة الأدبية في البلاد. وتشرف على أمور الجائزة المذكورة لجنة برئاسة الرئيس العام لرعاية الشباب.

ولقد كان لكل وسائل التثقيف السالفة الذكر أثرها الكبير في

انتشار الثقافة بين أبناء الشعب السعودي. فأخذت مدارك الجيل وآفاقه تتسع مع مرور الأيام. على أن آثار ذلك من الأمور المتعلقة بالحياة الفكرية التي هي ختام الحديث في هذه المحاضرة.

* * *

الحياة الفكرية:

إذا كانت الحياة الثقافية مرتبطة بالحياة العلمية بدرجة كبيرة فإن الحياة الفكرية مرتبطة، أيضاً، بكل منهما. وذلك أن الفكر ثمرة من ثمار التعليم والتثقيف. والحديث عن الحياة الفكرية في المملكة سيكون حديثاً موجزاً يتناول اتجاهات الفكر وما أنتجه أدباء البلاد ومفكروها.

والمملكة العربية السعودية تضم الأماكن الإسلامية المقدسة. وهي قائمة ـ كما ذكر سابقاً ـ على أساس ديني واضح. ولهذا فإن المسؤولين فيها قد احتضنوا كل فكر ملتزم بالإسلام عقيدة ومنهاجاً. ومن نتائج ذلك أن ظهرت الاتجاهات الفكرية في البلاد ـ بصفة عامة ـ منسجمة مع سياسة الدولة. والمملكة تتكوّن من مناطق هي مهد العرب وموطنهم الأول. ولذلك فإن المسؤولين فيها يرون في التراث العربي المجيد تراثاً يجب أن يعتنى به، وأن يعطى ما يستحقه من تقدير. ومن نتائج ذلك، أيضاً، أن ظهرت الاتجاهات الفكرية في البلاد ـ بصفة عامة ـ معتنية بذلك التراث ومقدرة له. وهكذا فإن اتجاهات الفكر في المملكة اتجاهات إسلامية عربية.

ولقد حتّم اهتمام الكتاب والأدباء السعوديين بالإسلام وبالتراث العربي والروابط التي تربطهم بإخوانهم العرب والمسلمين أن يهتموا بالأحداث التي تمر بأولئك الإخوان وبما يواجههم من مشكلات. وما

دوّنه الكتاب والأدباء السعوديون من كتابات نثرية وشعرية عن الثورة الجزائرية المجيدة مثل من أمثلة ذلك الاهتمام. ومن الواضح أن تعايشهم مع تلك الثورة كان من أعظم دوافعه شعورهم بقوة الغزاة المستعمرين وإعجابهم بوقفة الشعب الجزائري البطل وبما قدمه من تضحيات جليلة في سبيل تحرير وطنه حتى تحقق له النصر على كل قوى الاستعمار.

أما عن الإنتاج الفكري ذاته فإنه كثير؛ خاصة إذا قورن بعدد السكان. ومع أن في بعضه ومضات خلاقة مبدعة فإن أكثره لا يرقى إلى المستوى الجيد. وفي السنوات الأخيرة تضاعف إنتاج الكتب المحلّية. خاصة من الشعر العامي، مثلما تضاعف إنتاج الزيت الخام في البلاد. ولعل من أسباب ذلك:

١ - الدعم المالي من قِبَل الحكومة للمؤلفات السعودية؛ إذ تشتري كثير من الوزارات والمؤسسات الحكومية أعداداً لا بأس بها من كل مؤلف سعودي.

٢ - إقبال المواطنين؛ خاصة أن الثروة متوفرة لدى كثير منهم، على اقتناء الكتب. وكثير من هؤلاء يشترون الكتب رغبة في قراءتها. لكن عدداً قليلاً من المواطنين أصبحوا يشترونها تمشياً مع نظرة اجتماعية طارئة بدأت تنظر إلى الكتب نظرتها إلى التحف المنزلية تزين بها صالة الاستقبال دون أن تمس صفحاتها بما يكدّر صفوها. على أن الأمل كبير في أن تتغير نظرة هؤلاء مستقبلاً إلى هذه التحف فتصبح متعة الأبصار والبصائر معاً.

* * *

من مراجع المحاضرة:

١ ـ بكري الشيخ أمين.
الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية، بيروت، ١٣٩٣ هـ.

٢ ـ راشد المبارك.
الثقافة والتعليم في المملكة العربية السعودية، المغرب، ١٣٨٣ هـ.

٣ ـ عبدالله العثيمين.
الشيخ محمد بن عبد الوهاب: حياته وفكره، دار العلوم بالرياض، ١٤٠٠ هـ.

٤ ـ عبد الوهاب عبد الواسع.
التعليم في المملكة العربية السعودية بين واقع حاضره واستشراف مستقبله، الطبعة الثانية، جدة، ١٤٠٣ هـ.

٥ ـ محمد الشامخ.
التعليم في مكة والمدينة آخر العهد العثماني، الرياض، ١٣٩٣ هـ.

الصحافة في الحجاز ١٩٠٨ ـ ١٩٤١ دراسة ونصوص، بيروت، ١٣٩٢ هـ.

كاتب الحي، دار العلوم بالرياض، ١٤٠٣ هـ.

حائل في ذاكرة التاريخ القريب

حائل في ذاكرة التاريخ القريب[1]

«فأتينا جبل شمّر، والكل منا لذيل الانشراح قد شمّر. وهناك قرية تسمّى حائل، ضرب الأنس بينها وبين الهموم بحائل. ذات نخيل وأشجار، وعيون وآبار، وطيور وأزهار، وبساتين واسعة وثمار. وكأنها روضة من رياض الجنان، فيها من كل فاكهة زوجان. وأهلها عرب كرام، شمل كرمهم الخاص والعام. لا تلقى فيها غير شجاع عظيم، وجواد كريم. وبها كل غادة أملود، تفتك بلباتها الأسود... كاملة الحسن والأوصاف، قد جمعت بين الجمال والعفاف...»[2].

كانت الكلمات الشاعرية السابقة من وحي بلدة حائل الجميلة، الذي أوحته إلى وجدان عابر سبيل أتاح له حظه السعيد أن يمرّ بها، وينعم بكرم أهلها وجمالها. وكان طائره الميمون قد حمله إليها سنة ١١٣١ هـ. أما ذلك الذي كتب تلك الكلمات فهو السيد عباس المكيّ الحسنيّ الموسويّ.

ولقد جعلت كلمات الموسويّ بداية لهذه المحاضرة لأنها ـ كما

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة مساء يوم الثالث من رجب سنة ١٤١٠ هـ في المركز الثقافي بحائل ضمن نشاط نادي الطائي، الذي اختار عنوانها.

(٢) حمد الجاسر، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: شمال المملكة**، دار اليمامة، ١٣٩٧ هـ، جـ١، ص ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

يقول شيخنا حمد الجاسر ـ[1] أول النصوص المتوافرة التي يطلق فيها اسم حائل على هذه البلدة، ولأن ما قاله كاتبها عن أهلها من كرم وجود أمر يدركه كل من أسعده الحظ بزيارتها.

وإذا كان الموسويّ قد توّج ما قاله عن غيد حائل من حسن وجمال بتأكيده ما كنّ يتّصفن به من عفاف فإن من عناهن، بدون شك، هن سلف تلك اللواتي أشار إليهن بفخر واعتزاز فارس جبل شمّر وشاعره عبيد بن رشيد بقوله :

حضر الجبل والبدو ناتي صليبين يَتْلِنّنا جملات سود الجدايل[2]

ثم اسمحوا لي بعد ذلك ـ أيها الإخوة ـ أن أستعرض معكم هذا المساء أوضاع منطقة جبل شمّر، التي أصبحت حائل قاعدة لها منذ أن دخلت في ظل الدولة السعودية الأولى في مستهل القرن الثالث عشر الهجري، حتى عهد الأمير طلال بن عبد الله بن رشيد. أما اختياري لهذه الفترة بالذات فمن أسبابه أنها فترة شهدت أعمق الصلات الوطيدة بين إمارة الجبل زمن آل علي وآل رشيد وبين حكومة آل سعود في الدرعية والرياض. ثم إن ما بعد هذه الفترة مما لا يستطيع مثلي العوم فيه دون تعريض نفسه لأمواجه المضطربة.

كانت منطقة جبل شمّر في النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري مشابهة لمناطق نجد الأخرى من حيث تكوّن سكانها من بادية وحاضرة. لكن باديتها، فيما يبدو، كانت أكثر من حاضرتها خلال تلك الفترة. وكانت بادية قبيلة شمّر هي المسيطرة على مراعي المنطقة

---

(١) المصدر نفسه، جـ ١، ص ٣٨٤.

(٢) **الأزهار النادية من أشعار البادية**، جمع محمد سعيد كمال، الطائف، ج ٣، ص ٨٠.

حينذاك. ولم يكن عدد المنتمين إلى هذه القبيلة من الحاضرة قليلاً أيضاً. ولذلك كان هناك تمثيل كبير لشمّر بين السكان. وهذا ما قوّى الرابطة بين هؤلاء السكان وبين قيادتهم المنتمية إلى تلك القبيلة.

ومن الواضح أن قيادة الحاضرة في حائل، خلال القرن الثاني عشر الهجري، كانت لآل علي من آل جعفر أحد بطون عبدة القحطانية الأصل. وكان من بين أمرائهم في هذه البلدة محمد بن عيسى بن علي، أخو خنساء، المشهور بالكرم والجود. وعند نهاية ذلك القرن كان أميرها محمد بن عبد المحسن. ومع أن مؤلف **لمع الشهاب**[1]. قد أشار إلى أن فئات من قبيلة شمّر قد انضمت إلى الدولة السعودية الأولى في فترة مبكرة جداً من عمر هذه الدولة إلا أن المصادر الأكثر قرباً من مسرح الأحداث والأكثر دقة في تدوين التاريخ، كابن غنام وابن بشر، لا تشير إلى ذلك. ويستفاد من تتبع كتابة ابن بشر أن أول احتكاك بين قادة الدولة السعودية الأولى وبين شمّر حدث عندما شاركت فئات من هذه القبيلة في الحصار الذي ضربه زعيم بني خالد، سعدون بن عريعر، حول بلدة بريدة التابعة لتلك الدولة سنة ١١٩٦ هـ[2]. وكان أمير بريدة حينذاك حجيلان بن حمد، الذي كان من أكبر المتحمسين لتوسيع نفوذ الحكم السعودي. ولقرب مركز إمارته من جبل شمّر عهد إليه قادة آل سعود بمهمة إدخال منطقة الجبل تحت حكمهم. وبدأ ذلك الأمير بتنفيذ المهمة المعهودة إليه عام ١٢٠٠ هـ.

---

(١) حسن الريكي، **لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب**، تحقيق أحمد أبي حاكمة، بيروت، ١٩٦٧ م، ص ٣٧.

(٢) عثمان بن بشر، **عنوان المجد في تاريخ نجد**، طبعة وزارة المعارف السعودية الثانية، ١٣٩١ هـ، جـ١، ص ٩٤.

على أن آل علي، بقيادة الأمير محمد بن عبد المحسن، قد أدركوا أبعاد الظروف الجديدة في نجد، والمتمثلة في نجاح آل سعود أمام خصومهم في داخل نجد وخارجها. ومن المرجح، أيضاً، أنهم قد اقتنعوا بصحة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، التي قام على أساسها الحكم السعودي. وكان هذا الاقتناع وذلك الإدراك من أكبر الأسباب التي أدّت إلى نجاح حجيلان بن حمد في غزوته لجبل شمّر عام ١٢٠١ هـ؛ إذ لم يعد من هناك إلا وقد أصبحت جميع بلدانه تحت حكم الدولة السعودية الأولى[١].

وكان دخول بلدان جبل شمّر فيما دخلت فيه بقية مناطق نجد بداية مرحلة جديدة لكل من الأمير محمد بن عبد المحسن وبلدة حائل. ذلك أن محمداً أصبح أميراً على تلك البلدان؛ بل أصبح، أيضاً، أميراً على كثير من البلدان الواقعة شمال منطقة الجبل. وأصبحت بلدة حائل قاعدة سياسية لإمارة منطقة واسعة. وظل الأمير محمد بن عبد المحسن مخلصاً للدولة التي انضم إليها، وفياً لعهده لها، مجتهداً في عمل كل ما من شأنه رفعتها وتقوية نفوذها. وكان له من المواقف العظيمة في تاريخ تلك الدولة ما جعله هدفاً لأعدائها الذين لم يعرفوا الوفاء بعهد، ولم يحترموا ما أعطوا من وعد. ذلك أنه ذهب ضحية جور زبانية إبراهيم بن محمد علي وغدرهم؛ إذ اغتاله الحبشي، الذي أرسل إلى الجبل مع فرقة من الجيش سنة ١٢٣٤ هـ، ثم بعث برأسه إلى تركيا، ودفنت بقية جسده في مقبرة الزبارة بحائل. وإذا كان اغتيال الأمير محمد غدراً دليلاً واضحاً

---

(١) حسين بن غنّام، روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، طبعة أبي بطين، القاهرة، ١٣٦٨ هـ، جـ٢، ص ١٣٠.

على عظمته وخوف زبانية إبراهيم باشا منه فإن بعث رأسه إلى تركيا دليل آخر على تلك العظمة. ذلك أنه من غير المرجح أن يبعث إلى هناك إلا برأس من كان له شأن خطير. ولقد قرأت العبارة المكتوبة على أحد شاهدي قبره، ونصها:

«محمد بن علي أمير المسلمين رحمه الله وأسكانهو (أسكنه) دار السلم (السلام)».

وهذه العبارة تدل على أمرين: أحدهما ما توحي به عبارة «أمير المسلمين» من كونه عظيماً مشهوراً، وكونه متديناً ملتزماً[1]. فلم تطلق مثل هذه العبارة ـ حسب معرفتي المحدودة ـ إلا على سعود بن عبد العزيز قائد الدولة السعودية الأولى المشهور. ثم إن إضافة إمرة المسلمين إلى محمد بن علي بدلاً من إضافة إمرة شمّر، التي توحي بالقبيلة، أو إمرة الجبل التي توحي بالإقليمية، دليل على أن أعز وصف لديه ولدى محبّيه هو الوصف الديني. أما الأمر الثاني الذي توحي به العبارة المكتوبة كلها فهو ضعف قاعدة الإملاء لدى من كتبها. وقد يستشف من ذلك من يحاول التعرّف على مستوى القراءة والكتابة في البلدة حينذاك أنه مستوى ضعيف إذا افترض أنه سيختار للكتابة على قبر ذلك الرجل العظيم من يعتقد تمكّنه ومهارته.

والذي يترجح لدى من يقارن بين النصوص المختلفة والروايات الشفهية أن صالح بن عبد المحسن حلّ محلّ أخيه محمدٍ في زعامة

---

(١) انظر التفاصيل عن محمد بن علي وما قام به من جهود: **نشأة إمارة آل رشيد**، لكاتب هذه السطور، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٤٠١ هـ، ص ص ٥ ـ ١٣.

منطقة جبل شمّر بعد انسحاب قوات إبراهيم باشا منها. على أن عبارة وردت في تاريخ ابن بشر تقول بأنه في سنة ١٢٤٣ هـ، أو التي قبلها، «وفد عيسى بن علي، رئيس جبل شمّر، على الإمام تركي ومعه رؤساء قومه، فبايعوا على دين الله والسمع والطاعة»[(١)]. وهذه العبارة تفيد بأن عيسى كان حينذاك رئيساً للجبل. لكن الدارس لابن بشر يدرك عدم دقته في بعض الأمور، ويرى أنه يستعمل أحياناً عبارات تحدث الوهم والالتباس لدى القارىء. فقد يصف أحد الرجال بأنه أمير بلدة من البلدان بينما لم يكن ذلك الرجل أميراً للبلدة في أثناء الفترة التي يتحدث عنها، وإنما كان أميراً لها قبل تلك الفترة أو سيكون أميراً لها بعد ذلك. ومن الثابت أن عيسى بن علي قد أصبح أميراً لجبل شمّر سنة ١٢٥٣ هـ. وبذلك فإن المرجح أن المراد من عبارة ابن بشر - بعد مقارنتها بالمصادر الأخرى - هو الإخبار بوفود عيسى مع رؤساء قومه موفداً من قبل أمير المنطقة حينذاك؛ وهو صالح بن عبد المحسن. وكون صالح أميراً للجبل لا يمنع احتمال وجود نفوذ قوي لعيسى في شؤون إمارة المنطقة، أو كونه قائداً لجيشها في الحرب. وليس في سيرة الأمير صالح ما يبيّن أنه كان زعيماً يتعذّر أن يوجد إلى جانبه مثل تلك الشخصية القوية.

وعلى أية حال فإن العلاقة بين إمارة جبل شمّر وبين حكومة الإمام تركي بن عبد الله - ومركزها الرياض - كانت علاقة وثيقة تشبه تلك العلاقة التي كانت موجودة بين إمارة الجبل وبين قادة الدولة السعودية الأولى. وكان من أبرز وجوه العلاقة المذكورة بين الطرفين: الزكاة، والغزو، والقضاء. ويبدو أن زكاة الجبل؛ خاصة زكاة البادية، كانت

---

(١) ابن بشر، المصدر السابق، جـ٢، ص ٤١.

ترسل في تلك الفترة إلى الحكومة المركزية في الرياض. أما الغزو فكان أهل الجبل في كثير من الأوقات مع قوات الإمام تركي، كما حدث سنة ١٢٤٥ هـ وفي السنتين التاليتين لها[١]. وأما القضاء فقد أرسل ذلك الإمام قضاة إلى الجبل تماماً كما فعل قبله قادة الدولة السعودية الأولى. غير أن مما يلفت النظر أن أولئك القضاة لم يكونوا دائمي الاستقرار في حائل؛ بل يجلسون فيها أوقات المواسم، ثم يعودون إلى بلدانهم[٢].

وكان من الأمور التي حدثت زمن إمارة صالح بن عبد المحسن، وأصبح لها آثارها الكبيرة في أوضاع منطقة جبل شمّر، ذلك الخلاف المرير بينه وبين عبد الله بن علي بن رشيد وأخيه عبيد وقد أدّى تفاقمه إلى اضطرار كلٍ من عبد الله وعبيد وأسرتهما إلى الجلاء من حائل. وانتهى الأمر بعبد الله إلى أن وفد على الإمام تركي، وأصبح صديقاً حميماً لابنه فيصل، وقائداً من قادة جيشه. ولما اغتيل الإمام تركي آخر يوم من سنة ١٢٤٩ هـ كان عبد الله مع فيصل في غزوة إلى جهة القطيف. وبمشورةٍ منه عاد فيصل بجيشه مسرعاً إلى الرياض، وحاصر مدبّر اغتيال الإمام ومن معه في قصر حكمها. وكان ما كان من اتصال بين عبد الله وبين سويّد بن علي، الذي كان مع مشاري بن عبد الرحمٰن داخل القصر. ثم حدث ما حدث من تسلّق عبد الله ورجال معه، بترتيب ومساعدة من سويّد، إلى القصر، والقضاء على مشاري بعد أربعين يوماً فقط من تدبيره اغتيال الإمام تركي وتنفيذه[٣].

وكانت جهود عبد الله بن رشيد؛ تخطيطاً وتنفيذاً، في القضاء على

(١) المصدر نفسه، جـ٢، ص ص ٤٨، ٥٠، ٥٢ و ٥٥.
(٢) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٧٨.
(٣) تفاصيل ذلك في نشأة إمارة آل رشيد، ص ص ١٩ - ٤٠.

مغتصب الحكم أكبر عامل في رسوخ مكانته لدى فيصل بن تركي، وأول خطوة في طريقه نحو إمارة جبل شمّر. على أن فيصلاً لم يعيّن عبد الله في الإمارة فور مبايعته بالحكم في الرياض. وربما كان من أسباب ذلك رغبته في عدم التسرع بالتغيير الإداري قبل التأكد من استقرار الأوضاع له في كل المناطق، وعدم وجود مبرر واضح عندئذ لعزل صالح بن عبد المحسن عن إمارة الجبل. لكن عبد الله بن رشيد ـ وهو الطموح الذكي ـ لم يعدم الوسائل التي أقنعت الإمام فيصلاً في عزل صالح عن الإمارة وتعيين عبد الله فيها؛ وذلك بعد عام تقريباً من تولّي الإمام الحكم[1]. وهكذا عاد عبد الله إلى حائل أميراً بعد أن خرج منها جالياً أو مبعداً.

وكما كان متوقعاً حدث خلاف بين الأمير المعزول وأتباعه وبين الأمير الجديد وأنصاره. ونتج عن هذا الخلاف اضطرار صالح بن عبد المحسن إلى مغادرة حائل مع عدد من أفراد أسرته. ثم تعقّب عبيد بن رشيد أولئك المغادرين، وقضى عليهم في قرية السليمي إلا رجلاً واحداً هو عيسى بن علي.

وبدا وكأن الأمير عبد الله بن رشيد قد استراح من منافسيه في الجبل بالقضاء عليهم، لكن راحته لم تطل؛ إذ لم ينته العام الذي تولّى فيه الإمارة إلا وقد لاحت في الأفق بوادر خطر جديد موجهٍ إلى الإمام فيصل بن تركي، الذي عيّنه في الإمارة. وكان ذلك الخطر إرسال حاكم مصر، محمد علي، حملة عسكرية إلى نجد بقيادة إسماعيل بك حقيقة وقيادة خالد بن سعود اسما. واستطاعت الحملة الاستيلاء على القصيم.

---

(١) المصدر نفسه، ص ص ٤١ ـ ٤٨.

ومن هناك أرسل قائداها فرقة من الجيش ـ ومعها عيسى بن علي ـ إلى حائل. ولما اقتربت من هذه البلدة لم يجد عبد الله بن رشيد بدأ من تفادي الصدام معها، والمغادرة إلى جُبَّة. ثم تمكن بعد ذلك من العودة إلى الإمارة بقواته الذاتية ـ وعلى رأسها أخوه عبيد ـ وتأييد وترسيخ من خورشيد باشا، الذي قدم إلى نجد بإمدادات جديدة. وظل عبد الله أميراً غير منازع للجبل. وكان انتصاره في بقعاء سنة ١٢٥٧ هـ عاملاً كبيراً في توطيد إمارته وتقوية نفوذه في شمال الجزيرة العربية.

ولما خرج فيصل بن تركي من مصر سنة ١٢٥٩ هـ اتجه إلى حائل حيث صديقه الحميم، الذي أصبح مرهوب الجانب. ووقف الصديق مع صديقه حتى انتزع الحكم من ابن ثنيّان في الرياض. وهكذا أثبت عبد الله بن رشيد أنه الصديق الوفيّ، وأنه كان عوناً لفيصل في وصوله إلى الحكم للمرة الثانية كما كان عوناً له في الوصول إلى الحكم للمرة الأولى. ولم يكن ذلك غريباً من عبد الله وفيصل هو الذي اصطفاه رفيقاً قبل وصول كل منهما إلى مركز الصدارة، وهو الذي عيّنه في إمارة منطقة هي مسقط رأسه، وملعب صباه، وموطن قومه وأحبابه.

وظلت صلة الأمير عبد الله بن رشيد بالإمام فيصل بن تركي وطيدة حميمة حتى توفي عبد الله سنة ١٢٦٣ هـ. وخلفه ابنه طلال في الإمارة، فواصل سياسة أبيه في انتهاج سياسة ثابتة تجاه الإمام فيصل لحمتها الود وسداها التعاون. ونال طلال من فيصل ما ناله أبوه قبله من تأييد ودعم وتقدير. وكان طلال موفّقاً كأبيه في تثبيت مركز الإمارة وتوسيع دائرة نفوذها، كما كان حريصاً على كل ما من شأنه رفعة مواطنيه وتحقيق

(١) تفاصيل ذلك في المصدر نفسه، ص ص ٤٨ ـ ٦٤.

مصلحتهم العامة. وكما كان عبيد بن رشيد الساعد الأيمن لأخيه عبد الله في جميع خطواته كان الساعد الأيمن، أيضاً، لابن أخيه طلال؛ رأياً صائباً وعملاً حازماً. ولقد تجاوزت مكانة الأمير طلال نطاق إمارته، فأصبح محلّ تقدير الكثيرين من خارجها. ولم يقتصر الثناء عليه على من كانوا يأملون في برّه وعطائه؛ بل أصبح الثناء عليه ممن لا يهمهم في ثنائهم إلا التعبير عما تكنّه مشاعرهم نحوه من صافي المودة ونبيل الإعجاب. فها هو الشاعر المشهور، محمد بن عبد الله القاضي[1]، الذي كان غنياً، ولم يرج من أيّ زعيم براً، يمدحه بقوله:

تلقى الخطوب بباس ليث شديد وعزايم عزّت على عمرو وشهاب
أحيت شجاعة خالد بن الوليد وأنست مقالات لأبا زيد وذياب[2]

على أن حياة الأمير طلال وإن كانت عذبة البداية، قوية النشاط، إلا أنها كانت مأساوية النهاية. ذلك أنه لم يهتد إلى حلّ يخلّصه من الآلام البدنية التي عانى منها أشد المعاناة إلا بالإقدام على الانتحار سنة ١٢٨٣ هـ[3].

ولم يكن غريباً أن تترك هذه المأساة أثرها القويّ في نفس الشاعر القاضي، الذي مرّ بنا صدى إعجابه به حياً، فيصورها بقوله:

أجل عنك ما الدنيا إلى عاهدت تافي لو زخرفت لا بد يقفى لها قافي

(١) محمد بن عبد الله القاضي أحد شعراء عنيزة ووجهائها المشهورين. توفي عام ١٢٨٥ هـ.

(٢) خالد الفرج، ديوان النبط، القاهرة،؟ جـ ٢، ص ١١٩.

(٣) إبراهيم بن عيسى، عقد الدرر... طبع ملحقاً لعنوان المجد، ص ٥٢.

ثم يشير إلى ما حدث من تلك الدنيا لطلال بقوله:

يوم استتمت له وجت له على المنى   جرى من سبب كفه على نفسه إتلافِ
تهدّم مقام العز منها ولا بقى   ملك عظيم ما رفا فتقه الرافي
حنّت عليه جبال حايل ومن بها   من الجار والجالين وصنوف الأضيافِ
عمار الجبل سور الجبل هيبة الجبل   حمى حوز جانبها بشذرات الأسياف[1]

وإذا كانت تلك هي الأوضاع السياسية التي مرّت بها حائل قاعدة لإمارة جبل شمّر بكل ما وصلت إليه الإمارة من نفوذ في فترة تزيد على ثمانين عاماً فكيف كانت أوضاعها الأخرى؟

عوداً إلى كلمات الموسويّ التي استهلت بها هذه المحاضرة يرى المرء أن بلدة حائل كانت قرية في الربع الأول من القرن الثاني عشر الهجري. وقد جرت العادة أن تطلق كلمة قرية على البلدة ذات الحجم الصغير. ومن المرجح جداً أن حجم البلدة قد كبر إبّان حكم الأمير محمد بن عبد المحسن، الذي كان أميراً للجبل وبعض الجهات الواقعة شماله أكثر من ثلاث وثلاثين سنة؛ إذ أصبحت مقر سلطة إقليمية، ومنطلق غزوات، ومركز جباية زكوات، ثم ملتقى لقوافل حج وتجارة. على أن مما يلفت النظر أن الرحالة الفنلندي، والين، الذي زار بلدة حائل مرتين أواخر عهد الأمير عبد الله بن رشيد، والذي كان معجباً بذلك الأمير ومنصفاً في حديثه عن شخصيته، قد ذكر أن سكان البلدة يتكونون من ٢١٠ أسرة في حين ذكر أن سكان قفار يتكونون من ٥٠٠ أسرة. بل إنه قدّر سكان بلدان غير ذات شهرة كبيرة بما يقرب من سكان حائل؛

(١) خالد الفرج، المصدر السابق، ج ٢، ص ص ١٢٠ - ١٢١.

مثل تقديره لسكان المستجدة بـ ٢٠٠ أسرة، وتقديره لسكان جُبَّة بـ ١٧٠ أسرة[١]. ولما زار جوارماني، الرحالة الإيطالي، بلدة حائل أواخر عهد طلال قدّر سكانها بـ ٧٥٠٠ نفس، وقدّر سكان قفار بـ ٨٥٠٠[٢]. ومع أن سكان حائل قد ارتفع عددهم بشكل ملحوظ؛ مقارنة بسكان قفار، مثلاً، خلال عهد طلال فإن تقدير والين يظل مصدر غرابة لأنه يتزامن مع فترة عزّ الأمير عبد الله بن رشيد. ولعلّ تقديره أقل من الواقع.

وكان مما قاله والين عن حائل، أيضاً ما يلي:

«أكثر بيوتها من طبقتين غرفهما قليلة، ولكنها فسيحة ومريحة، ولا يدخلها النور إلا من الباب، ومن فرج صغيرة من الجدران تحت السقف مباشرة. وفي كل بيت مقهى منفصل عن بقية المبنى يستقبل فيه الضيوف، ويتبادل الرجال الأحاديث، وينظرون في الأعمال. ولا يمتاز قصر ابن رشيد عن سواه إلا أنه أكبر حجماً، وأوسع مساحة، ليؤوي عائلته وأتباعه وضيوفه... وينيخ المسافرون إبلهم في ساحة واسعة تسمّى المناخ تحيط بها مبان صغيرة، وغرف ينام فيها بعض الغرباء، كما ينامون في الجامع. ويفترش بعضهم أرض الساحة قرب إبلهم. وتلتصق بجدران المباني المحيطة بالساحة مقاعد من الطين يجلس الأمير على أحدها مرّة في الصباح، ومرّة في المساء. وفي البلدة ساحات كثيرة مكشوفة، وأسواق تباع فيها اللحوم والخضروات

---

(١) والين، «قصة رحلة من القاهرة إلى المدينة ومكة سنة ١٨٤٥ م»، مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، العدد ٢٤، ١٨٥٤ م، ص ص ١٦٣ و ٢٠١ - ٢٠٢.

(٢) جوارماني، شمال نجد: رحلة من القدس إلى عنيزة في القصيم، لندن، ١٩٣٨ م، ص ٩٠.

والمؤن. وأسواقها عريضة مريحة مع أنها غير معبّدة. وفي سوق لُبْدة عدد من الحوانيت المكشوفة، أصحابها بصفة عامة تجار متجولون يأتون من العراق والمدينة والقصيم»[1].

ولقد كانت مصادر دخل إمارة جبل شمّر في تلك الفترة متعددة الجوانب. فمنها ما كان من غنائم الغزوات، ومنها ما كان من الزكوات، ومنها ما كان من المبالغ التي تفرض على القوافل المارة بالمنطقة للحج أو التجارة؛ وذلك مقابل مرافقتها وحمايتها وتسهيل أمورها. ومن الثابت تاريخياً أن غزوات كلٍ من عبد الله بن رشيد وابنه طلال ـ مثلاً ـ كان أغلبها يكلل بالنصر. وهذا يعني الحصول على غنائم لا بأس بها. أما الزكوات فمقادير أنصبتها الشرعية معروفة سواء في ميدان الثروة الحيوانية أو مجال الثروة الزراعية. وكانت منطقة الجبل، وما تبعها من المناطق، غنيّة بالثروة الحيوانية والزراعية. وهذا يعني، أيضاً أن دخل الأميرين من الزكاة كان جيداً. أما المبالغ المفروضة على القوافل فإن من المرجح أنها لم تكن تقلّ عن ربع دخلهما العام.

وكانت جوانب إنفاق الإمارة متعددة. فمنها ما كان على شؤون الأمير الخاصة به وبأسرته وحرسه وخيله. ومنها ما كان على الضيافة والهدايا.

وقد ذكر والين أن ضيوف الأمير عبد الله كانوا حوالى ٢٠٠ ضيف من مختلف مناطق بلاد العرب[2]. أما الهدايا فمنها ما كان

---

(١) والين، المصدر السابق، ص ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٨٠.

على هيئة خيل وإبل إلى الرؤساء، ومنها ما كان مبالغ نقدية، أو كسوة، أو مؤناً متنوعة. على أن مصادر الدخل كانت أكبر من وجوه الإنفاق بصفة عامة. لذلك كان الأمراء في حالة مالية جيدة، وإن كان اقتناؤهم للمال وسيلة لإنفاقه على ما يرون أنه يحقق لهم المجد، وينزلهم المكانة الرفيعة. ومن هنا كان الأمير عبد الله يفتخر بقوله:

كم خيِّرٍ عانٍ لنا شاكي الجوع حاديه من لوعات الأيام حادِ
لو ما نعرفه راح منا بمنفوع من راس مال نجمعه للنفادِ[1]

وإذا كانت تلك هي الأوضاع الاقتصادية لأسرة الإمارة في حائل فإن الأوضاع الاقتصادية للسكان، بصفة عامة، لم تكن بالصورة القاتمة التي تبدو من ثنايا كلمات الأمير عبد الله نفسه:

لي ديرة ما به حذا البرد والجوع لولاي عفّيته بضرب الهنادي

ذلك أن منطقة جبل شمّر - وحائل قاعدتها - كانت ذات إمكانات اقتصادية جيدة، كما ذكر سابقاً، وكما مرّ من حديث الموسويّ عن إمكانات حائل الزراعية بالذات. وقد قال مؤلف **لمع الشهاب**، الذي كتب كتابه سنة ١٢٣٣ هـ عن منطقة الجبل: «وأرض طيء كثيرة الخير من المزارع والفواكه. لذلك تسمّى عند أهل نجد

(١) فهد المارك، من شيم العرب، الطبعة الثانية، بيروت، ١٣٨٦ هـ، جـ١، ص ١٩٢.

قاطبة شام نجد...»[1] وقال عنها والين: إن سكانها يزرعون النخيل والذرة والدخن والشعير، كما يزرعون أنواعاً من الفواكه والخضروات[2]. وبلاد بهذه الإمكانات قد يوجد فيها البرد، لكن لا يمكن أن لا يوجد فيها إلا البرد والجوع.

ولقد سبقت الإشارة إلى تقبّل زعامة منطقة جبل شمّر لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وإلى ما بذلته من جهود في سبيل نشر هذه الدعوة، ومدّ نفوذ أنصارها، والدفاع عن دولتها خلال الثلث الأول من القرن الثالث عشر الهجري. ولا شك أن تلك الدعوة المباركة قد تركت أثرها الطيّب في نفوس أهل المنطقة كما هي الحال في المناطق الأخرى التي انضمت إلى دولتها طائعة مختارة. فقد تمسكوا بما نادت به من أمور ذات صلة بالعقيدة كإخلاص العبادة لله وحده، ونبذ الخرافات الشركية، ورفض التوسل المحرّم بالأموات. وقد التزموا بما دعت إليه من أمور ذات علاقة بتطبيق الشريعة كالتحاكم إلى الشرع المطهر، وصلاة الجماعة في المساجد، ومعاقبة من لا يحضرها. وقد ذكر والين أن النساء كنّ يصلين صلاة الجمعة خلف الرجال في المسجد بينما يصلين الصلوات الخمس في بيوتهن[3]. ومن الواضح أن الهدف الأكبر من صلاتهن في الجامع يوم الجمعة سماع الخطبة وما تشتمل عليه من موعظة وإرشاد؛ خاصة في زمن لم تكن هناك وسائل أخرى لإيصال الموعظة إليهن.

---

(١) حسن الريكي، المصدر السابق، ص ١٤٢.

(٢) والين، المصدر السابق، ص ١٧٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٨٤.

على أن سكان حائل كانوا أكثر تسامحاً في بعض الأمور الفرعية من سكان العارض مثلاً. من ذلك ما ذكرته المصادر من تسامحهم في لبس الرجال للحرير، وشيوع تدخين التبغ، رغم أن المدخن كان غير محبوب بوجه عام، وكان لا يؤم الناس في الصلاة، أو يؤذن فيهم[1]. وربما كان من أسباب هذا التسامح أن بلدة حائل كانت ملتقى لقوافل التجارة والحج القادمة من بلاد ما بين النهرين وفارس مما ترك أثره لدى السكان المحليين.

وإذا كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد تركت أثرها الطيب في المجال الديني فإنها، بدون شك، قد تركت أثراً طيباً، أيضاً، في المجال العلمي الديني. على أن مسيرة التعليم لم تكن، فيما يبدو، سريعة الخطى في تلك الفترة. فقد مرّ على دخول منطقة جبل شمّر في ظل الدولة السعودية أكثر من ستين عاماً وقضاتها ـ مثلاً ـ يأتون إليها من مناطق نجدية أخرى[2]. وقد أشار والين إلى ندرة المتعلمين في حائل باستثناء القاضي، الذي كان علمه محصوراً في الفقه الحنبلي ـ وكان هذا واقع كثير من علماء نجد حينذاك ـ وباستثناء إمام مسجد الجامع الذي كان يحفظ القرآن، ويعرف بعض الأحاديث، لكنه قليل المعرفة بأدب اللغة وقواعدها. على أن ذلك الرحالة أشار، من ناحية أخرى، إلى وجود عدد ممن يعرفون القراءة

---

(١) المصدر نفسه، ص ٨٣.

(٢) ابن بشر، المصدر السابق، جـ ١، ص ص ٢٣٨، ٢٨٢ و جـ ٢ ص ص ٧٨، ٨٤.

والكتابة[1]. ولا شك أن الرغبة في التعلّم، والحرص على نشر العلم، قد ازدادا مع مرور الأيام. ولم يعد الاهتمام بالتعلّم والتعليم مقصوراً على أناس ذوي علاقة مباشرة بوظائف دينية كالقضاة وأئمة المساجد؛ بل تجاوز هؤلاء وأولئك إلى آخرين لم تكن لهم مثل تلك العلاقة. فرجل كعبيد بن رشيد ـ مثلاً ـ عاش محارباً، وفجّر وجدانه شاعراً، لا يتوقع أن يكون لديه اهتمام كبير بالكتب الدينية ونشر العلم. لكننا نجده يوقف كتباً على طلبة العلم في حائل[2]. وقد سلك مسلكه عدد من أفراد آل رشيد فيما بعد رجالاً ونساء.

أما إذا تجاوز المرء مجال التعليم الديني وقضية القراءة والكتابة إلى مجال الشعر فحدِّث عن إبداع شعراء جبل شمّر في تلك الفترة ولا حرج. ولو لم تنجب حائل من الشعراء المبدعين إلا عبد الله بن رشيد وأخاه عبيداً لكفى أهلها فخراً. وإذا كنت قد بدأت هذه المحاضرة بكلمات شاعرية منثورة لواحد من خارج منطقة جبل شمّر فلعله من المستحسن أن اختتم المحاضرة بكلمات شعرية تعبّر عن مقدرة قائلها، وهو عبيد بن رشيد، على فنون القول الجميلة. وقد قال هذه الأبيات عندما طلب منه أحد قادة الأتراك أن يبيع له فرسه:

---

(١) والين المصدر السابق، ص ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٢) عبد الله العثيمين، نشأة إمارة آل رشيد، ص ٨٣.

يا بيه أنا لكروش ما اعطي ولا ابيع	قبلك طلبها فيصل وابن هادي[1]
يا بيه ما يرهم على مثله البيع	ولا يجي مثله بقوده مهادي[2]
ما جمَّع أصله بالقراطيس تجميع	أصله يعرفونه جميع البوادي
باغٍ إلى ما لقّموها المصاريع	وصاح الصياح وثار عج الطراد[3]
انهج عليها وتعدي بالتراتيع	مثل الفحل لىٰ صال وقت الهداد[4]
وأصلّها لعيون بيضٍ مفاريع	فوق الحنايا والسبايا غوادي[5]
هذاك بيعه كان ما تفهم البيع	ليا منّهن جِلْبَنْ بسوق المزاد[6]

---

(١) كروش: اسم فرس عبيد المشهورة. فيصل: الإمام فيصل. ابن هادي: محمد بن هادي زعيم قبيلة قحطان الذي كان من أعظم الرجال. ومراد الشاعر أنه إذا كان قد اعتذر عن عدم بيعها لهذين الرجلين الكريمين العظيمين فإنه لن يبيعها لأحد.

(٢) يرهم: يجوز.

(٣) لقّموها المصاريع: وضعوا في الخيل الأعنة استعداداً للمعركة.

(٤) أنهج عليها: أركبها بسرعة. ومعنى بقية البيت أن الفرس تنطلق به كأنها الفحل زمن اتجاهه واندفاعه لأنثاه لا يرده شيء.

(٥) أصلّها: اندفع بها نحو العدو. بيضٍ: نساء. مفاريع: إشارة إلى ما اعتادت بنات من القبيلة عند الحرب من كشف وجوههن وتحريضهن للمقاتلين.

(٦) انظر القصيدة كاملة في مجموعة محمد سعيد كمال، **الأزهار النادية من أشعار البادية**، الطائف، جـ٣، ص ص ٧١ ـ ٧٢.

وقفة مع مؤلفي الحرس الوطني

وقفة مع مؤلفي الحرس الوطني

أصبح الحرس الوطني في السنوات الأخيرة من المؤسسات الحضارية التي تسهم إسهاماً جيداً في رقي هذه البلاد.

ومن بين جوانب نشاطه ما يقوم به من إصدار كتب ونشرات ثقافية. ومما صدر عنه في سنة ١٤٠٥ هـ كتاب عنوانه «**الحرس الوطني: الأصالة والمسيرة**» تأليف الإخوة الكرام الدكتور عبد الرحمن السبيت ومحمد محمود التوبة والدكتور طه الفراء.

ويتكون الكتاب من ٢٢٣ صفحة قامت بطباعتها مطابع الحرس الوطني طباعة فاخرة وأخرجت الصور الواردة فيها إخراجاً فنياً رائعاً.

وفي بداية الكتاب تصدير بقلم صاحب السمو الملكي الأمير بدر بن عبد العزيز ثم مقدمة للمؤلفين تليها أبواب الكتاب الستة.

والواقع أني لم أسعد بعد بمعرفة الأخ محمد محمود التوبة بمقدار معرفتي بالأخوين الزميلين الكريمين الدكتور عبد الرحمن السبيت والدكتور طه الفراء، اللذين أكن لهما أصفى مشاعر الود والتقدير.

على أن مما تمليه أواصر المحبة للمؤلفين الأعزاء ويوحي به الشعور المخلص تجاه المؤسسة الحضارية التي قامت بإصدار المؤلف أن أبدي بعض الملاحظات على أمور كان ينبغي تلافيها

ليخرج الكتاب بصورة أفضل من الصورة التي خرج بها.

والقارىء للكتاب يلاحظ أمرين: أولهما أن الأبواب الثلاثة الأخيرة منه والتي تتحدث عن المجاهدين وبداية الحرس الوطني ثم انطلاقته لم يتخللها ما تخلل الأبواب الثلاثة الأولى من ضعف.

وثانيهما أن المؤلفين الكرام اعتمدوا في تدوين ما دونوه من معلومات في الأبواب الثلاثة الأولى على مراجع ثانوية وأهملوا المصادر الأساسية والدراسات المتخصصة الجادة عن تاريخ البلاد. وهذا ما أوقعهم في كثير من الأخطاء؛ خاصة في الباب الثاني، كما سيتضح للقارىء الكريم.

١ - قال المؤلفون بعد أن تحدثوا عن سقوط بغداد على أيدي المغول (ص ٤١):

«ثم زحف تيمورلنك في القرن التاسع الهجري، فأعاد ما عمل أسلافه وذبح وخرب وأحرق وأدخل العالم الإسلامي في مصائب زادت من ضعفه وهزاله وتوالت عليه الكوارث. ولم يتوقف هذا الطوفان المغولي إلا بعد أن استطاع المظفر قطز والظاهر بيبرس أن يوقعا هزيمة تاريخية بالمغول في معركة عين جالوت».

وكلامهم، هنا، يفيد بأن معركة عين جالوت حدثت بعد زحف تيمورلنك. والصحيح أنها حدثت سنة ٦٥٨ هـ[1].

---

(١) شافع بن علي بن عباس الكاتب، **حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية**. تحقيق الدكتور عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٣٩٦ هـ، المقدمة ص ٩.

٢ - رجع المؤلفون في حديثهم عن الإمام ابن تيمية وما كان ينادي به إلى كتاب علي المحافظة، **الاتجاهات الفكرية عند العرب**، وأوردوا نصاً من كلام ابن تيمية نقلاً عن هذا الكتاب (ص ٤٨).

وكان الأولى بهم أن يرجعوا إلى كتب ابن تيمية ذاتها؛ خاصة أنها من أكثر الكتب رواجاً في هذه البلاد، أو يرجعوا إلى الكتب الجادة التي خصصت لدراسة حياة ذلك الإمام وأفكاره؛ مثل كتاب المرحوم أبي زهرة: **الإمام ابن تيمية: حياته وعصره.. آراؤه وفقهه**.

٣ - أورد المؤلفون (ص ٤٩) كلاماً عن ابن تيمية نصه: «وابن تيمية لم يكن على ما عليه الجمهور من علماء الدين هذه الأيام. بل كان مؤمناً حقاً بالله عاملاً بشريعته متوكلاً حق التوكل عليه..».

ولا شك أن ابن تيمية كان متصفاً بالصفات الجليلة التي وردت في النص. لكن الجزء الأول من النص يفهم القارىء بأن الجمهور من علماء الدين هذه الأيام لا يتصفون بالصفات المذكورة. وهذا غير مسلَّم به.

٤ - وفي مستهل كلام المؤلفين عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب استشهدوا (ص ٥١) على عظمتها بكلام قاله هاملتون جب نقلاً عن محمد الضناوي في كتابه **مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية**. وكأن العلماء المحليين المقربين من ذلك الشيخ والفاهمين لدعوته لم يتحدثوا عنها!

٥ - قال المؤلفون (ص ٥٢) إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب «ولد وعاش والجزيرة العربية جزء من دولة الخلافة العثمانية». ومن المعلوم:

أ - أن الدولة العثمانية لم تدخل جهات عمان وحضرموت

تحت نفوذها إطلاقاً. وهذا ما توضحه الخريطة التي وضعها المؤلفون أنفسهم للمناطق التي امتد إليها النفوذ العثماني في الصفحة ذاتها. وعمان وحضرموت من الجزيرة العربية.

ب ـ أن منطقة نجد ـ وهي مسقط رأس الشيخ محمد ـ لم تخضع خضوعاً مباشراً للحكم العثماني قبل ظهور الشيخ ولا في أثناء حياته. وهذا واضح، أيضاً، من الخريطة التي وضعها المؤلفون أنفسهم. ونجد قلب الجزيرة العربية.

ج ـ أن العثمانيين اضطروا إلى الانسحاب من اليمن أمام ثورة الأئمة المحليين قبل ولادة الشيخ بأكثر من نصف قرن. ثم اضطروا إلى الانسحاب من منطقة الأحساء عام ١٠٨٠ هـ؛ أي قبل مولد الشيخ بخمسة وثلاثين عاماً.

وبذلك يتضح أنه لم يبق من مناطق الجزيرة العربية عند ولادة الشيخ محمد وفي أثناء حياته تحت الحكم العثماني إلا الحجاز.

٦ ـ قال المؤلفون عن الشيخ محمد (ص ٥٦):

«نشأ في العيينة، وتلقى دروسه الأولى من والده، ثم من علماء الدين على مذهب الإمام أحمد بن حنبل فدرس علوم العربية من النحو والصرف وفقه اللغة وعلوم البلاغة. ودرس الحديث الشريف، فقرأ الصحيحين للبخاري ومسلم ثم مسند أحمد. وتلقى الفقه والتفسير. ثم يمم شطر البصرة، وأخذ من قاضي البصرة علوم الهيئة (أي جغرافية الفلك)، والرياضة والهندسة. وقرأ تحرير اقليدس في أصول الهندسة والعدد والمجسطي في الأوضاع الفلكية والأرضية

وغيره من علوم الهيئة. ثم سافر الشيخ الى بغداد، فدرس علم الكلام على شيخ الشافعية، ورحل إلى كردستان وهمذان وأصفهان يطلب العلم ويعطيه فعرف بها الحكمة الإشراقية وحكمة المشائين ومسالك الصوفية».

وانتهت هذه الفقرة دون أن يعطي المؤلفون القارىء مصدراً للمعلومات التي أوردوها فيها. ثم تابعوا الحديث عن الشيخ محمد قائلين:

«وبعدها اعتزل الناس وتنسك. ثم قصد بلاد أرمينيا والأناضول وانحدر إلى حلب ومر بدمشق والخليل وبيت المقدس. ويقال إنه سكن الأزهر في القاهرة. ثم خرج للحج من السويس إلى ينبع. وسار إلى المدينة. ثم مضى إلى مكة حاجاً وذاع فضله وعلمه. وبعد ذلك قصد نجداً إلى العيينة بعد ارتحال يقرب من عشرين عاماً».

وقد عزا المؤلفون المعلومات الواردة في هذه الفقرة إلى عبد العزيز سيد الأهل في كتابه «**داعية التوحيد محمد بن عبد الوهاب**».

والمؤلفون المقربون من الشيخ محمد العارفون بتفاصيل حياته؛ مثل حفيده الشيخ عبد الرحمن بن حسن، والمؤرخ حسين بن غنام، والمؤرخ عثمان بن بشر، لا يذكرون أن الشيخ محمداً سافر في

---

(١) عثمان بن بشر، **عنوان المجد في تاريخ نجد** طبعة وزارة المعارف الثانية، ١٣٩١ هـ جـ٢ ص ص ٢١١ ـ ٢٢٦.

(٢) حسين بن غنام. **روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام**، طبعة عبد المحسن أبا بطين، القاهرة، ١٣٦٨ هـ، جـ١، ص ص ٢٦ ـ ٢٩؛ ابن بشر، المصدر السابق، جـ١، ص ص ٢٠ ـ ٢١؛ عبد

رحلاته العلمية إلا إلى ثلاثة أماكن هي الحجاز والأحساء والبصرة. والدارس لحياة الشيخ محمد ولكتاباته يتضح له أن ما ذكره المقربون إليه عن أسفاره وعن العلوم التي درسها هو الصحيح.

وكثير ممن كتبوا عن الشيخ، وهم لا يعرفون تاريخ هذه البلاد معرفة كافية، اعتمدوا على مؤلف **لمع الشهاب**. فهو أول من أورد ما ذكره مؤلفو **الحرس الوطني** من زيارة الشيخ لتلك الأماكن ودراسته لتلك العلوم. وقد ذكر ذلك المؤلف أن الشيخ بدأ رحلاته وعمره سبع وثلاثون سنة. والمتتبع لطول المدة التي ذكر أن الشيخ قضاها في كل مكان يجد أنه قضى في جميع رحلاته حوالى خمس وعشرين سنة. ومعلوم أن الشيخ ولد سنة ١١١٥هـ. وحسب رواية مؤلف لمع الشهاب بدأ رحلاته سنة ١١٥٢ هـ، وعاد إلى نجد سنه ١١٧٧ هـ. بل إن ذلك المؤلف ينص على أن آخر مرحلة من مراحل أسفار الشيخ كانت مكة التي وصلها في عهد الشريف سرور[١]. وولاية الشريف سرور على مكة لم تبدأ إلا سنة ١١٨٦ هـ[٢].

ومن الثابت أن الشيخ محمداً عاد إلى نجد من أسفاره خارجها قبل سنة ١١٥٢ هـ، وهي السنة التي يجعلها مؤلف **لمع الشهاب** بداية لأسفاره[٣]. وقد أبان عدد من المهتمين بتاريخ هذه البلاد بطلان

الرحمٰن بن حسن، **الدرر السنية في الأجوبة النجدية**، جمع عبد الرحمن بن قاسم، الطبعة الثانية. بيروت، ١٣٨٥ هـ، ج ٩، ص ص ٢١٥ - ٢١٦.

(١) **لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب**، تحقيق وتعليق عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، دارة الملك عبد العزيز، ١٣٩٤ هـ، ص ص ١٥ - ١٦.

(٢) أحمد السباعي، تاريخ مكة، الطبعة الثالثة، دار قريش بمكة، ١٣٨٧ هـ، جـ ٢، ص ٨٥.

(٣) **لمع الشهاب**، ص ص ٦٥.

ما ورد في **لمــع الشهــاب** عن أسفار الشيخ والعلوم التي زعم أنه درسهـا. وفي طليعـة هؤلاء الشيــخ حمـد الجـاسـر[1]، والشيــخ عبد الرحمن بن عبـد اللطيف آل الشيخ[2]. وكنت ممن وضـح هذه المسألة في كتاب **الشيخ محمد بن عبد الوهاب: حياته وفكره**[3].

٧ ـ قال المؤلفون (ص ٥٨):

«ومن أجل توضيح فكرة التوحيد في العقيدة مجردة من كـل شريك وفكرة التوحيد في التشريع فلا مصدر إلا الكتاب والسنة كتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب العديد من الكتب والرسائل منها **كتاب التوحيد فيما يجب من حق الله على العبيد**.

وصحة عنوان كتاب الشيخ: **كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد**. ولا شك أن الشيخ محمداً كان يرى أن الكتاب والسنة هما المصدران الأساسيان للشريعة. لكنه لم يكن يرفض غيـرهما ـ كما يفهم من كلام المؤلفين ـ بل كان يرى الإجماع مصدرا ملزماً من مصادر الشريعة. ومما قاله في هذا الصدد: «مـا أجمع عليـه أهل العلم فهو الحق». [4]

٨ ـ قال المؤلفون (ص ٥٨):

«بدأ الشيخ دعوته في حريملاء بحماسة تارة وبرفق تارة أخرى. وركـز على بطلان كـل عبادة لغيـر الله. ثم انتقـل إلى الـدرعيـة،

---

(١) **مجلة العرب**، المجلد العاشر، سنة ١٣٩٠ هـ، ص ٩٤٤.

(٢) انظر تهميشه على **لمع الشهاب**، ص ص ٥ ـ ١٦.

(٣) نشر دار العلوم بالرياض، ١٣٩٩ هـ، ص ص ٢٩ ـ ٣٩.

(٤) ابن غنام، المصدر السابق جـ ١ ص ٤٣.

واستخدم كافة الوسائل الإعلامية من الكلام والوعظ والتأليف. ووجه الرسائل إلى علماء المسلمين، ودعا إلى الاجتماع والتوحيد. فجاءته جماعات من أهل نجد وبايعته على النصرة والمؤازرة.

ولكن ابن عم له جادله وجرحه بسيفه، فرحل إلى العيينة واتفق مع حاكمها عثمان بن حمد بن معمر على إقامة الدين علماً وعملاً وتحطيم القباب القائمة على الأضرحة ونبذ التفرقة ورفض الاحتكام إلى العرف والعادات والرجوع إلى الشريعة. ولكن دعوته جوبهت بالتحريض عليها، فخرج من العيينة إلى الدرعية ثانية. وكان أميرها آنئذ هو محمد بن سعود».

ولم يشر المؤلفون إلى المرجع الذي اعتمدوا عليه. والواقع أن الشيخ محمداً بدأ دعوته في حريملاء بعد عودته من أسفاره خارج نجد. ونجحت هذه الدعوة نجاحاً لا بأس به من حيث انتشارها في المنطقة. لكن الظروف غير الملائمة لنجاح الدعوة نجاحاً كبيراً في حريملاء جعلت الشيخ ينتقل منها إلى العيينة؛ خاصة بعد أن قبل أمير البلدة الأخيرة عثمان بن معمر دعوته [1]. وطبق الشيخ كثيراً مما كان يدعو إليه. فقام هو وأنصاره بإزالة كل الأشجار التي كان يتوسل بها الجهال، وهدم القبة المقامة في الجبيلة على قبر يقال إنه قبر زيد بن الخطاب رضي الله عنه. لكن ضغط حاكم الأحساء على عثمان بن معمر جعله يتخلى عن مناصرة الشيخ، فانتقل إلى الدرعية حيث أيده قادتها وانتصرت دعوته بتأييدهم كما امتد حكمهم بسبب ذلك التأييد. وبذلك يتبين:

---

(١) المصدر نفسه، جـ١، ص ٣٠.

أ ـ أن الشيخ لم ينتقل من حريملاء إلى الدرعية وإنما انتقل إلى العيينة.

ب ـ أن الشيخ لم يقدم إلى الدرعية إلا مرة واحدة وذلك حين انتقل إليها من العيينة.

ج ـ ما ورد من أن ابن عم الشيخ جادله وجرحه بالسيف من جملة ما ذكره مؤلف **لمع الشهاب** من أمور لا أساس لها من الصحة.

د ـ لم يرد في المصادر الموثوقة وجود قباب مقامة على قبور سوى قبّة واحدة في الجبيلة مقامة على قبر يقال إنه قبر زيد بن الخطاب رضي الله عنه. ولم تذكر تلك المصادر أن ابن معمر كان يحتكم إلى العرف والعادات، كما يفهم من كلام المؤلفين. بل المعروف أنه كان في العيينة قضاة يحكمون بين الناس وفق المذهب الحنبلي لا وفق العادات والعرف. وكان من بين هؤلاء أبو الشيخ محمد وجده سليمان بن علي.

٩ ـ قال المؤلفون (ص ٦١):

«لقد بادر محمد بن سعود وابنه عبد العزيز بزيارة الشيخ محمد بن عبد الوهاب حالما وصل إلى الدرعية. وكانت القلوب جنوداً مجندة تآلفت فتعارفت وما تناكرت ولا اختلفت. واتفق الرجلان، وسجل التاريخ في صفحات الخلود سنة ١١٥٠ هـ ١٧٣٧ م منعطفاً جديداً في حياة الإصلاح الإسلامي عامة وفي حياة الجزيرة العربية خاصة».

والذي ذكره ابن غنام أن اللذين ذهبا مع محمد بن سعود إلى الشيخ هما أخواه تنيّان ومشاري لا ابنه عبد العزيز[1] ومن الثابت أن اتفاق محمد بن سعود مع محمد بن عبد الوهاب كان سنة ١١٥٧ هـ. ولو لم يضع المؤلفون ما يقابل سنة ١١٥٠ هـ من التاريخ الميلادي لرجح القارىء أن ذلك كان خطأً مطبعياً. ذلك أنه من المستغرب أن يخفى على من تصدى لكتابة تاريخ الشيخ محمد والدولة السعودية التاريخ الذي اتفق فيه ذلك الشيخ مع مؤسس تلك الدولة.

١٠ ـ قال المؤلفون (ص ٦٢):

«إن نشوء دولة الإصلاح على يدي هذين المصلحين الكبيرين عجيبة من عجائب فعل العقيدة الصحيحة في النفوس واجتماعها على الحق. وهذا ما يتحدى أي تفسير مادي للتاريخ. فقد كانت الإمكانات المادية ضئيلة وشحيحة. وليس في نجد إلا شظف العيش وغلظة البداوة والفتن والغارات والاقتتال على الرياسة والسلطان بين القبائل وأهل الجاه والعصبية والوجوه والأعيان».

وليس غريباً أن يصف المؤلفون أهل نجد قبل قيام الدولة السعودية بما وصفوهم به من صفات تتضح فيها المبالغة. فقد فعل مثل ذلك كثير من المحدثين الذين لم يتحروا الدقة العلمية في كتاباتهم. لكن من الواضح أن مفهوم الإخوة المؤلفين للتفسير المادي للتاريخ هو أن الدول لا تقوم إلا على إمكانات مادية كبيرة. والتفسير

(١) المصدر نفسه، جـ ٢، ص ٣.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٢، ص ٤.

المادي للتاريخ لا يعني ذلك، وإنما يعني أن المسير لأحداث التاريخ والدافع لمن قاموا بها عامل اقتصادي مادي بحت.

١١ - وضع المؤلفون (ص٦٢): خريطة توضح مدى اتساع حكم الأمير محمد بن سعود. وقد بينوا في آخر الكتاب أن الخرائط الموجودة فيه من دارة الملك عبد العزيز. والملاحظ على هذه الخريطة (١) أنها أدخلت الرياض والزلفي تحت حكم ذلك الأمير. ومن المعروف أنه توفي سنة ١١٧٩ هـ، وأن الرياض لم تدخل تحت الحكم السعودي تماماً إلا سنة ١١٨٧ هـ، وأن الزلفي لم يتم دخولها إلا سنة ١١٩٠ [(١)]

١٢ - قال المؤلفون (ص ٦٣): «إن عبد العزيز بن محمد بن سعود وصل إلى حدود كربلاء في العراق والبحر الأحمر بعد أن استولى على الحجاز. وظل في منازعات مع الولاة العثمانيين في بغداد حتى اغتيل في الدرعية عام ١٢١٨ هـ - ١٨٠٣ م».

لكنهم وضعوا في الصفحة ذاتها خريطة توضح اتساع حكمه. ويلاحظ أن هذه الخريطة لم تدخل الحجاز ولا الجوف ولا حفر الباطن ولا حرض تحت حكمه. فكيف يحدث هذا التناقض الواضح بين الكلام عن اتساع حكمه وبين الخريطة التي وضعت لتوضيح ذلك الاتساع في صفحة واحدة؟

والحقيقة أن عبد العزيز بن محمد أدخل المنطقتين الشرقية والشمالية مما أصبح الآن يسمى المملكة العربية السعودية تحت

---

(١) المصدر نفسه، جـ٢، ص ص ٨٣ - ٨٨ و ٩٦؛ ابن بشر، المصدر السابق، جـ١، ص ص ٧٥ - ٨، و ٨١.

حكمه. وقد أغارت جيوشه على العراق، ودخلت كربلاء. لكنه لم يدخل أراضي عراقية تحت حكمه بصفة عامة. أما وصول حكمه إلى البحر الأحمر بعد الاستيلاء على الحجاز كما ذكر المؤلفون فأمر يحتاج إلى تفصيل. لقد دخل سعود بن عبد العزيز بقواته مكة المكرمة في مستهل عام ١٢١٨ هـ، وذلك في عهد أبيه عبد العزيز، بعد أن انسحب منها الشريف غالب إلى جدة. لكن ما أن رجع سعود من مكة إلى الدرعية حتى عاد الشريف غالب إلى مكة واستولى على مقاليد الأمور فيها. ومن المعروف أن المدينة المنورة وجدة لم تدخلا تحت الحكم السعودي في عهد عبد العزيز بن محمد بأية طريقة كانت. بل دخلتا تحت ذلك الحكم في عهد سعود بن عبد العزيز بعد عامين من وفاة أبيه.

على أن الحكم السعودي وصل إلى البحر الأحمر في عهد الإمام عبد العزيز بن محمد عن طريق عسير، التي دخلت تحت حكم ذلك الإمام.

١٣ ـ قال المؤلفون (ص ٦٤):

«ثم خلفه (أي خلف عبد العزيز) ابنه سعود الملقب بالكبير. وعلى يديه بلغت الدولة السعودية أقصى اتساع لها. فقد فتح الحجاز وعمان وبعض مدن العراق وطرق أبواب الشام ووصل جنوب دمشق وبعض بلاد اليمن، ودحر جيوش محمد علي والي مصر في كثير من المواجهات».

ويلاحظ على ذلك عدة أمور:

أ ـ ذكر المؤلفون أن سعوداً فتح الحجاز. وهذا صحيح. ذلك أنه استكمل فتح تلك المنطقة. لكن كان المؤلفون قد

ذكروا (ص ٦٣) أن أباه عبد العزيز قد استولى على المنطقة المذكورة وقد تقدم إيضاح هذه المسألة. على أن المراد هنا إيضاح التناقض بين ما قالوه في صفحة وما قالوه في الصفحة التي تليها.

ب - إذا كان المراد بالفتح أن المناطق المفتوحة أصبحت جزءاً من الدولة فإن ما ذكره المؤلفون من فتح سعود لعمان وبعض مدن العراق غير دقيق. ذلك أن مدينة مسقط، قاعدة عمان، لم تصبح جزءاً من الدولة السعودية إطلاقاً. ولم تدخل أية مدينة عراقية تحت الحكم السعودي.

جـ - ما ذكره المؤلفون من دحر سعود لجيوش محمد علي يحتاج إلى دقة. صحيح أن قوات الإمام هزمت جيوش حاكم مصر في وادي الصفراء، وتصدت لها في مواقع أخرى. لكن الحجاز بمدنها الكبرى قد استولى عليها محمد علي.

ولعل مما يلفت النظر أن الخريطة (رقم ٣) التي وضعها المؤلفون لتوضيح مدى اتساع حكم الإمام سعود، والموجودة في الصفحة التي تحدثوا فيها عن اتساع حكمه، لم تدخل تحت ذلك الحكم جزءاً كبيراً من شمال الجزيرة العربية بما في ذلك الجوف. ومعلوم أن الجوف دخلت تحت الحكم السعودي في عهد أبيه عبد العزيز[١]. وكانت إمارتها في عهد سعود مربوطة بأمير جبل شمر محمد بن عبد المحسن بن علي[٢].

---

(١) ابن بشر، المصدر السابق، جـ ١، ص ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٢) المصدر نفسه، جـ ١، ص ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

١٤ ـ قال المؤلفون (ص ٦٤):

«وخلفه (أي خلف سعوداً) ابنه عبد الله بن سعود. فسار سيرة أبيه. ولكن دولة الخلافة العثمانية عزمت على استئصال تلك الحركة الحية المتوثبة، وقاتلتها بجيوش محمد علي باشا والي مصر الذي ارسل ابنه إبراهيم إلى نجد، فاستولى على الدرعية وقبض على عبد الله وأرسله إلى محمد علي في مصر. وهذا بعث به إلى السلطان العثماني في استنبول فقتله عام ١٢٣٣ هـ ـ ١٨١٨ م».

وكلام المؤلفين، هنا، يفيد بأن دولة الخلافة العثمانية لم تعزم على استئصال الدولة السعودية إلا في عهد الإمام عبد الله بن سعود. وهذا غير صحيح. فقد بدأ العثمانيون بمحاربة الدولة السعودية في عهد الإمام عبد العزيز عن طريق واليهم على العراق. ثم عهدت إلى محمد علي بمحاربة تلك الدولة في عهد الإمام سعود. وكانت حروب حاكم مصر لعبد الله بن سعود امتداداً لحروبه ضد أبيه سعود.

والثابت أن مقتل الإمام عبد الله بن سعود في استنبول كان سنة ١٢٣٤ هـ لا سنة ١٢٣٣ هـ[1]. لكن هذه المسألة بسيطة جداً إذا ما قورنت بالخطأ الكبير المتمثل في الخريطة التي وضعها المؤلفون (ص ٦٥) لتوضيح مدى اتساع حكم الإمام عبد الله. فالملاحظ أن الخريطة (رقم ٤) قد جعلت حدود حكمه من الجهة الشمالية أقرب إلى الجوف ورفحا من الحدود التي وضعت لتوضيح حكم أبيه سعود، الذي قال المؤلفون: إن الدولة السعودية بلغت أقصى اتساع

---

(١) منير العجلاني، الدولة السعودية الأولى: عهد عبد الله بن سعود، دون ذكر لمكان الطباعة وتاريخها، ص ١٤٢.

لها في عهده. بل إن الخريطة الموضوعة لتوضيح مدى حكم عبد الله قد أدخلت كل غربي الجزيرة العربيـة تحت حكمه. بـل وأدخلت صنعاء تحت ذلك الحكم. ومعلوم أن صنعاء لم تدخل تحت الحكم السعودي.

ومعلوم أيضاً أن كل غربي الجزيرة العربية بما في ذلك الحجاز وعسير كانت خارج حكم الإمام عبد الله.

١٥ ـ عند حديث المؤلفين عن نهاية الدولة السعودية الأولى قالوا (ص ٦٥):

«لقد كانت لحـظات مأسـاوية في التـاريخ الإسـلامي العربي الحـديث أن تمنى تلك الحـركـة بـالاغتيـال، وتنكسر تحت وطـأة التحديات الداخلية والخارجية».

فما هي التحديات الداخلية في نظر المؤلفين وهم يتكلمون عن نهاية الدولة السعودية الأولى؟

قالوا (ص ٦٦):

«فعلى الصعيد الداخلي كانت مناهضة بعض العلماء والأمراء للدعوة والدولة مريرة وطويلة بـلا مبرر من دين أو مصلحـة عامـة. وكانت الموارد الاقتصادية أشح وأنزر من أن تسمح بهذه الحـروب والمنازعات».

ومن المعروف أن مناهضة بعض العلماء والأمراء على الصعيد المحلي لدعوة الشيخ والدولة السعودية كانت قبل بلوغ تلك الدولة أوج قـوتها، وأنهـا قد انتصـرت بمواردهـا وبـإيمـانهـا على أولئـك المناهضين. وحينما دخلت في صراع مسلح مع قوات محمد علي

كانت قد بلغت أوج قوتها المادية وأقصى توسعها الجغرافي.

ثم قال المؤلفون (ص ٦٥):

إن محمد بن عبد الوهاب «لم يتجه في إصلاحه إلى الحياة المادية، كما فعل معاصره محمد علي باشا، وإنما اتجه إلى العقيدة وحدها والروح وحدها».

وقد رجعوا في كلامهم هذا إلى أحمد أمين. لكن هل هذا الكلام صحيح؟

أ - لم يكن محمد علي معاصراً لمحمد بن عبد الوهاب. ذلك أنه لم يتولَ حكم مصر إلا بعد وفاة الشيخ محمد بأربعة عشر عاماً.

ب - هل يصح القول بأن محمد بن عبد الوهاب لم يتجه في إصلاحه إلى الحياة المادية وإنما اتجه إلى العقيدة وحدها والروح وحدها؟ صحيح أن العقيدة هي محور دعوة الشيخ الأساسي. لكنه اهتم بإنشاء دولة، واهتم أنصاره قادة الدولة بتحقيق الأمن ورعاية المجتمع وتدريبه وتعليمه. وكل هذه الأمور تحقق الرفاهية والقوة.

١٦ - قال المؤلفون (ص ص ٦٥ - ٦٦):

«كان يمكن أن تكون القوتان (المصرية - والسعودية) متكاملتين: فمحمد علي باشا كان يأخذ بأسباب النهضة المادية ويستعين بالخبراء الأتراك والفرنسيين لبناء اقتصاد مصر وصناعتها وجيوشها الحديثة، ومحمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود كانا يبنيان النهضة العقائدية الفكرية ويرجعان إلى الأصول النقية من

القرآن والسنة لتوجيه حركة التاريخ الحديثة».

وإذا كان قد اتضح أن محمد بن عبد الوهاب توفي قبل تولي محمد علي حكم مصر بأربعة عشر عاماً فإن محمد بن سعود قد توفي قبل تولي ذلك الحاكم بأربعين عاماً. والمسألة الأهم من هذا هي ادعاء أن قوة محمد علي كان يمكن أن تكون متكاملة مع قوة السعوديين حينذاك. فمعلوم أن هناك فرقاً كبيراً بين اتجاه ذلك الحاكم الديني والفكري وبين اتجاه أولئك القادة بحيث يصعب الالتقاء والتكامل. والحديث عن التكامل يمكن أن يقال عن بلدين أحدهما يمتلك ثروة اقتصادية والآخر لديه ثروة سكانية. أما إذا اختلف الاتجاه الديني والفكري فمن غير المسلَّم به الحديث عن إمكانية التكامل.

١٧ ـ **أشار المؤلفون** (ص ص ٦٦ ـ ٦٧): إشارة لا تخلو من الغموض والنقص إلى الإمامين تركي بن عبد الله وابنه فيصل ونهاية الدولة السعودية الثانية. ووضعوا خريطة (رقم ٥) توضح امتداد حكم الإمام تركي (ص ٦٦). ولم يدخلوا الجوف ضمن حكمه. ووضعوا خريطة (رقم ٦) توضح امتداد حكم الإمام فيصل. ولم يدخلوا فيها الجوف ورفحا وحفر الباطن. وكلتا الخريطتين لا تعبر عن الحقيقة التاريخية؛ إذ كانت المناطق المذكورة داخلة تحت حكم الإمامين تركي وفيصل.

١٨ ـ **استهل المؤلفون الباب الثالث من الكتاب**. وعنوانه عودة البطل، بست صفحات كتبت بأسلوب إنشائي أدبي شيق، لكنه لا يتصف بالرصانة العلمية والدقة التاريخية. ولعل من أوضح أدلة عدم الدقة فيها أن المؤلفين ذكروا (ص ٧٨)، وهم يتحدثون عن أوضاع الجزيرة العربية قبل بداية حكم الملك عبد العزيز، أن «جبل شمّر

وعاصمته حائل تحت حكم آل رشيـد.. ونجد تحت حكم شيـوخ القبائل وأمرائها الذين يشحذ كل منهم سيفه لضرب الآخر».

وهم بذلك يقولون: إن نجداً، بما فيهـا الريـاض، لم تكن حينـذاك تحت حكم ابن رشيـد. فممن أخـذ الملك عبـد العـزيـز الرياض؟ ولعل في مستوى هذا الخطأ التاريخي الواضح ذلك الخطأ المتمثل في الخريطة (رقم ٧) التي وضعها المؤلفون لتوضيـح مدى اتساع حكم الملك عبد العزيز (ص ٨٣). فقد ادخلوا ضمن المملكة كلاً من دولة قطر ودولة الإمارات العربيـة المتحدة وجـزءاً من دولة الكويت، ولم يرسموا الحدود الجنوبية الغربية والحدود الشمالية وفق حدود المملكة المعروفة.

وفق الله الجميع لما فيه الخير والسداد.

ملاحظات على
أطلس تاريخ الاسلام
تأليف
الدكتور حسين مؤنس

ملاحظات على
أطلس تاريخ الإسلام
تـأليــف
الدكتور حسين مؤنس(*)

يدرك كثير من المهتمين بالتاريخ ما لـلأطالس التـاريخية من فائدة كبيرة في توضيح الحوادث وتعاقب الدول. وقد بذلت جهـود متعددة لإخراج أطالس تاريخية عن العالم الإسلامي منذ فجر الإسلام حتى الوقت الحاضر. ومن هذه الأطالس ما هو خاص بقطر معيّن في فترات تاريخية مختلفة، ومنها ما هـو شامـل لعدة أقـطار في أزمنة متعاقبة أو في زمن محـدد. ومن الملاحظ أن مـا هو خـاص منها يفوق، غالباً، ما هو عام جودة ودقة.

ومن الأطـالس التاريخيـة التي ظهرت حـديثـاً **أطلس تـاريـخ الإسلام**، الذي قام بتأليفه المؤرخ المشهور الأستاذ الدكتور حسين مؤنس. وقد أصدرته دار الزهراء للإعـلام العربي في القـاهرة عـام ١٤٠٧ هـ. ويتجلّى أمل مؤلفه الكريم في الفائدة المرجوه منه فيما أشار إليه في مقدمته عن الجهود الكبيرة التي بذلها حتى وصل إلى ما رأى أنه وصل إليـه من مستوى. فقـد قال عنـه: «إنه عمـل بالـغ الإتقان، وافٍ بالموضوع، رفيع المستوى». وعبّر عن مدى تعاون دار

(*) نشر هذا التعليق في صحيفة الجزيرة بتاريخ ١٤٠٩/١١/١٠ هـ.

النشر معه بقوله: «وبدون ذلك كله لا أعتقد أن هذا العمل المجيد كان أن يخرج على هذا النحو من الإتقان والجودة».

والواقع أن المؤلف الكريم قد بذل من الجهد ما بذل. لكن عملاً كبيراً مثل هذا العمل يتناول تاريخ الإسلام منذ ظهوره حتى الوقت الحاضر، ويشتمل على تاريخ المسلمين في جميع أقطارهم، لا بد أن تقع فيه أمور تحتاج إلى مزيد من الاستقصاء. وإذا كان من الصعب تتبّع كل هذه الأمور فإنه من الممكن مناقشة بعض المسائل المتعلقة بجزيرة العرب؛ خاصة المناطق التي تتكوّن منها المملكة العربية السعودية. وستكون هذه المناقشة ذات شقين:

أحدهما: خاص بمواقع الأمكنة على الخرائط.

وثانيهما: خاص بالأحداث التاريخية ومن تتعلق بهم من شخصيات.

أولاً ـ مواقع الأمكنة:

١ ـ أشار المؤلف الكريم إلى ما يعانيه الباحث في المراجع العربية من مشقة في تحديد الأماكن في جزيرة العرب، فقال مدلّلاً على ذلك: «فأنت تقرأ ـ مثلاً ـ أن مدينة فيد في منتصف الطريق من مكة إلى البصرة، ولكن أين هذا المنتصف؟ وأين تضع فيدا»؟.

وما قاله المؤلف، هنا، يصدق على أغلب المراجع العربية القديمة. لكن الأطلس الذي قام بتأليفه لم يخرج إلا سنة ١٤٠٧ هـ. وقد قام نخبة من العلماء الأجلاء في المملكة بتأليف معجم جغرافي حلّوا به كثيراً من المشكلات التي تعترض الباحث في المراجع القديمة عن مواقع الأمكنة. ولو

أخذ موضع فيد - وهو المثال الذي أعطاه المؤلف دليلاً على صحة قوله - لوجد أن مشكلته قد حلّت. ولقد قام العلامة الشيخ حمد الجاسر بتأليف المعجم الجغرافي الخاص بشمال المملكة، ونشره قبل صدور الأطلس بعشر سنوات. ولو عاد المؤلف الكريم إلى هذا المعجم لوجد أنه حدّد مكان فيد تحديداً جيداً[1]. وقد قام الدكتور أسعد عبده بتأليف كتاب **معجم الأسماء الجغرافية...**، ونشره عام ١٤٠٤ هـ. ولو رجع إليه لوجد أنه حدد مكان فيد تحديداً دقيقاً، بخط الطول والعرض، وفق خرائط المملكة العربية السعودية[2].

٢ - إن من يتأمل مواقع أمكنة جزيرة العرب المذكورة في خرائط الأطلس يلاحظ أمرين:

أحدهما: اختلاف موقع بعضها في خريطة عنه في خريطة أخرى.

وثانيهما: بعد بعضها عن موقعه الصحيح. فمن نظر إلى خريطة الجزيرة العربية في العصر النبوي (ص ٥٥) يجد - مثلاً - أن المسافة بين بريدة وحائل مثل المسافة بين بريدة وعنيزة تقريباً، وأن بلدة حائل تقع شمال بريدة تماماً، وأن بلدة الرس تقع جنوب شرقي عنيزة بمسافة أبعد من المسافة بين بريدة وحائل.

---

(١) حمد الجاسر، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: شمال المملكة** دار اليمامة ١٣٩٧ هـ، ج ٣، ص: ١٠٥١.

(٢) أسعد عبده، **معجم الأسماء الجغرافية...**، جدة، ١٤٠٤ هـ، ص: ٣٦٥.

ومن المعلوم أن المسافة بين بريدة وحائل أكثر من ثمانية أضعاف المسافة بين بريدة وعنيزة، وأن بلدة حائل تقع شمال غربي بريدة لا شمالها تماماً، وأن المسافة بين حائل وعنيزة حوالى ستة أضعاف المسافة بين عنيزة والرس، وأن الرس جنوب غربي عنيزة لا جنوب شرقيها.

على أن المتأمل للخريطة الموجودة في صفحة ٢٠٠ من الأطلس نفسه يجد أن البلدان الثلاث السابقة قد وضعت في أماكن أقل بعداً عن مواقعها الصحيحة مسافة واتجاهاً. لكنه يجد، أيضاً، أن المسافة بين الرياض والدرعية أطول من المسافة بين الرياض وشقراء، أو بين حريملاء والرس، ويجد أن منطقة الوشم وضعت وكأنها بلدة شمال شرقي الرياض.

وإذا انتقل المتأمل في الأطلس إلى الخريطة الموجودة في صفحة ٢٠٢ وجد أن المسافة بين الرياض والخرج تبدو أقل من المسافة بين عنيزة وبريدة قليلاً، وتبدو أقل من المسافة بين عنيزة والرس كثيراً، ووجد أن بلدة الزلفي - وهي مكتوبة في خرائط الأطلس الزلفا - تقع شمال شرقي بريدة.

ثم إذا انتقل المتأمل في الأطلس إلى الخريطة (ص ٢٠٥) وجد أن منطقة الوشم وضعت وكأنها بلدة غرب الدرعية بِمَيلٍ إلى الجنوب، ووجد أن البكيرية قد وضعت شمال شرقي حائل.

ومما يلفت النظر أن المؤلف قد سمّى البحر الأحمر في الخرائط عند حديثه عن عهود قديمة، بحر القلزم. وهذا

صحيح. لكنه سمّاه في خريطة عنوان المعلومات فيها «اليمن والدول التي قامت فيه خلال العصور الوسطى»: البحر الأحمر (ص ١٩٦). ثم سمّاه في خريطة أخرى (ص ١٩٧) بعنوان «الجزيرة العربية.. من حوالى ٥٩٧ إلى ١٢٢٠ هـ»، بحر القلزم. وسمّاه، وهو يتحدث عن الغزو البريطاني (ص ١٩٨) في القرن العاشر الهجري البحر الأحمر. ثم سمّاه، وهو يتحدث عن الدولة السعودية التي قامت بعد ذلك الغزو بقرنين، بحر القلزم (ص ٢٠٠).

ويمكن لمتأمل خرائط الأطلس عن جزيرة العرب أن يجد أموراً غير قليلة من نوع ما ذكر سابقاً. ويستوي في ذلك الخرائط التي هي عن أوضاع هذه الجزيرة قبيل الإسلام أو في فجر تاريخه وتلك التي عن أوضاعها في عصرها الحديث.

ثانياً ـ المسائل التاريخية:

١ ـ قال المؤلف (ص ٢٠٩):

«واختار السلاجقة رجلاً سنيّاً من الشرفاء الموسويين هو أبو فليتة القاسم بن محمد بن جعفر، وأقاموه على مكة والحجاز سنة ٤٨٧ هـ. ومن ذلك الحين انتهى أمر الشيعة من الحجاز، وأصبح بيت الشرفاء الموسويين هناك سنيّاً».

وتبرز عدم الدقة في الكلام السابق في عدة أمور منها:

- أن الكلام عن القاسم بن محمد بن جعفر بأنه من الموسويين ليس دقيقاً من حيث ما اصطلح عليه مؤرخو الأشراف. صحيح أن جميع طبقات الأشراف الذين

حكموا مكة تلتقي بموسى الجون من نسل الحسن بن علي رضي الله عنهما. لكن الطبقة المسمّاة بالموسويين قد انتهى حكمها قبل تولّي أبي هاشم محمد بن جعفر إمارة مكة. وببداية إمارته سنة ٤٥٥ هـ تقريباً بدأ حكم طبقة جديدة هي طبقة الهواشم[١].

ب ـ أن القاسم قد خلف أباه محمد بن جعفر في إمارة مكة بدون معونة خارجية، بل إن الحملة العسكرية التي أرسلها السلاجقة إلى مكة كانت موجهة ضده، ولم تكن معه. وقد حاربها حتى انتصر عليها[٢].

جـ ـ أن الطبقة الحاكمة في مكة لم تصبح سنّية من عام ٤٨٧ هـ، كما قال المؤلف. ذلك أن الدراسات الموثقة تثبت أن أشراف مكة كانوا زيديين حتى مطلع القرن التاسع الهجري[٣]. ومع أن الطبقة الحاكمة في مكة كانت غير سنّية في تلك الفترة فقد كانت المذاهب السنّية الأربعة متبّعة من قِبَل عامة السكان.

---

(١) أحمد السباعي، **تاريخ مكة**، ط ٣، دار قريش للطباعة بمكة، ١٣٨٧ هـ، ج ١، ص ص ١٨٢ ـ ١٨٣؛ أحمد الزيلعي، **مكة وعلاقاتها الخارجية...**، جامعة الملك سعود، ١٤٠١ هـ، ص ٦٧؛ ريتشارد مورتيل، **الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي**، جامعة الملك سعود، ١٤٠٥ هـ، ص ٢٣.

(٢) السباعي، المصدر السابق، ج ١، ص ص ١٨٦ ـ ١٨٧؛ مورتيل المصدر السابق، ص ٢٧.

(٣) انظر الدراسة الجيدة التي كتبها بالانجليزية مورتيل بعنوان ترجمته «**المذهب الزيدي وأشراف مكة الحسنيون**»، **المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط**، عدد ١٩، ١٩٨٧ م، ص ص ٤٥٥ ـ ٤٧٢.

د - أن المؤلف نفسه قال (ص ٢٠٩):

«وبهم (أي ببني قتادة الذين وصلوا إلى حكم الحجاز أواخر القرن السادس الهجري) تبدأ بيوت الشرفاء الحسنيين السنّيين».

٢ - تحدث المؤلف الكريم عن الأدوار الثلاثة التي مرّ بها التاريخ السعودي (ص ص ٢١١ - ٢١٣)؛ مسمّياً الدولة التي أقامها آل سعود بالدولة السعودية. لكنه سمّى الدولتين السعوديتين الأولى والثانية في الجدول الذي وضعه في الفصل الثالث (ص ٤١): الوهابيين. وليس الحديث، هنا، عن صحة تسمية السعوديين بالوهابيين أو عدم صحة هذه التسمية. لكن المتوقع من عالم جليل مثل مؤلف هذا الأطلس أن يوحّد التسمية على الأقل.

٣ - قال المؤلف (ص ٢١١):

«ومن كبريات القبائل التي ظهرت في منتصف القرن الثالث عشر بنو رشيد، وأصلهم من جبل شمّر... ويقال إنهم من نواحي تيماء تحركوا إلى جبل طيء ثم تقدموا نحو القصيم، وشجعهم العثمانيون من البصرة على الاستقرار في القصيم واتخاذ حائل عاصمة لهم. وأولهم عبد الله بن علي بن رشيد الذي انتهز فرصة استقلال باشا البصرة العثماني بولاية بغداد، وثبّت أقدام قبيلته في تلك الناحية. ولما انتهى استقلال ولاية البصرة استقل بنو رشيد بأنفسهم في القصيم».

ويتضح عدم الصحة في الكلام السابق من عدة وجوه:

أ - أن آل رشيد ليسوا قبيلة بالمصطلح المتعارف عليه عند

الحديث عن القبائل. بل هم أسرة تنتسب إلى قبيلة. وقد أصبحوا يسمّون بهذا الاسم بعد أن استقروا. وأصلهم من عشيرة عبدة من قحطان. وكانت منازل هذه العشيرة في جنوب جزيرة العرب. ثم انتقلت فئات منها إلى داخل نجد، واستقرت أخيراً في منطقة جبل شمّر.

ب - لم يتقدم آل رشيد إلى منطقة القصيم ليستقروا فيها. ولم يشجعهم العثمانيون من البصرة على الاستقرار في هذه المنطقة. ومن المعروف أن مركز استقرار آل رشيد جبل شمّر لا منطقة القصيم.

جـ - يبدو أن المؤلف لا يفرّق بين القصيم وبين جبل شمّر؛ إذ يقول إن استقرار آل رشيد في القصيم، ويقول في الوقت نفسه إنهم اتخذوا بلدة حائل - وهي في جبل شمّر - عاصمة لهم.

د - لا علاقة بين الأحداث في البصرة وبغداد بمجيء عبد الله بن رشيد، أول أمراء آل رشيد، إلى الإمارة. فمن المعروف أن عبد الله كان شجاعاً ذكياً طموحاً. وقد حدثت بينه وبين أمير جبل شمّر من آل علي منازعات اضطر نتيجتها إلى مغادرة حائل. ثم آل به الأمر إلى أن أقام في الرياض، التي كانت عاصمة الحكم السعودي، زمن الإمام تركي بن عبد الله. وأصبح صديقاً حميماً لفيصل بن تركي، وأبدى من الرأي والشجاعة ما أبدى في الخطوات التي اتخذها فيصل للقضاء على من تآمر

لقتل والده. وبعد أن استقرت أوضاع البلاد لفيصل ولّى
عبد الله بن رشيد إمارة جبل شمّر[1]
٤ ـ قال المؤلف بعد كلامه السابق:

«ونتيجة للرخاء النسبي الذي ساد بلاد نجد في منتصف القرن الثالث عشر الهجري... وقع نزاع شديد بين القبائل التي استقرت في مراكز العمران هناك، الرياض واليمامة ومنفوحة والدرعية، التي استقر فيها آل سعود ونهضوا بها نهضة واسعة، والعيينة وما جاورها. وقد استقر فيها آل معمّر، وكانوا أول الأمر تابعين لأمراء الأحساء وظلوا فيها حتى حلّ محلّهم آل سعود. وكان في نجد شيوخ آخرون سنشير إليهم فيما بعد. وكانوا في حرب دائمة بعضهم مع بعض مثل آل حجيلان وآل مهنا وآل علي».

ويتضح خطأ المؤلف في الكلام السابق من عدة وجوه:

أ ـ أن الرخاء، عادة، عامل استقرار بين الجماعات، وليس سبباً لوقوع النزاع بينها.

ب ـ أن قادة البلدان التي ذكرها لم يكونوا قبائل رحّلاً، ثم استقرت كما توحي بذلك عبارته. ولا صلة بين منتصف القرن الثالث عشر وبين استقرار أيّ من قادة تلك البلدان فيها. فمعروف ـ مثلاً ـ أن بلدة الرياض بلدة قديمة ظلت

---

(١) عثمان بن بشر، **عنوان المجد في تاريخ نجد**، طبعة وزارة المعارف، ١٣٩١ هـ، ج ٢، ص ص ٦٥، ٦٧ و٤٨، وانظر تفاصيل ذلك في كتاب **نشأة إمارة آل رشيد**، لكاتب هذه الملاحظات، جامعة الملك سعود، ١٤٠١ هـ، ص ص ٢١ ـ ٤٥.

عامرة؛ وإن لم تتخذ هذا الاسم قبل القرن الثاني عشر. وقد تنافست على مقاليد الأمور فيها عدة أسر من الحاضرة عدة قرون. ومعروف، أيضاً، أن كلاً من الدرعية والعيينة أسستا في منتصف القرن التاسع الهجري. وكان مؤسس كل منهما أناس من الحاضرة؛ فجد آل سعود، الذي أسس الدرعية، كان مستقراً مع أسرته في بلدة شرقي الجزيرة العربية، وجد آل معمّر، الذي أسس العيينة، كان حضرياً اشترى مكان هذه البلدة، واتخذه مسكناً له.

جـ - أن آل معمّر قد أسسوا العيينة سنة ٨٥٠ هـ[١]. ولم يتولّ زعماء بني خالد - وهم الذين يبدو أن المؤلف يشير إليهم - حكم الأحساء إلا سنة ١٠٨٠ هـ تقريباً[٢]؛ أي بعد أكثر من قرنين على تأسيس العينية. فكيف يكون آل معمّر في بداية أمرهم تابعين لأمراء الأحساء؟

د - أن آل سعود لم يحلّوا محلّ آل معمّر في العينية، كما توحي بذلك عبارة المؤلف. ذلك أن آل سعود الأوائل كانت الدرعية مركزهم قبل تبنّيهم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وظلت الدرعية مركزهم بعد تبنّيهم لتلك الدعوة حتى نهاية الدولة السعودية الأولى.

هـ - إن كان مراد المؤلف بشيوخ نجد الآخرين الحديث عن

---

(١) ابن بشر، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٩.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢١١.

فترة ما قبل قيام الدولة السعودية الأولى فإن آل مهنّا لم يكونوا شيوخاً؛ أي أمراء بلد من البلدان. وكان أمراء بريدة آل دريبي. وإن كان مراد المؤلف الحديث عن منتصف القرن الثالث عشر فإن آل مهنّا لم يصبحوا بعدُ أمراء أيضاً. ذلك أن أول أمير منهم - وهو مهنّا الصالح - تولّى إمارة بريدة عام ١٢٨٠ هـ؛ أي بعد منتصف القرن الثالث عشر بثلاثين سنة[١]. ولم يكن أمير بريدة عند منتصف هذا القرن يدعى ابن حجيلان، بل كان يدعى عبد العزيز بن محمد آل أبي عليان[٢].

٥ - قال المؤلف (ص ٢١١):

«وفي أوائل القرن الثاني عشر الهجري... تولّى إمارة الدرعية الأمير سعود بن محمد بن مقرن الذي يعتبر مؤسس الدولة السعودية الأولى وإليه تنسب».

وكلام المؤلف، هنا، غير صحيح من وجهين:

أحدهما: أن سعود بن محمد لم يتولّ إمارة الدرعية في أوائل القرن الثاني عشر. ذلك أن إمارة البلدة خرجت عن أسرته بين عام ١١٠٧ و١١٢١ هـ، ثم استعادتها هذه الأسرة بزعامة موسى بن ربيعة، الذي أصبح أميراً للبلدة حتى نحي عنها،

---

(١) إبراهيم بن عيسى، **عقد الدرر**... طبع ملحقاً لتاريخ ابن بشر، ص ٤٦.
(٢) المصدر نفسه، ص ٤١.

وتولاها سعود بن محمد عام ١١٣٢ هـ[1]. فمجيء سعود إلى الإمارة لم يكن أوائل القرن الثاني عشر.

والوجه الثاني: أن سعود بن محمد لم يكن مؤسس الدولة السعودية الأولى. ذلك أنه تولّى إمارة الدرعية خمس سنين فقط، ولما توفي حلّ محلّه في الإمارة زيد بن مرخان. على أن المهم في تأسيس الدولة السعودية الأولى هو أن هذه الدولة لم تتأسس حقيقة إلا بتبنّيها لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وكان أول أمير تبنّاها من آل سعود هو محمد بن سعود. ولذلك فمحمد بن سعود هو مؤسس تلك الدولة.

٦ - قال المؤلف (ص ٢١١):

إن الشيخ محمداً هو ابن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن راشد التميمي النجدي، وإنه مال منذ البداية إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل كما دعا إليه محمد بن عبد الحليم بن تيمية.

والواقع أن راشداً جد من أجداد الشيخ محمد، لكنه لم يكن أباً لعلي. فالشيخ هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن مشرّف. وكانت أسرته قبل تسمّيها بآل الشيخ تسمّى آل مشرّف. أما ابن تيمية فاسمه أحمد بن عبد الحليم، لا محمد بن عبد الحليم.

---

(١) ابن بشر، المصدر السابق، ج ٢، ص ص ٢٢٢، ٢٢٩، و٢٣٦؛ عبد الله بن خميس، **الدرعية**، الرياض، ١٤٠٢ هـ، ص ٨٩.

٧ ـ قال المؤلف (ص: ٢١٢):

«وبعد وفاة الإمام محمد بن سعود تملك خليفته الإمام عبد العزيز بن محمد (١١٧٩ ـ ١٢١٨ هـ).. وقد تمكن في بداية حكمه من الاستيلاء على الرياض.. واستولى كذلك على العيينة وحريملاء وثادق، وكذلك استولى على ناحيتي سدير والوشم، ثم أتمّ فتح القصيم سنة ١١٨٩ هـ. وفي سنة ١٢٠٨ هـ تمكن ابنه سعود من الانتصار على زيد بن عريعر بن دجين شيخ قبائل بني خالد أصحاب الأحساء، وأرسل حملة إلى عمان، ثم أرسل ابنه سعوداً فانتصر على الشريف غالب، ودخل مكة. ثم أرسل الإمام عبد العزيز ابنه سعوداً كذلك إلى العراق فاستولى على كربلاء، وهدم ضريح الحسين رضي الله عنه. وقد أثار هذا ثائرة الشيعة فاعتدى أحد رجالهم عليه وقتله سنة ١٢١٨ هـ. وخلفه ابنه سعود بن عبد العزيز الكبير سنة ١٢١٥ هـ ١٢٢٩ هـ/ ١٨٠٠ ـ ١٨١٤ م، فأتم فتح الحجاز وفتح مسقط وعمان ونجران وعسير وأجزاء من اليمن».

ويبدو خطأ المؤلف في الكلام السابق من عدة وجوه:

أ ـ توحي عبارة «واستولى كذلك على العيينة وحريملاء وثادق، وكذلك استولى على ناحيتي سدير والوشم» أن ما ذكر من هذه البلدان والنواحي تمّ دخوله تحت الحكم السعودي إبّان حكم عبد العزيز، أي بعد سنة ١١٧٩ هـ. فما هي حقيقة ذلك؟

لقد انضمت كل من العيينة وحريملاء إلى دولة

الدرعية قبل عام ١١٦٠ هـ[١]. وقد سبب بعض أمرائهما مشكلات لقادة هذه الدولة. لكنها حلّت في عهد محمد بن سعود. أما ثادق فقد بايع سكانها قادة آل سعود سنة ١١٧٠ هـ[٢]. ولم يحدثوا أية مشكلات لأولئك القادة في عهد عبد العزيز بن محمد. وأما ناحيتا سدير والوشم فقد دخلت بعض بلدانهما تحت الحكم السعودي في عهد محمد بن سعود، ثم دخلت بقيتها في عهد ابنه عبد العزيز.

ب ـ قد يفهم القارىء عبارة المؤلف: «ثم أرسل ابنه سعوداً، فانتصر على الشريف غالب، ودخل مكة» أن عبد العزيز بن محمد هو الذي بدأ الحرب مع الشريف غالب. والواقع أن هذا الشريف هو الذي بدأ الحرب ضد آل سعود عام ١٢٠٥ هـ، ولم يدّخر وسيلة لحربهم إلا اتخذها. لكن لم ينته عام ١٢١٢ هـ إلا وقد رجحت كفتهم عليه، فاضطر إلى مصالحتهم. ثم عادت الحرب بين الطرفين عام ١٢١٧ هـ. وكانت نتيجتها أن دخل سعود مكة دون إراقة دماء في بداية عام ١٢١٨ هـ[٣].

جـ ـ يفهم من عبارة المؤلف: «ثم أرسل الإمام عبد العزيز ابنه سعوداً كذلك إلى العراق فاستولى على كربلاء. . .» أن هذه الحادثة وقعت بعد دخول سعود مكة، وهو الدخول

---

(١) ابن بشر، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨.
(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٨.
(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ص ١٠٧ ـ ١٠٨، ١٥٢، ١٦٤ ـ ١٦٥.

الـذي حـدث عـام ١٢١٨ هـ، وقـد يفهم من العبـارة، أيضـاً، أن عبد العـزيز هـو الذي بـدأ بمحاربـة الـوالي العثماني في العراق. وكلا الأمرين غير صحيح. ذلك أن حادثة كربلاء وقعت عام ١٢١٦ هـ وكان والي العراق هو الذي بدأ بمحاربة آل سعـود عندما جهز حملة ضـدهم بقيادة ثويني بن عبـد الله زعيم قبيلة المنتفق أواخر عـام ١٢١١ هـ. وقد قتل ذلك الزعيم في الأراضي السعودية أوائل العام الذي تلاه، فعادت فلول جيشه إلى العراق. ثم أرسل ذلك الوالي حملة عسكرية أخرى بقيادة مساعده علي ضد آل سعود، لكن تلك الحملة لم تحقق ما أريد لها من نجاح. وتوصل قائدها إلى صلح مع قائد الجيش السعـودي سعود بن عبـد العـزيـز. ولم يقم السعـوديـون بالهجوم على كربلاء إلا بعد أن عجزوا عن إقناع والي العراق بدفع ديات من قتل من أتباعهم على يد الخزاعل الساكنين في منطقة كربلاء[1].

د ـ إذا علم سبب حادثة كربلاء فإن تلك الحادثة لم تثر ثائرة الشيعة وحدهم؛ بل أثارت ثائرة والي العراق السنّي. وقد أثبتت المصادر أن قاتل عبد العزيز قد قابل والي العراق ونال تشجيعه على ما سيقوم به من عمل غادر[2]

هـ ـ واضح ما في تحديد المؤلف لفترة حكم سعود من خطأ.

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ص ١٣٨، ١٤١، ١٤٣، ١٥٧، ١٥٩ ـ ١٦١.
(٢) لونجرج، **أربعة قرون من تاريخ العراق**، أكسفورد، ١٩٢٥ م، ص ٢٢٩.

فهو نفسه قد ذكر أن عبد العزيز قتل عام ١٢١٨ هـ.
وبذلك فإن حكم سعود لم يبدأ إلا سنة ١٢١٨ هـ.

و - لقد توغلت الجيوش السعودية في الأراضي العمانية، واقتربت من بلدة مسقط حتى اضطر حاكمها إلى دفع مبالغ مالية إلى آل سعود. لكن سعوداً لم يفتح تلك البلدة.

ز - دخلت عسير، بقيادة أبي نقطة، تحت الحكم السعودي في عهد عبد العزيز بن محمد. وكان دخول تلك المنطقة تحت الحكم المذكور مبعثه، بصفة عامة، اقتناع أبي نقطة وأعوانه بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحماسهم لها.

٨ - قال المؤلف (ص: ٢١٢):

«لم ترض الدولة العثمانية عن ضياع سلطانها على الحجاز. ثم إن النشاط العسكري المتزايد للحركة السلفية في نواحي العراق زاد من مخاوف العثمانيين...».

لقد سبقت الإشارة إلى أن العثمانيين قد اتخذوا موقفاً عدائياً من الدولة السعودية قبل دخول الحجاز تحت حكمها، وأنهم أرسلوا حملتين من العراق ضدها عامي ١٢١١ و١٢١٣ هـ. على أن ضياع سلطان العثمانيين على الحجاز زاد من تصميمهم على محاربة الدولة السعودية وتحطيم قوتها.

٩ - قال المؤلف (ص: ٢١٢):

«خرجت - يعني حملة طوسون بن محمد علي - من السويس

ونـزلت ينبع، واستـولت على المدينـة المنـورة، وزحفت إلى الجنوب للاستيلاء على مكة، ولكن الأمير عبد الله بن سعود. . . تصدّى لها وأنزل بها هزيمة عند وادي الصفراء».

والواقع أن معركة وادي الصفراء حدثت قبل استيلاء طوسون على المدينة المنورة[1].

١٠ ـ قال المؤلف (ص ٢١٢):

«كانت الإمدادات قـد وصلت إلى محمد علي، فتقـدمت قـواتـه وتغلّبت على مقـاومـة الأميـر فيصـل بن عبـد الله عنـد بَسَل. . .».

والصحيـح أن الأميـر فيصـلاً هـو فيصـل بن سعـود بن عبد العزيز، وبسل بكسر الباء وسكون السين، لا بفتحهما كما كتبها.

١١ ـ قال المؤلف (ص ٢١٢):

«وكـان رجل يسمّى محمـد بن مشاري بن معمّـر قد انتهـز فرصة ضعف الدولة السعودية ووجود عدد من أمرائها في مصر، وبسط سلطانـه على نجـد ودخـل الـدرعيـة. وكـان الجنـود المصريون لا يزالون في نجد. ولكن الأمير مشاري بن سعود الكبير تمكن من الهرب من مصر وأعلن نفسه إماماً. ثم بويع مشاري بن سعود إماماً سنة ١٢٣٥ هـ ـ ١٢٣٦ هـ، وأقام ابنـه

(١) ابن بشر، المصدر السابق، ج ١، ص ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ و٢١٢؛ عبد الرحمن الرافعي، **عصر محمد علي**، ط ٣، القاهرة، ١٣٧٠ هـ، ص ص ١٣٥ ـ ١٣٧.

تركي أميراً على الرياض. وخلف الأمير تركي فيصل بن تركي سنة ١٢٥٠ هـ»

ويتضح خطأ المؤلف، هنا، في عدة أمور:

أ - حين قام محمد بن معمّر بحركته لم تكن هناك دولة سعودية يشار إلى ضعفها أو قوتها. ذلك أن الدولة السعودية الأولى انتهت باستسلام عبد الله بن سعود لابراهيم بن محمد علي سنة ١٢٣٣ هـ.

ب - أن ابن معمّر لم يبسط سلطانه على نجد، وإنما بدأ حركته في الدرعية، وحاول أن يدخل تحت طاعته ما يمكنه من البلدان النجدية. وقد لقي نجاحاً لا بأس به. لكنه لم يستطع إدخال بلدان نجد كلها تحت طاعته.

جـ - لم يهرب مشاري بن سعود من مصر، وإنما استطاع أن يفلت من حراسه المتوجهين به إلى مصر في منطقة بين المدينة المنورة وينبع[١].

د - أن من أشير إليه بتركي في كلام المؤلف لم يكن ابناً لمشاري بن سعود، بل هو تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود. وقد ذكر المؤلف نفسه (ص: ٢١١) أن مؤسس الدولة السعودية الثانية هو تركي بن عبد الله.

١٢ - قال المؤلف (ص ٢١٢):

ثم أرسل محمد علي والياً جديداً على الحجاز ونجد وهو خورشيد باشا... فتمكن من السيطرة على الحجاز ونجد،

---

(١) ابن بشر، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩٦.

ووافق على أن يتولّى الحكم فيهما الإمام خالد بن سعود الكبير حليفاً للمصريين. ولم يرضَ نفر كبير من أمراء البيت السعودي عن ذلك. ولكن خورشيد ظل محافظاً على مركزه في نجد. وتغيّر الوضع عندما تولّى قيادة المقاومة السعودية الإمام فيصل بن تركي (١٢٥٠ ـ ١٢٥٤ هـ) الذي تمكن من الهروب من مصر والعودة إلى نجد بمعاونة صديقه عبد الله بن رشيد أمير حائل في القصيم».

ويتضح خطأ المؤلف في الكلام السابق من عدة وجوه:

أ ـ أن قوة محمد علي في الحجاز كانت موجودة حينذاك. فلا يصح الحديث عن أوضاعها وكأنها مساوية لأوضاع نجد بالنسبة لنفوذ محمد علي في كل من المنطقتين.

ب ـ لم يولّ خالد بن سعود حكم الحجاز، وإنما أتي به من مصر ليتولّى حكم نجد.

جـ ـ كان إرسال خورشيد في حملة عسكرية إلى نجد تعزيزاً لقوة سبق أن أرسلها محمد علي بقيادة إسماعيل أغا وخالد بن سعود. ولم يصل خورشيد إلى نجد إلا بعد استقرار خالد في الرياض وهزيمته على يد أعوان فيصل في جنوبي نجد.

د ـ توحي عبارة المؤلف «وتغيّر الوضع عندما تولّى قيادة المقاومة السعودية الإمام فيصل بن تركي (١٢٥٠ ـ ١٢٥٤ هـ) إلخ... أن استيلاء خورشيد على نجد كان قبل مجيء فيصل إلى الحكم. ومعروف أن حملة خالد بن سعود وإسماعيل أغا كانت سنة ١٢٥٢ هـ.

وكانت موجهة ضد فيصل بن تركي. وقد سبقت الإشارة إلى أن حملة خورشيد على نجد كانت تعزيزاً لحملة خالد وإسماعيل[1].

هـ - إن عودة فيصل من مصر - العودة التي لها علاقة بابن رشيد - حدثت سنة ١٢٥٩ هـ، ولم تتم كما توحي العبارة قبل عام ١٢٥٠ هـ. ولم يكن لابن رشيد أي جهد في خروج فيصل من مصر. لكن ابن رشيد وقف مع فيصل حين قدم إليه في حائل.

و - معروف - كما ذكر سابقاً - أن بلدة حائل ليست في القصيم.

١٣ - قال المؤلف (٢١٢):

«وتغيّرت ظروف محمد علي عقب هزيمته أمام القوات البريطانية في الشام سنة ١٨٤٠ م، واضطر إلى الانسحاب إلى مصر بموجب معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م. ولكن المصريين وسعوا دائرة نفوذهم في الجزيرة، واستطاع خورشيد أن يسيطر على الأحساء، ودخل في طاعته أمير البحرين، وأرسل خورشيد حملات حتى عمان. وهنا تدخل الانجليز في شؤون الخليج، واستعاد آل رشيد أصحاب حائل قوتهم: وكانوا من رجال الدولة العثمانية. واستطاعوا السيطرة على نجد محل آل سعود الذين لجئوا إلى الكويت».

---

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ص ٨٨ و ٩٨.

ويتضح خطأ المؤلف، هنا، من عدة وجوه:

أ ـ لم يكن توسيع حاكم مصر لنفوذه في الجزيرة بعد سنة ١٨٤٠ م، كما يفهم من عبارة المؤلف. بل تمكن خورشيد من توطيد نفوذ ذلك الحاكم في نجد، واستولى على الأحساء قبل تلك السنة. فقد استسلم له فيصل بن تركي في ديسمبر سنة ١٨٣٨ م، ودخلت منطقة الأحساء كلها في طاعته في يناير سنة ١٨٣٩ م، وتمكن من الاتفاق مع حاكم البحرين على أن يدفع له هذا الحاكم الزكاة عام ١٨٣٩ م. وأرسل حملة عسكرية إلى جهات عمان، أيضاً، في هذا العام نفسه[1].

ب ـ الثابت تاريخياً أنه كان لبريطانيا وجود سياسي وعسكري في جهات من الخليج قبل حملة خورشيد بزمن.

جـ ـ أن النجاح الذي لقيه محمد علي بفضل قائده خورشيد في جزيرة العرب؛ خاصة في منطقة الخليج المهمة جداً لبريطانيا، كان من أهم أسباب تحرك هذه الدولة ضده وترتيبها لمؤتمر لندن عام ١٨٤٠ م. وكانت قرارات هذا المؤتمر سلباً لنجاح حاكم مصر.

---

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ص ١٠٧ ـ ١١٠. وقارنه بكتاب الدكتور عبد الرحيم، محمد علي وشبه الجزيرة العربية، القاهرة، ٢٩٨١ م، ص ص ٣٠٩، ٣٢٠، ٣٢٨ و ٣٥٤.

د - أن نجاح آل رشيد في السيطرة التامة على نجد لم يحدث إلا عام ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ م)؛ أي بعد نصف قرن من انعقاد مؤتمر لندن. ولم تكن هناك أية علاقة بين الأحداث المزامنة لانعقاد ذلك المؤتمر وبين تلك السيطرة. ومن المعلوم أن نجاح آل رشيد في بسط نفوذهم على نجد حدث نتيجة الانقسامات التي وقعت بين أبناء الإمام فيصل، وما ترتب عليها من خروج منطقة شرقي البلاد عن الحكم السعودي، وخروج كثير من القبائل والبلدان النجدية عن هذا الحكم.

١٤ - قال المؤلف (ص ٢١٢):

«ثم فتح - يعني الملك عبد العزيز - القصيم، وأزال آل رشيد سنة ١٣٢١ هـ/١٩٠٣ م بعد انتصارين حاسمين في البكيرية والشنانة. وتمّ الانتصار النهائي على آل رشيد في موقعة روضة مهنا بالقرب من بريدة في ١٨ صفر ١٣٣٤ هـ/١٩١٥ م».

والواقع أن دخول المدينتين الكبيرتين في القصيم، بريدة وعنيزة، وحدوث معركتي البكيرية والشنانة قد تمّا سنة ١٣٢٢ هـ.

أما معركة روضة مهنا - وهي المعركة التي قتل فيها عبد العزيز بن رشيد - فقد حدثت في ليلة ١٨ من صفر عام ١٣٢٤ هـ؛ أي قبل التاريخ الذي ذكره المؤلف بعشر سنوات.

١٥ - قال المؤلف (ص ٢١٢):

«تمّ - لعبد العزيز - فتح الأحساء والقضاء على بني خالد

١٣٣١ هـ. وقد ظل الأتراك يقاومون في بعض حصون القطيف حتى أرسل الإمام عبد العزيز آل سعود سرية أتمت فتح الأحساء، وانتهى حكم الأتراك في الأحساء بعد ٤٢ سنة، وانسحب الأتراك بسلام من الهفوف إلى البحرين إلىٰ العراق. ثم اعترفت تركيا رسمياً بالإمام عبد العزيز حاكماً على نجد والأحساء. وفي سنة ١٣٣٣ هـ انهزم آخر رجل من آل خالد حاول أن ينكث عهده مع عبد العزيز آل سعود».

والواقع أن حكم بني خالد للأحساء قد انتهى زمن الدولة السعودية الثانية. ولم ينتزع الملك عبد العزيز حكم تلك المنطقة منهم، بل انتزعها من الدولة العثمانية. ولم تحدث أية مجابهة بين عبد العزيز وبين بني خالد سنة ١٣٣٣ هـ، وإنما حدثت مجابهة بينه وبين العجمان في تلك السنة في منطقة الأحساء. ويبدو أن الأمر اختلط على المؤلف فلم يفرّق بين العجمان وبني خالد.

١٦ ـ قال المؤلف (ص ٢١٢):

«وبعد ذلك ـ أي بعد القضاء على إمارة آل رشيد في حائل ـ وفي أوائل جمادى الآخرة ١٣٤٤ هـ/يناير ١٩٢٦ م استسلم الشريف حسين آخر شرفاء الحجاز، ووافق على مغادرة الحجاز بآله وأمتعته الخاصة. وفي ٢٥ جمادى الآخرة تمّ استيلاء السلطان عبد العزيز على الحجاز...».

ومن المعلوم أن قوات الإخوان السعودية زحفت على الحجاز ودخلت الطائف في ٧ صفر عام ١٣٤٣ هـ. ثم تقدمت صوب مكة، وأدرك زعماء الحجاز ضعف موقف الحسين،

فطلبوا منه التنازل عن العرش لابنه علي. وتمّ ذلك في ٥ ربيع الأول من ذلك العام. وغادر الحسين جدة يوم ١٦ من الشهر المذكور، ودخلت قوات الإخوان مكة يوم ١٧ ربيع الأول (١٩٢٤). ثم حاصر الملك عبد العزيز جدة إلى أن اعترف علي بن الحسين بسيادة الملك عبد العزيز على البلاد، وغادر جدة في ٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٤ هـ/ديسمبر عام ١٩٢٥ م[1].

١٧ - ختم المؤلف الكريم حديثه عن الدولة السعودية الثالثة بقوله (ص ٢١٣): «وانتهى سلطان الأدارسة من عسير، كما انتهى قبلهم سلطان غيرهم من أمراء النواحي ورؤسائها بدخول الملك عبد العزيز آل سعود جيزان في ١٦ صفر ١٣٧٤ هـ/١٩٥٤ م، وانتهى عصر التفرق والإمارات والمشيخات المتحاربة، وبدأ عهد الوحدة والوطن الواحد والتقدم والرخاء في الجزيرة العربية.

والواقع أن حكم الأدارسة لمنطقة جازان قد انتهى تماماً عام ١٣٥١ هـ[2]. ولم يذهب الملك عبد العزيز نفسه إلى تلك المنطقة. على أن الملك عبد العزيز توفي، رحمه الله، في اليوم الثاني من ربيع الأول عام ١٣٧٣ هـ.

ومن تتبّع ما سبق يتبيّن أن ما كتبه مؤلف **أطلس تاريخ الإسلام**، الأستاذ الدكتور حسين مؤنس، عن المناطق التي

---

(١) خير الدين الزركلي، **شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز**، بيروت، ١٣٩٠ هـ، ج ١، ص ص ٣٣١ - ٣٤٧.

(٢) سعود بن هذلول، **تاريخ ملوك آل سعود**، الرياض، ١٣٨٠ هـ، ص ٢١٤.

تكونت منها المملكة العربية السعودية تنقصه الدقة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية، وأنه يحتاج إلى إعادة نظر جادة حتى تتحقق الفائدة المرجوة، وحتى يصل الأطلس إلى المستوى الذي عبّر عن مداه مؤلفه الكريم في مقدمته.

والله وليّ التوفيق

ملاحظات على كتاب
الرحالة الغربيون
في الجزيرة العربية

ملاحظات على كتاب
الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية(*)

أثار موقع جزيرة العرب اهتمام الأوروبيين القدامى. فكان منهم من زارها ودوّن معلومات مفيدة عنها. غير أن الرحلات المتوالية لعدد من رحالتهم إلى الجزيرة بدأت منذ القرن السادس عشر الميلادي. وكانت أهداف هؤلاء الرحالة مختلفة، كما كانت كتاباتهم مختلفة، أيضاً، من حيث الحياد والجودة وغزارة المعلومات. وقد استفاد كثير من الباحثين المعاصرين في أوضاع الجزيرة العربية بكتابات أولئك الرحالة؛ خاصة عند مقارنتها بمصادر المعلومات الأخرى. ومن تلك الكتابات ما ترجم إلى اللغة العربية، ومنمها ما درس دراسة جيدة وعرض عرضاً وافياً في بحوث ومقالات عديدة. ولم يقتصر الأمر على ذلك؛ بل إن حياة أولئك الرحالة وما قاموا به كتب عنهما عدد من المؤلفات؛ بعضها شامل لجميع الرحالة، وبعضها مقتصر على واحد منهم.

ولعلّ من أجود الكتابات عن الرحالة الغربيين في جزيرة العرب

(*) نشرت هذه الملاحظات في مجلة الدارة، العدد الثاني، سنة ١٤١٠ هـ.

كتاب جاكلين بيرين **اكتشاف جزيرة العرب**. . ، الذي قام بترجمته إلى العربية الأستاذ قدري قلعجي ، وكتب له مقدمة ضافيـة العلامـة الشيخ حمد الجاسر. وقد نشر هذا الكتاب في بيروت قبل خمسة وعشرين عاماً.

ومن بين الكتابات التي كتبت عن الرحالة الغربيين في جزيرة العرب كتاب روبين بدول، الذي ترجمه إلى اللغة العربيـة الزميـل الدكتور عبد الله آدم نصيف بعنوان **الرحالـة الغربيـون في الجزيـرة العربية**، والذي هو مجال الحديث هنا[1].

ولقد أحسن الدكتور عبد الله بتعليقه على بعض المسائل الواردة في كتـاب المؤلف، لكنه لم يعلّق على مسـائـل أخـرى كـان من المستحسن التعليق عليها، كما سيتضح فيما بعد.

وقد ذكر الدكتور عبد الله في المقدمة القصيرة التي قـدّم بها ترجمته للكتاب أن أحد العـاملين اللذين دفعاه إلى هـذه الترجمـة اعتقاده أن من حق القارىء العربي أن يعرف ما قاله غيره عن بلاده. ولا شك أن وضع المعلومات التي كتبها أولئك الرحالة باللغة العربية من الأمور المفيدة لمن لا يجيدون اللغات التي كتبت بهـا أصلاً. على أن كتاب بدول، بصفة عامة، ليس عما قاله الرحالة الغربيون عن جزيرة العرب؛ بل عن حياة أولئك الـرحالـة. وإذا وردت في حديثه عنهم إشارات أو مقتطفات لما شاهدوه فإنها إشارات ومقتطفات

---

(١) نشر كتاب بدول **Travelers in Arabia** في لندن سنة ١٩٧٦ م ونشر ترجمة لـه الدكتور عبد الله نصيف في الرياض عام ١٤٠٩ هـ.

قليلة جداً. ولو كان الدكتور عبد الله يتحدث عن كتاب بيرين لكان حديثه مقارباً للواقع إلى حد ما. ذلك أن ما عرض في هذا الكتاب يعطي صورة لا بأس بها عما تضمنته أعمال الرحالة المذكورين. لكن كتاب بدول بعيد عما ذكره الدكتور عبد الله عنه بدرجة كبيرة. ومن يقارن بين كتابة كل من بيرين وبدول يدرك ذلك تمام الإدراك.

ومن الأمور الملفتة للنظر ما ذكره بدول من أن المقتطفات التي أوردها في كتابة مبنية على استحسانه الشخصي، وأنه اختارها لأنها مهمة أو مفيدة أو ممتعة. ثم أشار إلى أن أصدقاءه العرب قد لا يرضون عما ذكره في الكتاب من تلك المقتطفات، لكنه برّر ذكره لما قد لا يرضيهم بأنه ليس مسؤولاً عما ورد فيها أساساً.

والذي يتأمل ما اقتطفه بدول، أو أشار إليه من كتابات الرحالة الذين تكلم عنهم يرى أن بعض ما اختاره يشتمل على أمور من أسوأ ما ذكره أولئك عن البلاد وأهلها؛ سواء كان ما ذكروه مطابقاً للواقع أو لا. واختيار بدول لذلك السيء دون تعليق - مع أن هذا الاختيار مبني على استحسانه الشخصي - أمر يثير التساؤل عن مصداقية ما يفهم من كلامه من أنه مهتم برضى أصدقائه العرب.

وإذا كان تتبّع ما ورد في كتاب بدول من أخطاء لم تحظ بتعليق الدكتور عبد الله أمر يطول على قارىء هذه الملاحظات فإن الإشارة إلى بعض الأخطاء الواردة في حديث المؤلف عن جغرافية جزيرة العرب وتاريخها بشكل خاص يعطي الدليل على ما في الكتاب من أمور تحتاج إلى تعليق وإيضاح.

١ - ورد في الكتاب (ص ٩): هناك قصة مشهورة مفادها أن أحد الفاتحين لصنعاء انتهز فرصة هطول الأمطار الغزيرة عليها فحوّل

صحن مسجدها إلى مسبح، وأجبر العذارى على أن يسبحن فيه عاريات. وما ورد هنا يحتاج إلى توثيق وإيضاح من الدكتور عبد الله. هل ما ذكر صحيح؟ وإن كان صحيحاً فمتى حدث؟ ومن هو ذلك الفاتح؟

٢ - ورد في الكتاب (ص ١٠ - ١١) عند الحديث عن دخول الحجاز تحت حكم العثمانيين أن السلطان العثماني أخذ على عاتقه مسؤولية أمن الحج، وأقام حاميات عسكرية على طريق مكة والمدينة. لكن العثمانيين لم يقوموا بمحاولة جادة لحكم جزيرة العرب.

ومن المعلوم تاريخياً أن العثمانيين لم يكتفوا بدخول الحجاز تحت حكمهم؛ بل قاموا بالاستيلاء على اليمن، ثم قاموا بالاستيلاء على شرقي الجزيرة العربية في الفترة التالية لدخول الحجاز في طاعتهم.

٣ - ورد في الكتاب (ص ١٣): «أن الدرعية كانت من بين القرى الصغيرة [في نجد] غير أنها منذ القرن السادس عشر أصبحت تابعة لحكم العائلة السعودية. وتقع هذه القرية على بعد سبعة أميال من مدينة الرياض الحالية».

ومن المعلوم أن استقرار أسلاف آل سعود في المكان الذي سمّوه فيما بعد الدرعية حدث عام ٨٥٠ (١٤٤٦ م)؛ أي قبل منتصف القرن الخامس عشر الميلادي. وممن ذكر ذلك التاريخ ابن عيسى الذي رجع إليه الدكتور عبد الله في تعليقاته[1].

---

(١) انظر ابراهيم بن عيسى، **تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد...**، دار اليمانة، ١٣٨٦ هـ، ص ٣٤.

٤ ـ ورد في الكتاب (ص ١٣)؛ «وكان محمد بن عبد الوهاب شخصاً مؤمناً متحمساً، وعزى (هكذا) كل المفاسد والشرور التي كانت سائدة آنذاك إلى ابتعاد الناس عن عقيدة آبائهم وأجدادهم الطاهرة. وأن كل البدع التي جاءت بعد وفاة الرسول ﷺ، حتى شرب القهوة والتدخين، تعتبر خطأ وكفراً».

ومن يعد إلى كتابة بدول نفسه يجد أنه قال: إن ابن عبد الوهاب كان متحمساً مشبوب العاطفة، ويجد أنه لم يقل: «الابتعاد عن عقيدة الآباء والأجداد»، بل قال: «الابتعاد عن أعمال سلفهم Practices of their ancestors. ومعلوم أن هناك فرقاً بين العقيدةFaith أو Belief وبين الأعمال Practices. والتعبير بالسلف Ancestors قد يعني ما هو متعارف عليه حينما تطلق هذه الكلمة في ميدان الدراسات الإسلامية، فيكون المراد بها السلف الصالح. وقد دعا ابن عبد الوهاب إلى التمسك بما كان عليه السلف؛ أي السلف الصالح من الأمة الإسلامية. ولم يدع إلى التمسك بما كان عليه آباء معاصريه. ذلك أن أكثر هؤلاء الآباء كانت عقائدهم وأعمالهم محل انتقاد من الشيخ محمد وأتباعه.

ولقد أحسن الدكتور عبد الله عندما صحّح في الهامش ما ذكره بدول عن مسألة شرب القهوة. لكنه لم يوضح الأمر بالنسبة للتدخين. فمن المعروف أن الشيخ محمداً وأتباعه لم يحرموا التدخين على أساس أنه بدعة كما ذكر بدول جهلاً. بل يحرمونه لأنه من الخبائث، ولأنه إتلاف للمال ومضرة للجسد[1].

(١) انظر مجموعة الرسائل والمسائل النجدية، القاهرة، ١٣٤٤ هـ، ج ١، ص ٦٥٢.

ومن يعد إلى كتابة بدول نفسه يجد أنه قال بأن ابن عبد الوهاب يعد التدخين خطأ وإثماً. ومن المعلوم أنه ليس كل إثم كفراً. وليس من المعقول أن يقول ابن عبد الوهاب ـ وهو العالم الجليل ـ بأن التدخين كفر.

٥ ـ ورد في الكتاب (ص ١٤): أن ابن عبد الوهاب أقنع أهل الدرعية بأن كل من عارضه كافر يجب قتاله ومصادرة أمواله.

ولقد كان حرياً بالدكتور عبد الله ألّا يترك هذه المسألة الخطيرة بدون ما تستحقه من تعليق وإيضاح. هل كان ابن عبد الوهاب يعدّ كل من خالفه في أية مسألة من مسائل أصول الدين أو فروعه كافراً؟

إن ابن عبد الوهاب كان يرى أنه يجب ألّا يكفّر أي إنسان إلا بعد معرفته للتوحيد وإصراره على العمل ضده، ولا يجوز إخراجه من الإسلام قبل قيام الحجة عليه[1].

٦ ـ ورد في الكتاب (ص ١٤): «وكان هذا ـ يعني موقف ابن عبد الوهاب ـ حافزاً مهمّاً دفع الكثير من أتباعه إلى المشاركة بالجهاد في أكثر من خمس وعشرين معركة في غضون خمس سنوات. وقد كان أتباع محمد بن عبد الوهاب يسمّون أنفسهم بالسلفيين».

ومن يرجع إلى كتابة بدول نفسه يجد أنه قال: «ليس هناك ما يجد ترحيباً أكثر من إجازة للنهب باسم الدين. ولهذا فإن

(١) انظر ابن غنام، **روضة الأفكار والأفهام...**، القاهرة، ١٩٤٩م، ج ١، ص ١٠٨.

أتباع ابن عبد الوهاب، الذين يسمّون أنفسهم بالموحدين Unitarians . . .، استغلوا ذلك تمام الاستغلال، فقاموا بخمس وعشرين غزوة خلال خمس سنوات».

وواضح ما في العبارات السابقة من أمور تحتاج إلى تعليق.

٧ - ورد في الكتاب (ص ١٤): «أخذ عميد أسرة آل سعود، عبد العزيز، لقب إمام. وبهذا أصبح من المحتم أن تبدأ الخصومة بينه وبين شريف مكة، إذ أن كلاً منهما اعتبر الآخر مهرطقاً خطراً».

والكلام السابق يجعل اتخاذ عبد العزيز بن محمد لقب إمام - هذا إن ثبت تاريخياً اتخاذه اللقب المذكور - سبباً لقيام خصومة بينه وبين شريف مكة. ومن يقرأ التاريخ السعودي يجد أن الخلاف بين آل سعود وبين أشراف مكة حدث قبل تولّي عبد العزيز بن محمد الحكم بسنين. فهو لم يتولّ الحكم إلا سنة ١١٧٩ هـ. ومن الثابت تاريخياً أن علماء مكة أفتوا بكفر ابن عبد الوهاب، وأن شريف مكة سجن أتباعه عام ١١٦٢ هـ، ثم منعهم من تأدية الحج. واستمر أشراف مكة في موقفهم العدائي من دعوة الشيخ محمد وأنصاره رغم محاولات هؤلاء التودد إلى أولئك الأشراف. ثم بدأ الأشراف اعتداءاتهم العسكرية عام ١٢٠٥ هـ عندما أدركوا نجاح آل سعود في توحيد نجد واقترابهم من توحيد الأحساء معها[1].

---

(١) ابن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، طبعة وزارة المعارف، ١٣٩١ هـ، ج ١، ص ص ٣٧ و١٠٧؛ دحلان خلاصة الكلام. . .، القاهرة، ١٣٠٥ هـ، ج ٢، ص ٢٢٧.

وبذلك يتضح أن ما ذكره بدول لا يقوم على أي أساس تاريخي.

٨ - ورد في الكتاب (ص ١٤): «وقد وقع بين الجانبين (آل سعود والأشراف) عدد من المصادمات. ففي صيف عام ١٨٠٢ م دخلت قوات [الإمام] عبد العزيز بن سعود مدينة مكة. وقبل انسحابه أمر بإعدام بعض الدجالين المسيئين إلى الدين».

ومن يرجع إلى كتابة بدول نفسه يجد أنه يقول: «وقد حدثت عدة مناوشات (بين الطرفين) من قبل. ففي صيف عام ١٨٠٢ م احتل عبد العزيز ابن سعود البلدة المقدسة حيث أعدم عدداً من علماء الدين الأكثر سوءاً قبل انسحابه منها».

وما ذكره بدول هنا يشتمل على عدة أخطاء:

أ - يفهم من عبارته السابقة أن الاشتباكات العسكرية بين آل سعود وبين الأشراف بدأت صيف عام ١٨٠٢ م (١٢١٨ هـ). وهذا غير صحيح. ذلك أن الاشتباكات بينهما بدأت حين قام الشريف غالب بتجهيز حملة عسكرية ضد نجد عام ١٤٠٥ هـ (١٧٩٠ م). كما ذكر سابقاً.

ب - إن دخول القوات السعودية مكة كان في الثامن من محرم سنة ١٢١٨ هـ (١٨٠٣ م). وكانت بقيادة سعود بن عبد العزيز لا بقيادة عبد العزيز نفسه[1]. بل إن عبد العزيز

---

(١) ابن بشر، المصدر السابق، ج ١، ص ص ١٦٤ - ١٦٥؛ دحلان، المصدر السابق، ج ٢، ص ص ٢٧٧ - ٢٧٩.

لم يترأس أية غزوة ضد أية منطقة بعد عام ١١٨٩ هـ (١٧٧٥ م).

جـ - كان دخول سعود مكة دون قتال، ولم يقم بقتل أي عالم من علمائها[1].

٩ - ورد في الكتاب (ص ١٤): «وفي عام ١٨٠٦ م عادت القوات السعودية بقيادة ولده (أي ولد عبد العزيز) إلى مدينة مكة مرة أخرى ثم إلى المدينة. وعلى أثر ذلك أوعز السلطان محمود الثاني إلى واليه على مصر محمد علي للتدخل وحسم الأمر».

ومن يرجع إلى كتابة بدول نفسه يجده يقول: «وفي عام ١٨٠٦ م أعاد ابنه سعود احتلال مكة، واحتل المدينة، آذناً (لأتباعه) بنهب البلدتين وقد منع الحجاج القادمين من الشمال من الحج مدعياً أنهم لم يكونوا مسلمين حقيقيين. وهذا ما دفع الأمبراطورية العثمانية إلى أن تتحرك. فطلب السلطان محمود الثاني من واليه في مصر، محمد علي باشا، أن يتدخل..».

وواضح أن الدكتور عبد الله لم يترجم كل ما قاله بدول هنا، ولم يضع ما يشير إلى أنه حذف شيئاً من قوله. على أن الأكثر أهمية هو ما ذكره بدول. فقد ادّعى أن سعود بن عبد العزيز أذن لأتباعه بنهب مكة والمدينة. وهذا لم يحدث. وادّعى أن سعوداً منع الحجاج القادمين من الشمال من الحج على أساس أنهم

(١) انظر ابن بشر، المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٥؛ دحلان، المصدر السابق، ص ٢٧٧.

غير مسلمين حقيقيين. والواقع أنه منعهم لأنهم لم يتقيدوا بما طلبه منهم بعدم الإتيان بالمحمل، الذي كان يعدّه من البدع، وعدم القدوم بجيش معهم لأن مثل هذا الجيش كان يخشى أن يتدخّل في شؤون الحجاز. ومن المعلوم تاريخياً أن الدولة العثمانية سبق أن تحركت ضد آل سعود قبل دخولهم الحجاز. فقد أرسلت إليهم حملتين عسكريتين من ولايتها في العراق؛ إحداهما عام ١٢١١ هـ (١٧٩٧ م)، والأخرى عام ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م)[1]. على أن دخول الحجاز تحت الحكم السعودي زاد الدولة العثمانية تصميماً على محاربتهم.

١٠ - ورد في الكتاب (ص ١٥): «أن تركي بن عبد الله آل سعود استطاع أن يستعيد مدينة الرياض مرة أخرى، ويعيد غالبية بلاد نجد إلى سلطة آل سعود. ولكن في شهر مايو عام ١٨٣٤ م اغتيل تركي بيد أحد أقاربه، والذي حكم لمدة ٤٠ يوماً فقط، حيث استطاع فيصل بن تركي أن يتسلق أسوار القصر ويقطع حنجرة قاتل أبيه».

والواقع أن حكم تركي به عبد الله لم يقتصر على غالب بلدان نجد. ذلك أنه وحّد منطقة نجد كلها، ووحّد معها منطقة الأحساء، وامتد نفوذه إلى كثير مما أصبح الآن الإمارات العربية المتحدة. ومن المعلوم أن فيصل بن تركي لم يتسلّق أسوار القصر للقضاء على مشاري بن عبد الرحمن، الذي دبّر

(١) ابن غنّام، المصدر السابق، ج ٢، ص ص ١٨٦ - ١٨٧؛ ابن بشر، المصدر السابق، ج ١، ص ص ١٣٨ - ١٥٧.

مؤامرة أدّت إلى اغتيال تركي بن عبد الله، بل قام بذلك نيابة عنه عدد من رجاله الشجعان في طليعتهم عبد الله بن رشيد. وقد قتل مشاري داخل القصر برصاص البنادق. ولعلّ أحسن مصدر تناول هذه الحادثة ابن بشر، الذي كان معاصراً لها[١].

١١ - ورد في الكتاب (ص ١٦): أن الجيش المصري زحف على نجد مرة أخرى عام ١٨٣٨ م، وقبض على فيصل، وأخذه أسيراً إلى القاهرة.

أما القبض على فيصل، أو استسلامه لقائد قوات محمد علي، فقد وقع عام ١٨٣٨ م (١٢٥٤ هـ). لكن بداية زحف تلك القوات صوب نجد كانت عام ١٨٣٦ م.[٢] (١٢٥٢ هـ).

١٢ - ورد في الكتاب (ص ١٦): أن طلال بن عبد الله بن رشيد «بقي يظهر ولاءه للإمام عبد الله، الذي تولّى الإمارة السعودية بعد وفاة أبيه فيصل، ولكن في عام ١٨٦٧ م انتحر طلال... وبعد وفاة طلال تقلّد الإمارة أخوه متعب الذي حكم لمدة أربع سنوات... ثم اغتيل من قبل أولاد أخيه... فتسلّم الحكم بندر، لكنه لم يبق سوى بضعة أشهر».

وبالرجوع إلى ابن عيسى في كتاب **عقد الدرر**... يتضح أن طلال بن رشيد انتحر عام ١٢٨٣ هـ، أي بعد وفاة فيصل بعام، وأن أخاه متعباً قتل عام ١٢٨٥ هـ، أي بعد انتحار أخيه

(١) ابن بشر، المصدر السابق، ج ٢، ص ص ٦٤ - ٦٨.
(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ص ٨٨ - ١٠٧.

بعامين، وأن بندراً لم يقتل إلا عام ١٢٨٩ هـ، أي بعد توليه الإمارة بأربع سنين[1].

١٣ - ورد في الكتاب (ص ١٦): «تمرّد سعود أصغر أبناء فيصل على أخيه عبد الله».

ومعلوم أن سعوداً لم يكن أصغر أبناء فيصل. ذلك أن عبد الرحمن - مثلاً - كان أصغر منه. على أن عبارة بدول نفسه لا يفهم منها أن سعوداً أصغر أبناء فيصل، بل يفهم منها أنه أصغر من أخيه عبد الله فقط. وهذا صحيح.

١٤ - ورد في الكتاب (ص ١٧): «ففي يناير من عام ١٩٠٢ م استعاد عبد العزيز بن سعود - وكان عمره حينذاك ثماني عشرة سنة - مدينة الرياض مع سبعة من رفاقه».

والمرجح أن الملك عبد العزيز ولد عام ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م). فيكون عمره عند دخوله الرياض حوالى ستة وعشرين عاماً. ولو قبلت الرواية التي تفيد أنه ولد عام ١٣٩٧ هـ (١٨٨٠ م) لكان عمره عند دخوله الرياض اثنين وعشرين عاماً، لا ثماني عشرة سنة.

ومن المعلوم أن الملك عبد العزيز تسلّل إلى داخل الرياض مع ستة أو سبعة من رفاقه، لكنه لم يستول على قلعتها إلا بعد

---

(١) عقد الدرر... طبع ذيلاً لتاريخ ابن بشر المذكور سابقاً، ص ص ٤٩، ٥٢، ٦٢ و ٧٤.

أن التحقَ به آخرون من أتباعه حتى وصل عدد الجميع إلى أربعين رجلاً تقريباً[1].

١٥ - ورد في الكتاب (ص ١٨): «بينما كان منافسو ابن سعود يمزقون أنفسهم كان هو يعمل على تقوية مركزه. فبعد عام ١٩١٢ م كان لابن سعود سلاح فعال وهو الإخوان... وفي وقت مبكر من عام ١٩١٤ م استطاع الإخوان أن يطردوا الأتراك من الأحساء. ولم تأخذ تلك العملية إلا أياماً معدودات».

ومن المعروف أن الإخوان لم يصبحوا سلاحاً فعالاً للملك عبد العزيز إلا بعد دخول الأحساء تحت حكمه، لا قبل ذلك. ومن المعروف، أيضاً، أن جيشه من الحاضرة بشكل خاص هم الذين قاموا بدخول الأحساء تحت قيادته[2].

١٦ - ورد في الكتاب (ص ١٩): بعد دخول الإخوان مكة بقليل تنازل الملك حسين عن العرش وغادر البلاد.

والواقع أن تنازل الحسين عن العرش تمّ قبل دخول الإخوان مكة، لا بعده؛ إذ تنازل مساء اليوم الرابع من ربيع الأول عام ١٣٤٣ هـ، وغادر البلاد في اليوم السادس عشر من ذلك الشهر، في حين دخل الإخوان مكة في السابع عشر من الشهر المذكور[3].

---

(١) الزركلي، **شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز**، بيروت، ١٣٩٠ هـ، ج ١، ص ص ٥٨، ٨٨ - ٩٦.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٤؛ ابن هذلول، **تاريخ ملوك آل سعود**، الرياض، ١٣٨٠ هـ ص ص ٩٨ - ١٠٢.

(٣) الزركلي، المصدر السابق، ج ١، ص ص ٣٣٢ - ٤٤٤.

ومما سبق ذكره في هذه الملاحظات يتبيّن أن ما كتبه بدول مقدمة عن جزيرة العرب لا يضيف جديداً إلى ما هو معروف عنها من معلومات؛ بل يشتمل على كثير من الأخطاء، ويتضح أن بقية ما دوّنه في كتابه مركّز على حياة الرحالة الغربيين في جزيرة العرب، لكنه يقلّ جودة عما في كتاب جاكلين بيرين، وأن فيه مسائل غير قليلة تحتاج إلى تعليق وإيضاح.

على أن الدكتور عبد الله نصيف قد قام بما يستحق عليه الشكر، وهو قادر ـ إن شاء الله ـ على أن يتلافى عند إعادة طبع الكتاب ما يرى أن تلافيه يزيد من عمله دقة وفائدة.

والله وليّ التوفيق

تعليق على مقال أحمد العماري
على رسالة الوتري

تعليق على مقال الأستاذ أحمد العماري عن رسالة الوتري[1]

قام الأستاذ الفاضل أحمد العماري بدراسة رسالة الوتري، **ما أبرزته الأقدار في نصرة ذوي المناقب والأسرار**، وتحقيقها، والتعليق على ما ورد فيها، كما عرّف بمؤلفها. وبيّن معرفة دوافع تأليفها. ولقد أجاد وأفاد في كل ما قام به؛ خاصة في حديثه عن السلفية ونظرتها إلى الأمور الدينية والدنيوية. وإني إذ أقدر له سبقه وفضله كل التقدير أود أن يسمح لي بإيراد هذا التعليق على بعض المسائل أملاً في زيادة توضيحها للقارىء الكريم، وهي مسائل لا تمس جوهر ما قام به من عمل جليل.

١ - رجح الأستاذ العماري (ص ٣٥٨ - ٣٥٩) أن الوتري ألف رسالته سنة ١٢٨٧ هـ أو السنة التي تلتها مستدلاً بإشارة الوتري إلى أنه كان يحررها وزعيم دولة آل سعود فيصل. ومشيراً إلى أن هذا الزعيم قد توفي عام ١٢٨٧ هـ، والواقع أن فيصلاً توفي عام ١٢٨٢ هـ[2].

---

(١) مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، عدد خاص، دراسات في تاريخ المغرب. ١٤٠٦ هـ.

(٢) إبراهيم بن عيسى، عقد الدرر. . .، طبع ذيلا لتاريخ ابن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق عبد الرحمن آل الشيخ، وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٣٩١ هـ، ص ٤٩.

٢ ـ رجح الأستاذ العماري أن يكون من بين دوافع الوتري في تأليف رسالته ما أشار إليه من أصل بدوي وعصبية قبلية لمحمد بن عبد الوهاب ثم أضاف دافعاً آخر ـ بناء على قبول الدافع الأول ـ هو شعور الحاضرة (التي يمثلها هنا الوتري) ضد البادية التي يمثلها ابن عبد الوهاب حسبما أشير.

وقبل أن أعلق على تعريف الوتري نفسه بابن عبد الوهاب أود أن أوضح أن ابن عبد الوهاب لم يكن بدوياً. بل ينتمي إلى أسرة مستقرة قبل مولده بمئات السنين. وهي أسرة تدعى آل مُشَرَّف. ورغم قلة المصادر التاريخية عن نجد بين القرنين الثالث والثاني عشر الهجريين فإن أناساً من تلك الأسرة قد تعلموا وأصبحوا قضاة منذ أوائل القرن العاشر الهجري. وكان أكبر عالم في بلدان نجد كلها خلال القرن الحادي عشر جده سليمان بن علي المتوفى سنة ١٠٧٩ هـ [١].

والدارس لكتابات ابن عبد الوهاب يرى أن هجومه على الأوضاع الدينية السيئة لدى البادية لا يقل عن هجومه على أولئك الذين يغلون في تقديس الأولياء، وينتهجون مذاهب صوفية لا تتفق مع ما ورد في القرآن والسنة. وكان في طليعة من عارضوه أناس من أهل نجد يلتقون معه في النسب. بل كان من هؤلاء أخوه نفسه [٢].

---

(١) انظر ابن بشر، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢١٠.

(٢) انظر حسين بن غنام، **روضة الأفكار والأفهام**. . .، طبعة أبي بطين، القاهرة، ١٣٦٨ هـ، جـ ٢، ص ١٧ ـ ٢٠.

ولم يكن هنالك أي موضع لعصبية قبلية في جميع الحروب التي دارت في المنطقة خلال نصف قرن بين أنصار دعوته وخصومها. وإنما كانت تقوم على أسس دينية سياسية واضحة.

٣ ـ ذكر الأستاذ العماري (ص ٣٦٣) «أن التعريف الذي حاول الوتري أن يقدمه للحركة الوهابية منذ نشأتها إلى تاريخ كتابته للرسالة وهو ١٢٨٧ هـ ـ إذا استثنينا فيه نسبه ومسقط رأسه ـ يعتبر تعريفاً ناقصاً تماماً ومشوهاً.. إلخ». والواقع أن تعريف الوتري بنسب ابن عبد الوهاب ومسقط رأسه يشتمل، أيضاً، على أخطاء واضحة كما سيأتي عند مناقشة هذا التعريف في الرسالة ذاتها.

٤ ـ قال الأستاذ العماري «إن وصول السلفية الوهابية رسمياً للمغرب حوالى سنة ١٢٢٥ هـ، وذلك عن طريق الرسائل التي كتبها سعود الوهابي إلى كل أقطار العالم الإسلامي. ومنها رسالته إلى تونس. ومن تونس بعث مفتيها عمر المحجوب التونسي نسخة إلى علماء القرويين لينظروا فيها ويجيبوا عنها».

وتسمية دعوة ابن عبد الوهاب بالوهابية تسمية أطلقها خصوم هذه الدعوة محاولة منهم لإظهارها بمظهر لا يتفق مع عقيدة أهل السنة والجماعة، وذلك لينفروا الناس منها ويشوهوا سمعة مؤيديها. ثم شاعت مع الأسف لدى بعض الكتاب دون تمحيص وتدقيق. وقد اعتمد ابن عبد الوهاب في كل ما دعا إليه على الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح.

أما تاريخ إرسال سعود بن عبد العزيز الرسائل إلى المغرب فيحتاج إلى مزيد من البحث والاستقصاء. فقد ذكر الجبرتي بعد

حديثه عن دخول سعود إلى مكة سنة ١٢١٨ هـ، أنه أرسل إلى شيخ الركب المغربي كتاباً ومعه أوراق تتضمن دعوته وعقيدته. ثم أورد صورتها[1]، وقد يكون الجبرتي قصد بكلمة مغربي هنا ما هو واقع غرب مصر، ويكون المراد بذلك الركب التونسي. على أن هذه الرسالة التي أورد صورتها هي الرسالة التي وصلت [3]إلى تونس[2]. وقد رد عليها كل من عمر المحجوب، واسماعيل التميمي. ومن المعلوم أن عمر المحجوب توفي عام ١٢٢٢ هـ[7]، وهذا يؤكد أن الرسالة قد وصلت إلى تونس، على الأقل، قبل عام ١٢٢٢ هـ.

٥ ـ ذكر الأستاذ العماري (ص ٣٦٧) «أن الزياني في المرحلة التي أجاب فيها السلطان سليمان على رسالة الوهابي كان قد استقيل من منصبه، وأن أكسوس هو الذي كان بجانب السلطان كوزير له..» وقد ذكر (ص ٣٦٥) أن الجواب قد حمله ولد ذلك السلطان، الذي حج عام ١٢٢٦ هـ. وذكر عند ترجمته لاكسوس في الهامش الثالث عشر من الصفحة ذاتها أنه ولد عام ١٢١١ هـ، وأنه لم يذهب إلى فاس لإتمام دراسته إلا عام ١٢٢٩ هـ. فكيف يكون أكسوس وزيراً للسلطان سليمان عام ١٢٢٦ هـ؟

---

(١) انظر الجبرتي، **عجائب الآثار..**، بيروت، دون ذكر لسنة الطباعة، جـ ٢، ص ٥٨٨ ـ ٥٩١.

(٢) أحمد بن أبي الضياف، **اتحاف أهل الزمان...**، ط ٢، تونس ١٩٧٩ م، جـ ٢، ص ٨٢ ـ ٨٥.

(٣) انظر بروكلمان عن المخطوطات العربية، الملحق الثاني، ص ٦٩٧، وانظر عمر كحالة، **معجم المؤلفين**. دمشق، ١٣٧٨ هـ، جـ ٧ ص ٣٠٤.

٦ ـ قال الوتري (ص ٣٧٨) في تعريفه بابن عبد الوهاب: «اعلم أن هذا المبتدع من قرية بين اليمن ونجد تسمى في مجاورتنا بالدرعية. والأصل دريعة كجهينة كما ذكر القاموس.

والمشهور في اسم المبتدع عندنا وهابي لا وهبي وقبيلته تسمى بعسير، وهي في الكثرة كالجراد لم تكن قبيلة في الحجاز أكثر منها». ثم قال عنه: «ذهب بجيشه إلى الحرمين الشريفين ليجاهد من بهما... إلخ».

وفي كلام الوتري هذا خلط غريب يوحي بأنه لا يعرف شيئاً يستحق الذكر عن ابن عبد الوهاب ولا عن آل سعود الذين ناصروه. ولا عن جغرافية جزيرة العرب وأحوالها. ويتضح ذلك في عدة أمور منها:

أ ـ يوحي سياق كلامه أنه لا يفرق بين الداعية الشيخ محمد ابن عبد الوهاب وبين من ذهب بجيش أنصارها إلى الحرمين وهو سعود بن عبد العزيز (وذلك ما أشار إليه الأستاذ العماري في الهامش). ومعلوم أن دخول الحرمين تحت حكم آل سعود لم يتم إلا بعد وفاة الشيخ محمد بأكثر من اثني عشر عاماً.

ب ـ قوله إن ابن عبد الوهاب من قرية بين اليمن ونجد تسمى الدرعية والأصل دريعة كجهينة خطأ من عدة وجوه.

فابن عبد الوهاب ولد ونشأ في العيينة، وانتقل بعد بدء دعوته إلى الدرعية. والدرعية والعيينة في إقليم العارض في وسط نجد. والدرعية بكسر الدال وسكون الراء وكسر العين وتشديد الياء. فكيف يكون أصلها دريعة

كجهينة؟

جـ - ينتسب ابن عبد الوهاب إلى آل وهبة من بني تميم. ومساكن تميم منذ العصر الجاهلي في نجد. وكان آل وهبة قد استقروا في بلدة أشيقر النجدية قبل مئات السنين من مولد ابن عبد الوهاب، ثم استقر جده في بلدة العينية، التي كانت أعظم إمارة في نجد خلال القرن الحادي عشر الهجري. وبذلك يتضح أنه لا علاقة نسبية ولا سكنية له بعسير. ومعروف أن قبيلة عسير تسكن في منطقة عسير الواقعة جنوب الحجاز وشمال اليمن. وإذا اتضح أن ابن عبد الوهاب ليس من عسير نسباً ولا سكناً فإنه من المعروف أن الحجاز منطقة غير نجد وغير عسير.

٧ - قال الوتري (ص ٣٧٨) «إن الوهابي وصل إلى مكة (والذي وصل إليها بجيشه سعود بن عبد العزيز)، وأقام بها مدة وفعل بها الأفاعيل المتواترة من القتل والنهب والبدع العظيمة».

ومن المعروف أن ابن عبد الوهاب بدأ دعوته في نجد في العقد الخامس من القرن الثاني عشرالهجري. وقد وقف أشراف مكة من هذه الدعوة موقفاً عدائياً منذ بدايتها، فكفروا صاحبها، ونكلوا بأتباعه، ثم نفوهم ومنعوهم من أداء الحج[1]. وظلوا يمنعوهم من الحج أكثر من نصف قرن. ثم لم يكتف الأشراف

(١) تاريخ عزي، القسطنطينية، ١١٩٩ هـ، ص ٢٠٧، أحمد زيني دحلان، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام.... القاهرة، ١٣٠٥ هـ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

بذلك، بل بدأوا يرسلون جيوشهم إلى نجد لمحاربة أنصار دعوة الشيخ منذ عام ١٢٠٥ هـ. لكن انتصار هؤلاء الأنصار في نجد وشرقي الجزيرة العربية، ثم انضمام زعماء منطقة عسير إليهم جعلهم قادرين على الصمود أمام غزوات الأشراف، ثم جعلهم قادرين على الانتصار عليهم وإدخال الحرمين تحت حكمهم. وبذلك يتضح أن من بدأ العداوة دينياً وعسكرياً هم أشراف الحجاز.

كيف كان دخول سعود وأتباعه إلى مكة؟

من المعروف تاريخياً أن سعوداً دخل مكة في مستهل عام ١٢١٨ هـ، بعد أن هرب منها الشريف غالب إلى جدة. وقد ذكر المؤرخ الحجازي دحلان ـ وهو صاحب **الدرر السنية في الرد على الوهابية** ـ أن سعوداً دخل مكة هو وأتباعه بلباس الأحرام بعد أن أعطى سكانها أماناً، وأن ذلك الدخول كان في منتهى الانضباط، ولم يشر إلى قتل أي إنسان فيها[1]. وذكر بوركهارت، الذي قدم إلى مكة بعد استيلاء قوات محمد علي حاكم مصر العثماني عليها، أن المكيين لا يزالون يذكرون بالتقدير الانضباط الممتاز الذي راعاه سعود وأتباعه عند دخولهم البلدة المقدسة، إذ لم يقوموا بأي تعد على حقوق الناس[1].

ثم عاد الشريف غالب إلى مكة، وظل يحارب آل سعود حتى أعياه قتالهم، فتصالح مع قادة قواتهم المحاصرة لمكة عام

---

(١) دحلان، المصدر السابق، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٨.

(٢) انظر كتابه الذي ترجمه عنوانه، **ملاحظات على البدو والوهابيين**، لندن ١٨٣١، ج ٢، ص ١٤٩.

١٢٢١ هـ، ودخل هؤلاء البلدة دون إراقة دماء[1]. وقد شاهد الرحالة الأسباني بادياً، المتسمي علي بك، دخول تلك القوات إلى مكة، وامتدح انضباطها، وقال إنه لم ترق قطرة دم واحدة في ذلك الدخول[2].

ثم ماذا عن البدع العظيمة التي فعلها سعود كما زعم الوتري؟ لقد قام سعود بهدم القباب المقامة على القبور والتي كان الجهال يتبركون بها ويدفعون النذور لسدنتها، وألغى الضرائب الجائرة التي كانت مفروضة على السكان، وحرم بيع التبغ، وأمر بالصلاة جماعة خلف إمام واحد بدلاً من صلاة أتباع كل مذهب من المذاهب الأربعة خلف إمام من مذهبهم، وذلك حرصاً على وحدة المسلمين في أداء فريضتهم[3]. فهل هذه الأعمال بدع؟

٨ - قال الوتري (ص ٣٨٠) إن السلطان العثماني أمر محمد علي باشا بأخذ المدينة. . . ، فأرسل إليها إبراهيم باشا، فأخذها بالحيلة. وذكر الأستاذ العماري في الهامش أن محمد علي جهز جيشاً كثيفاً جعل على رأسه ابنه إبراهيم الذي توجه من مصر إلى شبه الجزيرة العربية سنة ١٨١٢ م (١٢٢٦ هـ). والواقع أن العثمانيين حاولوا مراراً القضاء على الدولة السعودية عن طريق والي بغداد. ففشلوا. ثم أمروا محمد علي سنة ١٢٢٢ هـ بأخذ

(١) دحلان، المصدر السابق، ص ٢٩١ - ٢٩٢.

(٢) انظر كتابه الذي ترجمة عنوانه، **رحلات علي بك في جزيرة العرب**، لندن، ١٨١٦، ج ٢، ص ١٢٥.

(٣) دحلان، المصدر السابق، ص ٢٧٨، بوركهارت، المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٩٥، عبد الله بن محمد، **الهدية السنية** . . . ، ط ٢، القاهرة، ١٣٤٤ هـ، ص ٣٥.

الحجاز من آل سعود. ولما استعد للقيام بالمهمة سنة ١٢٢٦ هـ جعل قيادة الحملة لابنه طوسون. ومع أن طوسون هزم هزيمة كبيرة في وادي الصفراء في ذلك العام إلا أنه عاود الكرة، فاستطاع دخول المدينة المنورة بتعاون المؤيدين للعثمانيين من أهلها معه، وذلك عام ١٢٢٧ هـ. ثم دخل جدة ومكة. أما إبراهيم فلم يقدم إلى جزيرة العرب إلا سنة ١٢٣٢ هـ. وكانت جهوده منصبة على القضاء على الدولة السعودية في نجد. فتمكن من ذلك عام ١٢٣٣ هـ.

٩ ـ قال الوتري (ص ٣٨١): إن سعوداً هرب من المدينة إلى بلاده، ثم بعد مدة فتح محمد علي الدرعية وأرسله إلى السلطان فقتل ثم قال: إن الشريف عبد الله بن عون كان يهيء الجيوش لغزو فيصل عام ١٢٨٥ هـ. وقد علق الأستاذ العماري على هذا في هامش الصفحة بقوله: إن الذي قتل عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن سعود، ثم قال إن فيصلاً ليس ابناً لعبد الله هذا بل ابن لتركي بن سعود.

والواقع أن إبراهيم باشا هو الذي استولى على الدرعية، كما سبق أن ذكر. وكان ذلك بعد وفاة سعود بأربع سنوات. أما الذي استسلم لإبراهيم وأرسل إلى السلطان فقتله فهو عبد الله بن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود، وليس عبد الله بن عبد العزيز. وأما فيصل فهو فيصل بن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود. وبذلك يتضح أن تركي بن عبد الله ابن عم لسعود بن عبد العزيز وليس ابن عم لعبد الله بن سعود. وقد سبقت الإشارة إلى أن فيصل بن تركي توفي عام ١٢٨٢ هـ فلا يمكن أن يكون جيش قد جهز لحربه عام ١٢٨٥ هـ.

١٠ ـ ولقد تحدث الوتري (ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣) عن معتقد ابن عبد الوهاب، وادعى أنه لا يقول بالشفاعة، ولا يجيز الاستغاثة بغير الله، وأنه ينكر كرامات الأولياء، ويقول بعدم حياة الأنبياء في قبورهم، ويقول إن استواء الله على عرشه كاستواء الإنسان على كرسيه.

ولا شك أن من أراد الإنصاف ومعرفة الحقيقة فيما يتعلق بعقيدة ابن عبد الوهاب حول هذه المسائل فسيرجع إلى ما كتبه هو وأتباعه لا إلى ما يروجه عنهم خصومهم المغرضون. فما هو موقف ابن عبد الوهاب وأتباعه في المسائل المذكورة؟

أما الشفاعة فإنهم يثبتونها بشرط أن تكون مبنية على أساسين: إذن الله للشافع «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلا بِإذْنِهِ»، ورضاه عن المشفوع له «وَلاَ يَشْفَعُوْنَ إلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ»[1].

وأما الاستغاثة فإنهم يقسمونها إلى قسمين: أحدهما يتعلق فيما لا يقدر عليه إلا الله وحده، مثل شفاء المريض، ودفع الضر، وهداية الروح، فهذا لا يجوز طلبه إلا من الله. وثانيهما يتعلق فيما يقدر عليه المخلوق كالمساعدة المتبادلة التي يقدر عليها الإنسان. وهذا يجوز طلبه من الإنسان بشرط أن يكون حياً[2].

---

(١) انظر **مجموعة التوحيد النجدية**، نشر محمد رشيد رضا، القاهرة، ١٣٤٦ هـ، ص ٨١؛ سليمان بن عبد الله، **التوضيح عن توحيد الخلاق...**، القاهرة. ١٣١٩ هـ، ص ١١٥؛ الدرر السنية في **الأجوبة النجدية**، جمع ابن قاسم، ط ٢، بيروت، ١٣٨٥ هـ، جـ ١، ص ٢٩.

(٢) ابن غنام، المصدر السابق، جـ ١، ص ٧١؛ **مجموعة الرسائل والمسائل النجدية**، القاهرة، ١٣٤٦ ـ ١٣٤٩ هـ، جـ ٤، ص ٥٩٢.

وأما نظرتهم إلى حياة الرسول ﷺ، في قبره، وكرامات الأولياء، فقد عبّر عنه عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب بقوله:

«الذي نعتقده أن رتبة نبينا محمد ﷺ أعلى مراتب المخلوقين، وأنه حي في قبره حياة برزخية أبلغ من حياة الشهداء، المنصوص عليها في التنزيل، إذ هو أفضل منهم بلا ريب، وأنه يسمع سلام المسلم عليه[1] ولا ننكر كرامات الأولياء، ونعترف لهم بالحق، وأنهم على هدى من ربهم مهما ساروا على الطريقة الشرعية والقوانين المرعية، إلا أنهم لا يستحقون شيئاً من أنواع العبادة لا حال الحياة ولا بعد الممات[2]». والولي عندهم لا يعرف بلباسه وشكله، وإنما يعرف بتقواه ومحافظته على الواجبات الدينية ومتابعة القرآن والسنة[3].

وأما مسألة الاستواء فإنهم يقولون فيها كما قال الإمام مالك رحمه الله: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[4]. ويرون أن من قال إن استواء الله على عرشه كاستواء الإنسان على الكرسي أو جلوسه عليه قد وقع في التمثيل والتشبيه المحرمين[5].

---

(١) الدرر السنية . . ، جـ١، ص ١٢٨.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

(٣) الهدية السنية؛ ص ٧ و ٣٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٠؛ **مجموعة الرسائل والمسائل النجدية**، جـ١، ص ٥٠.

(٥) **الهدية السنية**، ص ٨٧؛ **مجموعة الرسائل. . .**، جـ١ ص ٥١؛ **التوضيح عن توحيد الخلاق. . .**، ص ٤١.

الدكتورة ميمونة الصباح
وكتابة تاريخ الكويت

الدكتورة ميمونة الصباح
وكتابة تاريخ الكويت(*)

حظيت منطقة الخليج باهتمام كثير من المؤرخين المعاصرين. وكان عبء الدراسات التاريخية عن هذه المنطقة يقع على كواهل باحثين جلّهم من غير أبنائها. ومع تقدم النهضة التعليمية فيها انطلق هؤلاء الأبناء المؤهلون لكتابة دراسات جادة عن تاريخهم الوطني ينشرون ما توصلوا إليه من بحوث وتعليقات. وها هي الدكتورة ميمونة خليفة العذبي الصباح تكتب عن سياسة الكويت الخارجية خلال القرن الثامن عشر آخذة على عاتقها كما تقول:

«محاولة إعادة كتابة تاريخ الكويت بطريقة علمية موضوعية، وبصورة شاملة ومتكاملة من خلال المصادر الأساسية، ومنها الوثائق العثمانية والبريطانية، إلى جانب الاستعانة بالدراسات السابقة التي تناولت جوانب معينة من تاريخ الكويت سواء الأجنبية منها أو العربية، ثم المصادر والمراجع المعتمدة والموثوق بها[1]».

والكلام السابق يوحي لقارئه بأنه سيجد ضالته المنشودة في كتابة الدكتورة ميمونة عن تاريخ الكويت العزيز لدى كل أبناء المنطقة. وسأصحب القارىء الكريم علّنا نجد تلك الضالة المنشودة

(*) نشر هذا التعليق في صحيفة القبس بتاريخ ١٩٨٩/١١/١ م.

(١) انظر كتابتها التي يتناولها هذا التعليق والمنشورة في مجلة **المؤرخ العربي**، اتحاد المؤرخين العرب، العدد ٣٥، ١٤٠٩ هـ/١٩٨٨، ص ١٩.

في ضوء ما كتبته الدكتورة الفاضلة.

إن من أبرز قواعد البحث العلمي أن يكون الباحث دقيقاً في تعامله مع المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في بحثه. ومن تلك الدقة ألّا يورد كلام غيره بنصه وفصه إلا إذا وضعه بين علامات تدلّ على أنه مقتبس اقتباساً. فإذا لم توضع هذه العلامات الدالـة على الاقتباس فسيؤخذ الكلام على أنه تعبير الباحث نفسه. ولا يغني عن وضع العلامات ذكر اسم المرجع في الهامش. ذلك أن مجرد ذكر المرجع في الهامش لا يعني أن الكلام المذكور في المتن هو تعبير مؤلف المرجع حرفياً. والأسوأ من ذلك ـ بطبيعة الحال ـ أن يورد الباحث كلام غيره دون وضعه بين علامات تدلّ على الاقتباس، ودون إشارة في الهامش إلى الاعتماد عليه.

ومن قواعد البحث العلمي ألّا يعتمد الباحث على مرجع ثانوي ما دام المصدر الأساسي موجوداً لديه. فإن رجع إلى المرجع الثانوي دون الرجوع إلى المصدر الأساسي فليس من حقه أن ينقل في الهامش ما وضعه كاتب المرجع الثانوي في هوامشه من مصادر. ذلك أن مثل هذا العمل يوهم القارىء أن الباحث نفسه قد عاد إلى المصادر الأساسية وهو لم يعد إليها في حقيقة الأمر.

والمتتبّع لما كتبته الدكتورة ميمونة عن «سياسة الكويت الخارجية خلال القرن الثامن عشر» يجد أنها نقلت حرفياً مقاطع من بحث للدكتور جمال زكريا عنوانه «موقف الكويت من التوسع السعودي في نجد وسواحل الأحساء»[1]، ومقاطع من كتاب للدكتور

---

(١) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ١٧، ١٩٧٠م، ص ص ٩٣ - ١٢٧.

أحمد أبي حاكمة عنوانه «تاريخ الكويت الحديث»[1]. وقد تمّ هذا النقل دون أن توضع علامات تدلّ على أنه مقتبس. وهي تشير، أحياناً، إلى المرجع في الهامش بعد استكمال ما نقلته أو قبل استكماله، ولا تشير، أحياناً أخرى، إلى المرجع إطلاقاً. ومن يقارن ما كتبته (ص ٢٥) بما كتبه أبو حاكمة (ص ص ١٢٣ - ١٢٤) أو ما كتبته (ص ٢٤) بما كتبه زكريا (ص ٩٦) يتضح له ذلك.

والدكتورة ميمونة تذكر في الهامش، تارة، اسم مصدر ذكره المرجع الثانوي الذي نقلت عنه مع وضوح عدم رجوعها إلى ذلك المصدر. ومن أمثلة ذلك أن الدكتور زكريا قال:

«واستخدمت السفن الكويتية لنقل قسم كبير من قوات الشيخ ثويني إلى الأحساء، وإن لم تكن النتيجة طيبة على أية حال إذ تفرقت هذه القوات وقتل ثويني في إحدى المعارك الطاحنة التي نشبت بينه وبين السعوديين»[2].

وقد أعطى الدكتور زكريا مصدره في الهامش هكذا: حسين بن غنام: **روضة الأفكار والأفهام** جـ ٢ ص ١٦٥ وما بعدها.

فأتت الدكتورة ميمونة لتقول (ص ٢٥):

«واستخدمت السفن الكويتية لنقل قسم كبير من قوات الشيخ ثويني إلى الأحساء، إلا أن النتيجة لم تكن طيبة ومشجعة على أية

---

(١) نشرت هذا الكتاب دار ذات السلاسل في الكويت عام ١٩٨٤ م.

(٢) جمال زكريا، المصدر السابق، ص ٩٧.

حال». وعند نهاية هذه العبارة، التي لم تضع علامات تدلّ على أنها مقتبسة، أشارت في الهامش إلى زكريا.

ثم تابعت الدكتورة ميمونة كلامها قائلة:

«إذ تفرقت تلك القوات، وقتل ثويني في إحدى المعارك الطاحنة التي نشبت بينه وبين السعوديين».

وعند نهاية العبارة أشارت في الهامش إلى مصدرها تماماً كما أشار الدكتور زكريا هكذا: حسين بن غنّام: **روضة الأفكار والأفهام** جـ ٢ ص ١٦٥ وما بعدها.

ولو رجعت الدكتورة ميمونة حقيقة إلى ابن غنّام لوجدت أنه لم يذكر بأن ثويني بن عبد الله «قتل في إحدى المعارك الطاحنة التي نشبت بينه وبين السعوديين». بل ذكر بأن مولى اسمه طعيس اغتال ذلك الزعيم بحربة وهو جالس مع بعض رجاله قبل أن تنشب أية معركة بين الطرفين[1].

ولقد تعرضت الدكتورة ميمونة لعلاقات الكويت بقوى مختلفة خلال القرن الثامن عشر الميلادي. لكن هذا التعليق سيكون مقتصراً على ما هو ذو صلة بالتاريخ السعودي فقط.

١ - إن المتتبّع لكتابة الدكتورة ميمونة يجد أنها لم تستقر على تسمية معيّنة لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والذين ناصروها. فقد قالت (ص ٤٦): إن دعوته «أصبحت تعرف باسم الوهابية على الرغم من أن هذا اللقب أطلقه عليها خصومها، واستعمله

(١) حسين بن غنّام، **روضة الأفكار والأفهام...**، طبعة أبي بطين، ١٣٦٨ هـ، ج ٢، ص ٢٣٥.

البحاثة الأوربيين (هكذا) نقلاً عنهم... أما أصحاب الحركة فيطلقون على أنفسهم الموحدين. وهم سنّيين (هكذا) من أتباع ابن حنبل كما شرحه ابن تيمية».

وليس المجال، هنا، مجال مناقشة صحة هذه التسمية، لكن المتوقع في دراسة علمية أن تكون التسمية موحدة في جميع المواضع ما لم يكن هناك اقتباس من مصدر أو مرجع آخر. أما الدكتورة ميمونة فلم تلتزم بتسمية موحدة. فقد سمّت دعوة الشيخ محمد «الوهابية»، وسمّت أنصارها «الوهابيين» في أغلب الأحيان. على أنها سمّتها «الدعوة السعودية» (ص ٤٩)، وسمّت أنصارها «السعوديين» في أماكن متعدّدة. بل سمّتهم «الموحدين» (ص ٢٣)، و«السعوديين الموحدين» (ص ٢٤).

٢ - استعملت الدكتورة ميمونة عبارات تدلّ على موقف غير محايد تجاه السعودية مع أنها ذكرت بأن دراستها «علمية موضوعية». ومن تلك العبارات:

«هجمات الوهابيين المتشددة على بني خالد» (ص ٢٤)، «تلك المرحلة التي اندفع فيها الموحدون بشكل تعصبيّ بالغ» (ص ٢٤)، «ففي المدن والإمارات التجارية مثل الكويت والزبارة والبحرين ساد روح الاستياء من هذه الدولة العسكرية التي تفرض سيطرتها بالقوة، وترهق السكان بالضرائب والمكوس المختلفة باسم الجهاد» (ص ٤٧).

ولعلّ ثقة الدكتورة ميمونة في المراجع الثانوية التي نقلت عنها جعلتها تستعمل تلك العبارات دون أن تفكر جدّياً في مدلولها.

٣ ـ نقلت الدكتورة ميمونة حرفياً ما كتبه الدكتور زكريا عن قبيلة بني خالد ونفوذها في شرق الجزيرة العربية ووسطها[١] ثم قالت (ص ٢١):

«وقد بقيت هذه القبيلة التي فرضت سيطرتها منذ أوائل القرن السادس عشر». وعبارتها توحي بأن السيطرة في المنطقة كانت لبني خالد منذ أوائل القرن المذكور. لكن الدكتورة نفسها ذكرت (ص ٢١) أيضاً، أن شيوخ بني خالد أصبحوا بشكل رسمي حكام شرقي جزيرة العرب منذ القرن السابع عشر. وذكرت (ص ٢٣) أن السلطة السياسية في ساحل جزيرة العرب الشرقي تركزت في يد بني خالد في النصف الأول من القرن الثامن عشر. فمتى أصبح زعماء بني خالد حكاماً لشرق الجزيرة العربية؟

الواقع أن حكام شرق الجزيرة العربية في أوائل القرن السادس عشر كانوا آل أجود، أو الجبور، الذين كان أشهرهم أجود بن زامل، والذين كان من أعظمهم مقرن بن زامل الذي استشهد على يد البرتغاليين عام ٩٢٧ هـ[٢]. ولم يصبح زعماء بني خالد حكاماً للمنطقة إلا بعد أن انتزعوها من العثمانيين سنة ١٠٨٠ هـ/ ١٦٧٠ م[٣].

---

(١) جمال زكريا، المصدر السابق، ص ٩٣.

(٢) من أجود الدراسات عن آل أجود الدراسة التي قام بها الدكتور عبد اللطيف الحميدان، وعنوانها «التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية: ٨٢٠ ـ ٩٣١ هـ». وقد نشرت في **مجلة كلية الآداب**، جامعة البصرة، العدد ١٦، ١٩٨٠ م، ص ص ٣١ ـ ١٠٩.

(٣) عثمان بن بشر، **عنوان المجد في تاريخ نجد**، طبعة وزارات المعارف السعودية الثانية، ١٣٩١ هـ، ج ٢، ص ٢٢١.

٤ ـ قالت الدكتورة ميمونة (ص ٤٧): إن السعوديين أرادوا إقامة امبراطورية عربية. «وفي سبيل ذلك اصطدم الوهابيون بمعظم جيرانهم. فكل من لم يكن وهابياً اتّهم بالشرك والضلال. وكان لا بد أن تكون بداية تلك الحروب والنزاعات مع جيرانهم القريبين بني خالد أصحاب السلطان والنفوذ الواسع في كثير من الأجزاء الشرقية من جزيرة العرب. فأرادوا أن يقضوا على ذلك النفود ويخضعون (هكذا) تلك الممتلكات الواسعة لحركتهم فيتمكنون (هكذا) بذلك من الامتداد إلى أبعد من تلك الممتلكات في الخطوة التالية، لا سيما وأنهم يحملون لشيوخ بني خالد عداء سابق (هكذا) نتيجة لطردهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب من العيينة».

ولم تعز الدكتورة ميمونة قولها بأن «كل من لم يكن وهابياً اتّهم بالشرك والضلال» إلى أي مصدر. ومعلوم أن هذه المسألة مسألة مهمّة لا يجوز إلقاء القول فيها على عواهنه. و«الدراسة العلمية الموضوعية» تقتضي أن يرجع الباحث في مسألة كهذه إلى المصادر الأولية ليكون قوله مبنياً على أساس سليم. وكتابات علماء الدعوة في مقدمة المصادر التي يمكن أن يعتمد عليها لمعرفة موقفهم تجاه تلك المسألة المهمّة. ولو عادت الدكتورة ميمونة إلى كتابات الشيخ محمد نفسه ـ مثلاً ـ لرأته يقول:

«يجب ألاّ يكفّر أي إنسان إلا بعد معرفته للتوحيد وإصراره على العمل ضده»[1].

(١) ابن غنّام، المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٨.

ويقول في رسالته إلى العالم العراقي عبد الرحمن السويدي:

«وأما التكفير فأنا أكفّر من عرف دين الرسول، ثم بعد ما عرفه سبّه ونهى الناس عنه وعادى من فعله..»[1].

والمتأمل في كتابات الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه من العلماء يرى أن دعوتهم تركّز على وجوب إخلاص العبادة لله، ورفض كل ما يتعارض مع التوحيد مثل الاعتقاد بالأولياء. ومن اطلع على كتب علمائهم المعروفين، وهو ينشد الحق، سيجدها متّفقة مع النقل الصحيح والعقل السليم في قضية التوحيد الجوهرية. ولعلّ من أوضح الأمثلة على سلامتها ما أبداه مؤرخ مصر، عبد الرحمن الجبرتي، من إعجاب بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب[2]، وما أظهره علماء الأزهر من إقرار بصحتها عندما عرفوا مضمونها[3]؛ وذلك في وقت كان فيه حاكم مصر يقاتل السعوديين.

وإذا سلّم بصحة دعوة ابن عبد الوهاب فإن الدارس للمصادر الأولية يرى أن علماء مكة - ومن ورائهم علماء الدولة العثمانية بصفة عامة - هم الذين بدأوا بتكفيره، وأن شريف مكة، بناء على هذا التكفير سجن الحجاج المؤيدين له، ثم منعهم من

---

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٥٤.

(٢) عبد الرحمن الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، بيروت، دون ذكر لسنة الطباعة، ج ٢، ص ٥٩١.

(٣) انظر كتاب بوركهارت، وترجمة عنوانه بالعربية **ملاحظات عن البدو والوهابيين**، لندن، ١٨٣١م، ج ٢، ص ١١٣.

الحج[1]. واستمر هذا المنع أكثر من نصف قرن باستثناء عامين فقط[2].

وواضح أن الدكتورة ميمونة تميل إلى القول بأن آل سعود هم الذين بدأوا الحرب مع بني خالد. فما هي الحقيقة حول هذه القضية؟

كانت علاقة زعماء بني خالد بأمراء الدرعية سيئة قبل دعوة الشيخ محمد بدليل غزوهم لبلدتهم عام ١١٣٣ هـ[3]. ثم كان ما كان منهم من ضغط على ابن معمّر ليتخلّص من ذلك الشيخ قبل تبنّي آل سعود لدعوته[4]. وإذا كان هذا هو موقف زعماء بني خالد من آل سعود ودعوة الشيخ قبل تبنّيهم لها فمن الذي بدأ الآخر بالقتال آل سعود أم زعماء بني خالد؟

لقد مرّت فترة على استقرار ابن عبد الوهاب في الدرعية دون تدخل عسكري من زعماء بني خالد ضد الدولة السعودية القائمة على أساس دعوته. ومن الواضح أن أهم أسباب تأخر التدخل الخالدي انشغال زعماء بني خالد بخلافاتهم الداخلية. ولما استقرت الأمور لعريعر بن دجين جهز حملة عسكرية ضد آل سعود عام ١١٧٢ هـ، لكن تلك الحملة فشلت في تحقيق ما

---

(١) أحمد دحلان، **خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام**، القاهرة، ١٣٠٥ هـ، ج ٢، ص ٢٢٨.

(٢) ابن بشر، المصدر السابق، ج ١، ص ص ٣٧ و١٥٢؛ ابن غنّام، المصدر السابق، ج ٢، ص ص ٧٩ و ١٢٠.

(٣) ابن بشر، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٣.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣؛ ابن غنّام، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣.

كانت تصبو إليه[1]. وفي عام ١١٧٦ هـ قام عبد العزيز بن محمد بن سعود بهجوم خاطف على أراضي بني خالد[2]. وكان الهدف الواضح من ذلك الهجوم إشعار الزعامة الخالدية ومن يؤملون في مساعدتها من النجديين المعارضين لآل سعود بأن السعوديين قادرون على ردّ العدوان وإن أتى من بني خالد. ثم استغل زعماء بني خالد هزيمة سيد نجران للسعوديين عام ١١٧٨ هـ، فقاموا بحملة أخرى ضد الأراضي السعودية حتى وصلوا إلى الدرعية ذاتها، لكنهم ردّوا على أعقابهم[3]. وظل زعماء بني خالد لا يدعون فرصة إلا انتهزوها للقضاء على قوة آل سعود، كما حدث في غزوهم لأراضيهم عام ١١٨٨ هـ، وعام ١١٩٣ هـ، وعام ١١٩٥ هـ، وعام ١١٩٦ هـ[4].

وهكذا يتبيّن أن زعماء بني خالد هم الذين بدأوا الحرب ضد آل سعود. وهذا ما لا يتفق مع ما يفهم من كلام الدكتورة ميمونة.

ولما أصبح آل سعود قاب قوسين أو أدنى من استكمال توحيد نجد بدأت أنظارهم تتجه إلى منطقة الأحساء لإدخالها تحت حكمهم. وكانت الرغبة في نشر الدعوة التي تبنّوها ـ وهي

---

(١) ابن بشر، المصدر السابق، ج ١، ص ٥١؛ ابن غنّام، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٥.

(٢) ابن غنام، المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٢.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ص ٦٨ ـ ٧١.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ص ٨٩، ١٠٤، ١١٠، ١١٣ ـ ١١٤.

دعوة أثنت عليها الدكتورة ميمونة (ص ٤٦) سبباً من أسباب اتجاههم إلى تلك المنطقة. لكن من أسباب ذلك، أيضاً، ذلك الموقف العدائي الذي وقفه الزعماء الخالديون ضدهم طوال الفترة السابقة. وقد بدأت هجمات السعوديين على الأراضي التابعة لأولئك الزعماء عام ١١٩٨ هـ/١٧٨٣ م، واستمرت تلك الهجمات حتى انتزعوا حكم المنطقة من بني خالد عام ١٢٠٨ هـ/١٧٩٣ م[١].

٥ ـ قالت الدكتورة ميمونة (ص ٤٧) تحت عنوان «الهجمات الوهابية على الكويت»: «يمكن اعتبار سقوط حكومة بني خالد كبداية للعلاقات المباشرة بين الكويت والسعوديين».

وليس من المستغرب أن يختلف اسم أنصار دعوة ابن عبد الوهاب في العنوان عنه في الكلام الذي تلاه مباشرة. ذلك أن الدكتورة ميمونة نقلت الكلام التالي للعنوان نقلاً حرفياً من كلام الدكتور زكريا دون أن تضع ما يدلّ على أنها اقتبسته اقتباساً. وكانت قد ذكرت (ص ٤٧) أن حكم بني خالد انتهى عام ١٧٩٥ م/١٢١٠ هـ. وعلى هذا فعلاقة الكويت بالسعوديين ـ حسب قولها ـ لم تبدأ إلا بعد هذا العام.

ولو رجعت الدكتورة ميمونة إلى ابن غنّام لوجدت أن العلاقة بين قادة الدرعية وبين أمراء الكويت قد بدأت قبل عام ١٢١٠ هـ.

لقد كان هناك اتصال بين ابن صباح وبين الشيخ محمد بن

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ص ١٦٤ ـ ١٦٨؛ ابن بشر، المصدر السابق، ج ١، ص ص ١٣٠ ـ ١٣١.

عبد الوهاب. وربما كان هذا الاتصال قد تمّ في عهد مبكر من قيام الدولة السعودية الأولى. ذلك أن ابن صباح قد طلب من ابن عبد الوهاب أن يوضّح له دعوته. ومهما كان ذلك الطلب متأخراً فإنه كان قبل عام ١٢٠٦ هـ، وهو العام الذي توفي فيه الشيخ محمد. ولعلّ من الجدير بالإشارة، هنا، أن رسالة الشيخ إلى الأمير الكويتي كانت طويلة شاملة. ومما ورد فيها:

«فأنت يا من هداه الله لا تظن أن هؤلاء - يعني الذين يعتقدون في الأولياء - يحبون الصالحين. بل هؤلاء أعداء الصالحين. وأنت والله الذي تحب الصالحين لأن من أحب قوماً أطاعهم. فمن أحب الصالحين وأطاعهم لم يعتقد إلا في الله. وأما من عصاهم ودعاهم بزعم أنه يحبهم فهو مثل النصارى الذين يدعون عيسى ويزعمون محبته وهو بريء منهم»[1].

هذا عن العلاقات السلمية المباشرة بين قادة الدرعية وأمراء الكويت. أما العلاقات غير السلمية بينهما فقد بدأت، أيضاً، قبل عام ١٢١٠ هـ/١٧٩٥ م. ذلك أن السعوديين قاموا بغزوة ضد الكويت سنة ١٢٠٨ هـ، بعد إنهائهم لحكم بني خالد في الأحساء ذلك العام. وقد أشارت الدكتورة ميمونة نفسها إلى تلك الغزوة (ص ٤٨). فكيف تضع الدكتورة نهاية حكم بني خالد عام ١٢١٠ (ص ٤٧)، وتضع هذه النهاية بداية للعلاقات المباشرة بين الكويت والسعوديين (ص ٤٧) مع أنها تذكر غزو السعوديين للكويت عام ١٢٠٨ هـ؟.

---

(١) ابن غنّام، المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٧.

٦ ـ قالت الدكتورة ميمونة (ص ٤٧):

«دخلت الكويت في صراع طويل مع قوات الوهابيين».

وقالت (ص ٤٨):

«وقد شنّ الوهابيون أول (هكذا) غاراتهم المتعددة على الكويت عام ١٧٩٣ م، وكثرت هجماتهم عليها خلال الفترة ١٧٩٣ ـ ١٧٩٥ م».

ثم قالت (ص: ٤٩):

«ويمكن القول، بصفة عامة، بأن الغارات الوهابية (على الكويت) لم تنقطع منذ عام ١٧٩٣ م».

وعبارات الدكتورة ميمونة السابقة توحي بأن فترة دراستها المحددة بنهاية القرن الثامن عشر الميلادي قد شهدت حرباً طويلة الأمد بين السعوديين والكويتيين. «فالصراع طويل»، و«الغارات متعددة»، و«الهجمات قد كثرت»، بل إن الغارات لم تنقطع منذ عام ١٧٩٣ م. لكن الدكتورة نفسها عندما عادت إلى المصادر الأولية لم تذكر إلا غارتين سعوديتين على الكويت؛ إحداهما عام ١٢٠٨ هـ، والثانية عام ١٢١٢ هـ. فأين الصراع الطويل؟ وأين الهجمات الكثيرة؟ وأين الغارات التي لم تنقطع منذ عام ١٧٩٣ م؟

إن «الدراسة العلمية الموضوعية» ينتظر من القائم بها أن يستعمل عبارات علمية بعيدة عن المبالغات.

وماذا قالت الدكتورة ميمونة عن الغارتين؟

قالت (ص ٤٩):

«ويشير المؤرخان الوهابيان ابن بشر وابن غنّام أن أول غارة وهابية ضد الكويت وقعت سنة ١٢٠٨ هـ/١٧٩٣ م. وكان يقودها إبراهيم بن عفيصان الذي انتصر منذ أمد غير بعيد على بني خالد في عدة معارك. وكان قوام جيش ابن عفيصان عرب من نجد من الخرج والعارض وسدير».

ومع أن الدكتورة ميمونة أشارات في بداية حديثها، هنا، إلى مؤرخين فإنها أشارت في الهامش - بعد كلمة سدير - إلى ابن بشر فقط، ولم تشر إلى أي مصدر أو مرجع آخر.

ثم تابعت الدكتورة ميمونة حديثها قائلة:

«أما الغارة الثانية فقد حدثت سنة ١٢١٢ هـ/١٧٩٧ م، واشترك فيها - بخلاف سابقتها - أهل الأحساء في جانب الوهابيين. ويذكر المؤرخين الوهابيين (هكذا) أن أهل الكويت خرجوا لملاقاة الوهابيين خارج أسوار مدينتهم. وكان من بين الغنائم أسلحة ثمينة عاد بها ابن عفيصان ورجاله إلى بلدانهم بعد أن قتلوا ثلاثين من أهل الكويت».

ومرة أخرى مع أن الدكتورة ميمونة أشارات إلى «مؤرخين وهابيين» فإنها أشارت في الهامش إلى ابن غنّام فقط، ولم تشر إلى أي مصدر أو مرجع آخر.

وعبارة الدكتورة ميمونة الأخيرة توحي بأن ابن عفيصان كان قائد الغارة السعودية الثانية التي حدثت سنة ١٢١٢ هـ.

ويبدو أن الدكتورة ميمونة لم ترجع إلى ابن بشر ولا إلى ابن غنّام لا في حديثها عن الغارة الأولى ولا في حديثها عن الغارة الثانية.

فلو رجعت إلى ابن بشـر في الغـارة الأولى لمـا قـالت: «ابـراهيم بن عفيصان الـذي انتصر منـذ أمـد غيـر بعيـد على بني خالد في عدة معارك» ذلك أن الذي كان قد انتصر على بني خالد سليمان بن عفيصان لا إبراهيم[1]. وقد ذكر ابن بشر أن سليمان توفي عام ١٢٠٧ هـ[2]. ولو رجعت الدكتورة ميمونة إلى ابن بشر لوجدت أنه قال: «سار إبراهيم بن عفيصان بأهل بلدان الخرج وما يليهم من بلدان النواحي. . .»[3] وعبارته لا تنص على أهل العارض وسدير، وتفيد بأن جيش ابراهيم كان من الحاضرة «أهل بلدان»، لا كما توحي به عبـارة الدكتـورة «عـرب من نجد» التي تـطلق، غالبـاً، على الباديـة. بـل إن الدكتورة نصت في موضع آخر (ص ٢٤) على أن الجيش كان «من قبائل الخرج والعارض والسدير». وما ذلك الاختلاف إلا نتيجة، فيما يبدو، لنقلها حرفياً ما قاله غيرها دون تأمّل. فقد قالت: «عرب من نجد» لأنها ناقلة في هذا الموضع عن أبي حـاكمة، وقـالت: «قبائـل» لأنها نـاقلة في ذلك المـوضع من زكريا.

ولو رجعت الدكتورة ميمونة إلى ابن غنّام ـ كما ذكرت ـ في حديثها عن الغارة السعودية الثانية على الكويت لما عبّرت بما يفهم منه أن قائـد الغارة كـان إبراهيم بن عفيصـان. ذلك أن

---

(١) ابن بشر، المصدر السابق، ج ١، ص ص ١٠٠، ١٠١ و١١١.
(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٠.
(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٣.

ابن غنّام قد ذكر بأن قائدها كان منّاع أبا رجلين[1]. ولو رجعت إلى ابن غنّام، أيضاً، لما قالت: «واشترك فيها أهل الأحساء في جانب الوهابيين». ذلك أن ابن غنّام قد ذكر بأن جيش السعوديين كان من أهل الأحساء. وهناك فرق بين اشتراك أهل الأحساء في الجيش وبين كون الجيش منهم.

ومن يرجع إلى أبي حاكمة في حديثه عن الغارتين السعوديتين على الكويت ـ والدكتورة لم تشر إليه في كلامها عنهما ـ يجده يقول:

«ويذكر المؤرخان الوهابيان ابن غنّام وابن بشر غارتين وهابيتين وجهتا ضد الكويت. أما الأولى فوقعت في سنة ١٢٠٨ هـ/١٧٩٣ م. وكان يقود الوهابيين إبراهيم بن عفيصان الذي كان قد كسب منذ أمد غير بعيد معارك ضد بني خالد في الأحساء. أما جيش ابن عفيصان. فكان قوامه عرب من نجد من الخرج ومن العارض ومن سدير. . . أما الغارة التالية فقد حدثت في سنة ١٢١٢ هـ/١٧٩٧ م، واشترك فيها ـ بخلاف السابقة ـ بعض أهل الأحساء في جانب الوهابيين. ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن المؤرخين الوهابيين عندما يتحدثان عن الهجوم الوهابي الأول يذكران بأن أهل الكويت قد خرجوا لملاقاة الوهابيين خارج أسوار مدينتهم، وأنه كان من بين الغنائم التي كسبها الوهابيون أسلحة شهيرة وثمينة. عاد ابن عفيصان ورجاله بغنائمهم إلى بلدانهم في نجد بعد أن قتلوا ثلاثين من

---

(١) ابن غنّام، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤٤.

أهل الكويت»[1].

٦ - وإذا كان من الواضح أن الدكتورة ميمونة قد نقلت ما قاله الدكتور أبو حاكمة عن الغارتين نقلاً يكاد يكون كله حرفياً دون أن تشير إلى اعتمادها عليه فإن الحظ لم يسعفها في إتقان النقل هذه المرة. فحذفت من عبارات الدكتور ما تسبّب في نصبها لمرفوعين «ويذكر المؤرخين الوهابيين» لأنهما منصوبان في كلام الدكتور «أن المؤرخين الوهابيين»، وفي الخلط بين ما وقع في الغارة الأولى وما وقع في الغارة الثانية.

والواقع أن بريدجز ورينو لم يذكرا بالتحديد إلا غارة سعودية واحدة على الكويت خلال الفترة الممتدة من ١٧٩٣ م إلى ١٧٩٥ م. وقد اختلفا في تحديد عدد المغيرين؛ فأحدهما يذكر أنهم كانوا خمس مئة رجل، والآخر يذكر أنهم كانوا ثمانية أضعاف هذا العدد. على أن المهمّ هو أن بريدجز قد غادر الكويت عام ١٧٩٤[2]. ولهذا فإن الغارة المتحدث عنها لا بد أن تكون قد حدثت في ذلك العام أو العام السابق له.

وبالرجوع إلى كل من ابن غنّام وابن بشر يتضح أن الغارة السعودية الأولى على الكويت حدثت عام ١٢٠٨ هـ، وأنها حدثت بعد عمليات حربية قام بها السعوديون في منطقة الأحساء ذلك العام. ولهذا فإن من المرجح حدوث تلك الغارة في النصف الأخير من العام لا في النصف الأول منه. وعام ١٢٠٨ هـ لا ينتهي إلا في ١٧٩٤/٧/٢٨ م. وهكذا يتضح أن

(١) أبو حاكمة، المصدر السابق، ص ١٢٦.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٧.

ما ذكره كل من ابن غنّام وابن بشر وبريدجز ورينو هو غارة واحدة؛ وهي تلك التي قادها إبراهيم بن عفيصان.

وإذا كان لم يحدث أي هجوم سعودي على الكويت قبل غزوة ابن عفيصان فإنه لم يرد في المصادر الأولية المتوافرة ما يثبت حدوث أي هجوم سعودي على الكويت بعد تلك الغزوة حتى نهاية القرن الثامن عشر إلا ذلك الهجوم الذي حدث عام ١٢١٢ هـ/١٧٩٧ م بقيادة منّاع أبا رجلين.

ولعلّ مما هو جدير بالذكر وإثارة التساؤل أن الهجوم السعودي على الكويت عام ١٢١٢ هـ كان بقيادة منّاع أبا رجلين الزعبي، وأن غزواً انطلق من الكويت ذلك العام بقيادة مشاري آل حسين وهاجم فريقاً من زعب يبدو أنه كان تابعاً لآل سعود. فأي العملين كان الأول؟ وماذا يوحي به كون الجيش السعودي بقيادة رجل من زعب وكون الذين هاجمهم الغزو المنطلق من الكويت، أيضاً، فريقاً من زعب؟

وإذا كان ليس من أهداف هذا التعليق دراسة الظروف التي أدّت إلى الهجومين السعوديين على الكويت والهجوم المنطلق من الكويت ضد فريق تابع لآل سعود فإن المهمّ هنا إيضاح ما يرجح ضعف أقوال من يتحدثون عن هجمات سعودية كثيرة على الكويت خلال القرن الثامن عشر الميلادي.

١٧ ـ قالت الدكتورة ميمونة (ص ٤٩):

«وقد تقدم الوهابيون للاستيلاء على شبه جزيرة قطر بعد أن ثبّتوا أقدامهم في الأحساء. غير أن ذلك لم يكن في غفلة من العثمانيين في العراق الذين تنبهّوا لخطر تزايد النفوذ الوهابي

فحركوا حملة لمواجهة الوهابيين بقيادة ثويني باشا شيخ المنتفك عام ١٧٨٧ م. وبعد فشل هذه الحملة واصل الوهابيون حملاتهم واعتداءاتهم على أطراف العراق. فأرسل العثمانيون ثويني مرة أخرى بحملة عام ١٧٩٦ م حيث لقي مصرعه. فقام الوهابيون بغزوة قادها سعود مغيراً بجماعته على الشمال فهاجموا حتى العراق. فلما رأى سليمان باشا والي العراق الخطر الوهابي يدق بابه لم يجد بداً من إعداد حملة ضد الوهابيين عهد بقيادتها إلى علي باشا...».

وقد تحدث الدكتور أبو حاكمة عن المسائل التي تناولتها الدكتورة ميمونة قائلاً: «أخذ الوهابيون في الاستيلاء على شبه جزيرة قطر بعد أن ثبّتوا أقدامهم في الأحساء. غير أن ذلك لم يكن معناه أن العثمانيين في العراق غفلوا عن تزايد النفوذ الوهابي في تلك الديار. فبعد فشل حملة ثويني بقليل قاد سعود جماعات الوهابيين مغيراً على الشمال وهاجم ضواحي العراق. ولما رأى سليمان باشا والي بغداد الخطر الوهابي يقف على عتبة بيته رأى أن لا مندوحة عن إعداد حملة ضد الوهابيين. عهد سليمان باشا بقيادة هذه الحملة إلى كيخاه علي باشا»[1].

ولقد أشارت الدكتورة ميمونة إلى أبي حاكمة في الهامش، لكنها لم تضع علامات تدلّ على أنها اقتبست ما اقتبسته من عباراته. على أنه من الواضح أن أبا حاكمة لم يشر إلى حملة ثويني الأولى التي حدثت سنة ١٢٠١ هـ/١٧٨٦ م. وقد أوقع إيراد هذه الحملة

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

بين طيات الكلام المنقول من أبي حاكمة الدكتورة ميمونة في خطأ تاريخي. ذلك أنها جعلت الحملة نتيجة لتثبيت السعوديين أقدامهم في الأحساء. وهذا التثبيت لم يحدث قبل عام ١٢٠٨ هـ، أما حملة ثويني الأولى فقد حدثت في مستهل عام ١٢٠١ هـ/١٧٨٦ م[١].

وقد أظهرت الدكتورة ميمونة حملة ثويني الأولى على أنها ردّ فعل عثماني لتزايد النفوذ السعودي في شرق الجزيرة العربية، وأظهرت هجمات السعوديين على أطراف العراق بأنها اعتداءات، كما أظهرت حملة ثويني الثانية على أنها ردّ عثماني على تلك الاعتداءات. فما هي الحقيقة؟

لقد حدثت ثورة ضد زعيم بني خالد، سعدون بن عريعر، الذي كان معادياً للسعوديين منذ توليه الحكم عام ١١٨٩ هـ حتى الإطاحة به عام ١٢٠٠ هـ. وكانت الثورة على سعدون بدعم من زعيم المنتفق ثويني بن عبد الله. ولما أطيح بسعدون لجأ إلى الدرعية، فقبله قادتها[٢]. وقد أثار قبول هؤلاء القادة لسعدون حفيظة ثويني، فقاد حملة من فئات المنتفق وأهل الزبير وشمّر وطيء، وتوغل في الأراضي السعودية حتى حاصر بريدة. لكن صمود هذه البلدة أمامه؛ إضافة إلى ما ورد إليه من أخبار مشكلات حدثت في موطنه، جعله ينسحب بسرعة إلى العراق[٣]. وكانت زعامة بني خالد حينذاك لا تزال حاكمة لمنطقة الأحساء التي تفصل بين السعوديين

---

(١) ابن بشر، المصدر السابق، ج ١، ص ص ٩٨ - ٩٩.
(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٨.
(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٩.

في نجد وبين العثمانيين في العراق. ولم تكن الدولة العثمانية بعد قد أدركت قوة السعوديين. وكان ردّ الفعل السعودي على هجوم ثويني أن قام سعود بن عبد العزيز بغزو للشمال. ولما وصل إلى الصمان وجد ثويني بن عبد الله مع فئات من قبيلته، فهاجمهم. وكان ثويني حينذاك قد عزل عن زعامة المنتفق. ثم تابع سعود سيره حتى التقى مرة أخرى بفئات من المنتفق بين سفوان والمطلاع، فهاجمهم[1]، ولما أعيت ثويني بن عبد الله الحيل أمام زعيم المنتفق الجديد المؤيد من والي بغداد قدم إلى الدرعية حيث أكرمه قادتها تماماً كما أكرموا قبله نظيره في معاداتهم سعدون بن عريعر[2]. ثم عاد ثويني بعد ذلك إلى العراق، وأعيد إلى زعامة قبيلته.

وبذلك يتضح أنه لم يحدث في تلك الفترة هجمات سعودية على العراق باستثناء غزوة سعود التي وصلت إلى المطلاع، والتي كانت رداً على حملة ثويني على الأراضي السعودية.

أما حملة ثويني الثانية فقد جهزها والي بغداد سنة ١٢١١ هـ/١٧٩٧ م. ولم يكن السبب الوحيد لها ما حققه السعوديون من نجاح في شرق الجزيرة العربية. بل ربما كان أهم من ذلك ما حققوه من نجاح ضد شريف مكة، الذي بدأ بحربهم سنة ١٢٠٥ هـ/١٧٩٠ م. فقد تمكنت قوات السعوديين من تحقيق نصر عظيم على قوات الشريف قرب الجمانية عام ١٢١٠ هـ[3]. وكان هذا النصر قد نقل موقف السعوديين من الدفاع إلى الهجوم. ومع أهمية

---

(٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٨.
(٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٨.
(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣٦

شرق الجزيرة العربية لدى العثمانيين فإن أهمية الحجاز أعظم وأكبر.

ومن الثابت، أيضاً، أن السعوديين بدأوا محاولاتهم لإدخال شبه جزيرة قطر تحت حكمهم قبل أن يثبّتوا أقدامهم في الأحساء. فقد غزاها سليمان بن عفيصان عام ١٢٠٢ هـ[١]، ثم غزاها ابراهيم بن عفيصان عام ١٢٠٨ هـ[٢].

وإذا كان غزو سعود لأطراف العراق سنة ١٢٠٣ هـ مطاردة لقبيلة المنتفق ورداً على حملة ثويني الأولى فإن غزوه لجنوب العراق عام ١٢١٢ هـ كان رداً على حملة ثويني الثانية، وعقاباً لفئات القبائل التي اشتركت معه في تلك الحملة والتي كانت تعيش في المنطقة حينذاك[١]. وما دام هجوم السعوديين على أطراف العراق رداً على حملتين وجهتا من العراق ضدهم فهل كلمة «اعتداءات» هي الوصف المناسب لما قاموا به؛ خاصة إذا وردت الكلمة في «دراسة علمية موضوعية»؟

وبعد. فإن القارىء الكريم يمكن أن يرى - في ضوء هذا التعليق - ما إذا كانت كتابة الدكتورة ميمونة تتّصف بالصفات التي وضعتها أمام عينيها لإعادة كتابة تاريخ الكويت أم لا تتّصف بتلك الصفات.

وفق الله الجميع لما فيه الخير

---

(١) ابن بشر، المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٥٠.

عود على بدء

عود على بدء

كنت قد كتبت تعليقاً عنوانه «الدكتورة ميمونة الصباح وكتابة تاريخ الكويت» على بحث نشر لها في مجلة المؤرخ العربي بعنوان «سياسة الكويت الخارجية خلال القرن الثامن عشر». وقد نشر تعليقي على بحثها في صحيفة القبس بتاريخ ١٩٨٩/١١/١ م.

ولقد تكرّمت الدكتورة ميمونة فردّت على ذلك التعليق، ونشر ردّها في الصحيفة المذكورة بتأريخ ١٩٨٩/١١/٧ م.

وفي بداية هـذه السطور أودّ أن أعـرب عن شكري الجـزيل للدكتورة ميمونة على ذلك الردّ، وأستميحها العذر في التعلِيق عليه كي تتضح الصورة أكثر فأكثر للقارىء الكريم.

١ ـ استهلت الدكتورة ميمونة ردّها بعتبها عليّ في عدم نشر تعليقي السابق في مجلة علمية. والواقع أن الموضوعات التاريخية من الموضوعات التي تهمّ قارىء الصحف المثقف ثقافة عامة كما تهمّ الباحثين. ومع ذلك فإن كـان في نشر ذلـك التعليق في صحيفة يومية ما يوجب اللوم فإنّي أعبّـر للدكتورة ميمـونة عن أسفي الشديد.

٢ ـ تفادت الدكتورة ميمونة في ردّها أن تناقش النقاط الـواردة في التعليق السابق مناقشة تردّ على تلك النقاط ردّاً واضحاً. وردّت

رداً عاماً مجملاً سيرى القارىء الكريم في هذه السطور أنه لا يعبّر عمّا جاء في التعليق تعبيراً صادقاً؛ ناهيك عن أن يكون مقنعاً في تفنيد ما ورد في تلك النقاط.

٣ ـ قالت الدكتورة ميمونة في ختام ردّها: إن موضوع الدراسة التي تناولها التعليق السابق «أمر محسوم أساساً بعد تحكيمها وإجازتها من قبل أساتذة أفاضل من كبار المختصين يشهد لهم الجميع بالكفاءة العلمية وأكن لهم كل تقديري واحترامي».

وإني لأحترم الأساتذة الأفاضل الذين حكّموا دراسة الدكتورة ميمونة وأقدّرهم احترامي وتقديري للدكتورة نفسها. لكن من غير المسلّم به أن كل دراسة محكّمة لا يمكن أن يوجد فيها ما يعلّق عليه ويناقش. وكل من له اهتمام بالبحوث العلمية يرى تعليقات حول دراسات نشرت بعد تحكيمها. ولم يعترض على كتّاب تلك التعليقات بأن ما ورد في الدراسات المحكّمة أمر محسوم أساساً. على أن المهمّ أن ينظر إلى ما ورد في التعليق ذاته. فإن كان صحيحاً قُبل لأن الحق أحق أن يتّبع، وإن كان غير صحيح بيّن عدم صحته.

٤ ـ قالت الدكتورة ميمونة في حديثها عن تصنيف المراجع: إنها رجعت لجميع المراجع الأساسية والثانوية... وغيرها من المصادر الأساسية مثل الوثائق؛ «وذلك من خلال دور الوثائق البريطانية ومن مكتبة دار الكتب في القاهرة. وكان ذلك بإشراف أستاذي الفاضل الدكتور جمال زكريا الذي أشرف على رسالتي للماجستير تحت عنوان العلاقات الكويتية النجدية في الفترة بين ١٨٩٦ ـ ١٩٣٩. وقد يكون إشراف الدكتور جمال زكريا على

رسالتي للماجستير من العوامل البارزة أحياناً في التوافق في بعض المفاهيم المتعلقة بتاريخ الكويت بتلك المرحلة».

وقارىء التعليق السابق يرى أني لم أذكر فيه عدم رجوع الدكتورة ميمونة إلى مصادر ومراجع متنوعة بصفة عامة. بل ذكرت فيه أن هناك من المسائل ما قالت الدكتورة إنها رجعت فيها إلى مصدر معيّن، وأنّه بالرجوع إلى ذلك المصدر تبيّن أنه لم يذكر ما قالت إنه ذكره. وهذا يرجح أنها لم ترجع إليه في المسألة التي تحدثت عنها، بل اعتمدت على مرجع ثانوي أشار إلى أنه رجع إلى المصدر المذكور. فإن قالت الدكتورة إنها رجعت إلى المصدر الذي نسبت إليه ما لم يقله فهذا لا يقل خطأ عن قولها إنها رجعت إليه وهي لم ترجع.

وقارىء التعليق السابق. أيضاً، يرى أني تناولت فيه نقاطاً وردت في دراسة للدكتورة ميمونة عن سياسة الكويت الخارجية في القرن الثامن عشر. ورسالتها للماجستير، التي أشارت إليها في ردّها، لا علاقة لها بذلك التعليق؛ إضافة إلى أنها تتناول فترة تبدأ بحوالى قرن بعد نهاية الفترة التي تناولتها دراستها المعلّق عليها.

٥ ـ قالت الدكتورة ميمونة: «إن مطابقة أي مرجع، أو مفهوم، لا يعني الاقتباس المحظور على الباحث، علماً بأن الاقتباس أمر مقبول علمياً. وكان بإمكاني اللجوء إليه لو أردت مع وضع الأقواس».

ثم قالت:

«وإذا جاءت عبارة من دراسة للدكتور جمال زكريا أو غيره

ضمن فقرة من دراستي فإنها وردت للتأكيد والاتفاق في الرأي وهي تذيل دائماً بالإشارة للمرجع».

ثم قالت:

«فبعد الإشارة للمرجع في الهامش لا ضرورة لوضع الأقواس المتّبعة في حالة الاقتباس الحر في الفقرة، وبخاصة عندما تكون العبارة تتطابق مع المفهوم المقصود، وليست نصاً كاملاً للفقرة».

وما ورد في الفقرات السابقة من ردّ الدكتورة ميمونة لا يخفى على القارىء الكريم ما في بعضه من تناقض. ولعل خير توضيح لعدم انطباقه مع واقع عملها في دراستهامقارنة ما ورد في دراستها (ص ٢٤)، بكلام الدكتور زكريا (ص ٩٦). وهي لم تشر في هامش دراستها إلى أنها اعتمدت على الدكتور زكريا لا بوضع أقواس تفيد اقتباسها منه، ولا بالإشارة إليه في الهامش.

٦ ـ قالت الدكتورة ميمونة: «إن الباحث غير ملزم بسرد تفاصيل لمفهوم معيّن لا تخدم الهدف من البحث. وهذا ينطبق على ما أورده الدكتور عبد الله حول مقتل تويني باشا».

ومن قرأ تعليقي السابق يدرك غرابة ما ذكرته الدكتورة ميمونة هنا. فلم يرد في ذلك التعليق سرد تفاصيل عن مقتل ثويني. وكل ما ورد فيه ذكر ما قالته الدكتورة نفسها عنه. وذكر ما قاله الدكتور زكريا مشابهاً، أو مطابقاً، لما ذكرته. وقد أوضحت في التعليق أن ما نسبته إلى ابن غنّام عن مقتل ثويني غير صحيح، مما يرجح عدم رجوعها إلى ابن غنام في تلك المسألة.

فالهدف من إيراد ما أوردت في التعليق إيضاح مسألة تتعلق باستعمال المصادر وحقيقة ما قالته الدكتورة من رجوع إليها.

٧ - قالت الدكتورة ميمونة: إنها رجعت إلى ابن بشر وابن غنام فيما يتعلق بالهجمات الوهابية على الكويت، وإنها أخذت عن أبي حاكمة ما أورد عنهما، وأشارت إلى ذلك كما في صفحة ٤٨.

وفي ظني أنه لا داعي لتفادي حقيقة ما ورد في تعليقي السابق حول ما أشير إليه هنا بمثل هذه الطريقة. لقد تناولت في التعليق نقطتين مهمتين:

إحداهما: ما ذكرته الدكتورة ميمونة في دراستها عن غارات وهابية لم تنقطع على الكويت خلال القرن الثامن عشر، وعن صراع طويل. وقد بينت ما يرجح أنه لم يحدث خلال الفترة المذكورة إلا غارتان سعوديتان على الكويت، وغارة كويتية على أتباع السعوديين.

ثانيهما: أن ما ذكرته الدكتورة ميمونة عن الغارتين السعوديتين؛ نقلاً عن ابن غنام وابن بشر غير صحيح. فهي تذكر في المتن أن المؤرخين ذكرا كذا وكذا، ثم تشير في الهامش إلى أحدهما دون الآخر. وهي عندما أشارت إلى ابن بشر في الهامش كانت قد ذكرت في المتن بأن قائد الغارة الوهابية الأولى ضد الكويت إبراهيم بن عفيصان الذي وصفته بأنه انتصر منذ أمد غير بعيد على بني خالد في عدة معارك. وقد بيّنت في التعليق بأن إبراهيم بن عفيصان لم ينتصر على بني خالد، وإنما الذي انتصر عليهم سليمان بن عفيصان

المتوفى قبل تلك الغـارة بعام. وهـذا ما يـرجح عـدم رجوع الدكتورة إلى ابن بشر في هذه المسألة لأن ابن بشر قد ذكر وفاة سليمان في العام المذكور.

وقد بيّنت في التعليق، أيضاً، أن ابن عفيصان لم يكن قائد الغارة السعودية الثانية كما قالت الدكتورة ميمونة ناسبة ذلك إلى ابن غنام. ذلك أن ابن غنام نص على أن قائد هذه الغارة الثانية مناع أبا رجلين. وهذا يرجح عدم رجوع الدكتورة إلى ابن غنام في هذه المسألـة. وبالإضـافة إلى ذلـك فقد بيّنت في التعليق خلط الدكتورة ميمونة بين ما وقع في الغارة الأولى وما وقع في الغارة الثانية. وبهذا يتضح أن ما ورد في التعليق شيء يختلف عما ردّت به الدكتورة ميمونة عليه.

٨ ـ مسألة تسمية دعوة ابن عبـد الوهـاب. لقد أشيـر في التعليق السابق إلى عدم اتّباع الدكتورة ميمونة تسمية معيّنة لتلك الدعوة مهما كانت هذه التسمية. وقد ردّت الدكتورة على ذلك بقولها: إن تعدّد تلك المصطلحات يتفق مع التسلسل التاريخي. وإن تسميتها بالسعودية «جاء بعد أن احتضنها الأمير محمد بن سعود حيث اتحدت قوته السياسية مع قـوة محمد بن عبـد الوهـاب الروحية لتعـطي الدعـوة مزيـداً من القوة والانتشـار. وبما أن السلطة السياسية تتمثل بالأسرة السعودية الحاكمة، وهم الذين حملوا لواء الدعوة وعملوا على نشرها، فمن الطبيعي أن يطلق عليها صفة السعودية في هذه المرحلة».

وردّ الدكتورة ميمونة هذا جميل لو كان ما ورد في دراستها ينسجم معه. فهي، هنا، تقول بأن من الطبيعي أن يطلق على

دعوة ابن عبد الوهاب بعد ارتباطه بالأمير محمد بن سعود صفة السعودية، وبالتالي فإنه سيطلق على انصارها ـ وفي طليعتهم آل سعود ـ صفة السعوديين. لكن المشكلة أن الدكتورة، وهي تتحدث عن أمور متصلة بقادة الدرعية عامي ١٢٠٨ هـ و ١٢١٢ هـ، تصف أولئك الأنصار بالوهابيين. فالغارة الوهابية الأولى والغارة الوهابية الثانية على الكويت ـ كما تسمّيهما ـ وقعتا في العامين المذكورين. ومن المعلوم أن احتضان الأمير محمد بن سعود لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان سنة ١١٥٧ هـ، وأن وفاة ذلك الأمير نفسه كانت سنة ١١٧٩ هـ.

٩ ـ قالت الدكتورة ميمونة: «إنني في دراستي أكبرت الدعوة وأعطيتها حقها من التقدير في تعريفي لها بأنها حركة دينية إصلاحية. . . بل إنني دافعت في متن الدراسة وفي الهامش عن الدعوة في مواجهة كتابات الباحثين الأوروبيين الحافلة بالكثير من الأخطاء في هذا الشأن».

وكان تعليقي السابق منصباً على عدم اتّباع الدكتورة ميمونة تسمية معيّنة لدعوة ابن عبد الوهاب وأنصارها، كما ذكر، ولم يكن منصباً على تعريفها لها. لكن ما دامت الدكتورة ميمونة قد أشارت في ردّها إلى تعريفها لها وموقفها منها فلا بأس من مناقشة ما أشارت إليه.

أ ـ قالت الدكتورة إنها عرفت الدعوة بأنها حركة دينية إصلاحيّة. والتعريف الذي عرفت الدعوة به ونسبته في ردّها إليها هو:

«الوهابية حركة إصلاحية سنية. . .» ثم قالت: «وتقوم

هذه الدعوة الدينية على الوحدانية، وعدم الشرك بالله بأية صورة كانت. وبما أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب حين دعا إلى دعوته تلك لم يبتدع أي شيء جديد. لذا فهي خالية من أي تعاليم جديدة غير موجودة في الإسلام». (ص ٤٦ من الدراسة).

وقد أشارت الدكتورة في الهامش إلى اعتمادها في ذلك على أبي حاكمة. والواقع أن الدكتور أبا حاكمة قد قال (ص ١٠٣) ما قالته الدكتورة ميمونة نصاً وفصاً كما يقولون. وليس المهمّ أن الدكتورة لم تضع أقواساً تفيد الاقتباس ما دامت لاترى داعياً لوضعها. لكن من الواضح أن التعريف الذي أوردته في الدراسة، ونسبته في الرّد إلى نفسها، لم يكن في حقيقته إلاّ تعريف أبي حاكمة. وهي - في أحسن الأحوال - نقلت ذلك التعريف علامة على موافقتها إيّاه.

ب - قالت الدكتورة: إنها دافعت عن الدعوة في هامش الدراسة. والواقع أن كل الذي قالته في الهامش ما يلي: «لم يفهم كثير من الباحثين الأوروبيين المعاصرون (هكذا) للشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته وأصولها لذا حفلت كتاباتهم عنها بالكثير من الأخطاء والتي دعت بعض الكتاب الأوروبيون (هكذا) الآخرون (هكذا) من الذين كتبوا بعدهم ومنهم بوركهارت في ملاحظات على البدو والوهابيين ص ٢٧٧».

ومن الواضح أن عبارة الدكتورة، المشتملة على بعض الأخطاء اللغوية، غير مكتملة المعنى؛ إذ لم يبيّن فيها

العمـل الذي دعت أخـطاء الأوروبيين السابقين خَلَفهم إلى القيام به. لكن هل كان هذا الذي ذكرته الدكتورة ميمونة غير مكتمل في هامش دراستها من دفاعها أصلاً؟

إن من يرجع إلى كتاب الدكتـور أبي حاكمـة (ص ١٠٣) يجده قد ذكر في هامش (٢) من تلك الصفحة ما يلي:

«إن الكتـابات التي دوّنهـا المعـاصـرون للشيـخ من أوروبيين ومسلمين مضللة إلى حـد بعيد. ولقـد انتقـد أقوالهم الخاطئة هذه كتاب أوروبيون كتبـوا من بعدهم مثل بوركهارت في كتابه ملاحظات عن البدو والوهابيين ص ٢٧٧»

فهل نقلت الدكتورة ميمونة عن الدكتور أبي حاكمـة حتى هـامشه؟ الله أعلم. لكن عبـارة الـدكتـور، على الأقل، مكتملة المعنى.

ثم إن أبا حاكمة ـ وتبعاً له الدكتورة ميمونة ـ لم يكن مـوفقاً في نقله عن بـوركهارت. ذلـك أن كتـاب هـذا الـرحالـة يتكوّن من جـزأين. وقد أشـار الـدكتـور إلى الصفحة، لكنه لم يشر إلى الجزء. على أن من يرجع إلى بـوركهارت لا يجـد له نقـداً لأقوال من سبقـه من الأوروبيين لا فـي صفحة ٢٧٧ من الجزء الأول، ولا في صفحة ٢٧٧ من الجزء الثـاني. وبما أن الـدكتور أبـا حاكمة أخـطأ في نقله عن بوركهـارت فـإن الدكتـورة ميمونة وقعت في الخطأ ذاته.

جـ ـ قالت الدكتورة ميمونة: «وبالنسبة لإشارتي عن التشدّد والتعصب فما هي إلا وجهة نظر ممكن أن تقابلها وجهة نظر أخرى. ولا تدخل ضمن المواقف غير المحايدة».

وللقارىء الكريم أن يحكم فيما إذا كانت العبارات التي وصفت فيها الدكتورة ميمونة أنصار الدعوة بالتعصب والتشدّد في حربهم مع خصومهم تحمل موقفاً محايداً أم لا. وإذا كان من الثابت أن خصوم أنصار دعوة ابن عبد الوهاب خارج نجد هم الذين بدأوهم بالتكفير والقتال والمنع من الحج فمن هو المتشدّد والمتعصّب؟ ثم هل ينسجم وصف الدكتورة ميمونة لأنصار الدعوة بهذين الوصفين مع إشادتها بالدعوة وأنصارها في موضع آخر من دراستها؟ وإذا ورد في سياق مؤرخين من أنصار الدعوة وصف للخصوم ولبعض المناطق ألا يمكن أن يفسر بأنه ردّ فعل لاتهامات أولئك الخصوم؟ على أنه من المعلوم أن بعض العقائد والأعمال المنتشرة في المنطقة حينذاك كانت لا تتفق مع العقيدة الإسلامية الصافية. ومهما يكن من أمر فإن المسائل المتصلة بالعقيدة، كالتكفير، ينبغي أن يعتمد فيها على كلام علماء الدعوة المتحدث عنها وشرحهم لأصولها أكثر مما يعتمد على كلام وقع في ثنايا حديث مؤرخيها عن حوادث معيّنة.

د ـ قالت الدكتورة ميمونة، وهي تتحدث في دراستها عن الوهابية (ص ٤٦) «توجه الشيخ محمد بن عبد الوهاب

إلى مواطنيه وإلى كافة المسلمين بدعوة للعودة إلى تفهم أصول الدين الصحيحة والتقيد بجوهر تعاليمه المستمدة من كلام الله».

وقد أشارت الدكتورة في الهامش إلى أنها اعتمدت في ذلك على كتاب **لمع الشهاب**.. (ص ٢٦٣ ـ ٢٧٧)

ومن ينظر إلى قائمة مصادر دراستها يجد أنها رجعت إلى طبعة بيروت عام ١٩٦٧ م من هذا الكتاب. وهذه الطبعة تنتهي صفحاتها مع ملحقاتها وفهارسها بصفحة ٢٣١. فمن أين أتت الدكتورة ميمونة بالصفحات التي ذكرتها؟ الله أعلم. وعلى أية حال فالمعروف عن مؤلف اللمع أنه سمّى دعوة الشيخ محمد بدعة (انظر كتابه ص ٢٧). وقد ردّ في آخر كتابه على عدة مسائل نسبها إلى ابن عبد الوهاب (ص ١٨٧ ـ ١٩٦).

على أن كاتب هذه السطور يدرك ـ كما يدرك آخرون ـ أن لدعوة ابن عبد الوهاب إيجابياتها، وفيها ما لا يوافق عليه بعض علماء الدين، وأن لأنصارها مواقفهم المشهودة، لكن في بعض تصرفاتهم ما لا يسلّم بصحته. ولم يكن التعليق السابق دفاعاً عن تلك الدعوة وأولئك الأنصار بقدر ما كان إيضاحاً لنقاط معيّنة، أكثرها منهجي، وردت في دراسة الدكتورة ميمونة المعلّق عليها.

١٠ ـ قالت الدكتورة ميمونة: إن ادعاء الدكتور عبد الله باتخاذي موقفاً غير محايد تجاه السعوديين ادعاء باطل. وذكّرت كاتب هذه

السطور بأن السعوديين أهلها وعشيرتها وقبيلتها. وذلك بحكم انتمائها لأسرة الصباح التي تربطها بأسرة آل سعود علاقات القربى القوية.

وفي كلام الدكتورة ميمونة، هنا، أمران:

أحدهما: قولها بأني ادّعيت اتخاذها موقفاً غير محايد تجاه السعوديين. ولو رجعت الدكتورة إلى التعليق بهدوء وتأمل لوجدت أني قلت إنها استعملت عبارات تدلّ على موقف غير محايد تجاه السعوديين، وأوردت أمثلة لتلك العبارات. وبالإضافة إلى تلك العبارات فإن وصف هجماتهم على العراق العثمانية، التي كانت رداً على هجمات ضدهم، بأنها اعتداءات أمر واضح المدلول. على أني حاولت أن أجد مخرجاً لاستعمال الدكتورة للعبارات المذكورة، فقلت بعد إيرادها: لعلّ ثقة الدكتورة في المراجع الثانوية التي نقلت عنها جعلتها تستعمل تلك العبارات دون أن تفكّر جدياً في مدلولها.

أما الأمر الثاني: فهو إظهار الدكتورة ميمونة صلة القربى بينها وبين آل سعود وكأنها سبب من أسباب عدم إمكانية اتخاذها موقفاً غير محايد تجاههم. وأني لأقدّر انتماء الدكتورة ميمونة كما أقدّر انتماء الأسرتين الكريمتين آل صباح وآل سعود إلى أرومة عربية سواء كانت الصلة بينهما قريبة أو غير قريبة. لكن هل صلة القرابة كافية لتحديد موقف من المواقف؟ إن التحامل ـ وهذا من ناحية نظرية بحتة ـ قد يحدث من أفراد ضد أفراد آخرين مع انتماء كل من هؤلاء وأولئك إلى أسرة واحدة. ثم إن صلة القربى إن جعلت عاملاً يحدّد المواقف في البحوث العلمية فتلك مشكلة.

١١ ـ قالت الدكتورة ميمونة: «أما الإشارة إلى أحداث تاريخية تتعلق بالهجمات الوهابية في تلك الفترة فلا ينبغي تفسيرها بموقف سلبي من الباحثين. فالباحث يسعى دائماً للوصول إلى الحقيقة التاريخية».

من الذي فسر إشارة الدكتورة ميمونة إلى الهجمات الوهابية على الكويت بموقف سلبي منها؟

لقد وضّح في التعليق أن ما قالته الدكتورة عن هجمات وهابية لم تنقطع على الكويت خلال القرن الثامن عشر، وعن صراع طويل، لا تؤيده المصادر، وأنه لم يحدث خلال ذلك القرن إلا هجومان سعوديان على الكويت وهجوم كويتي على أتباع السعوديين. ووضح في التعليق، أيضاً، خلط الدكتورة بين الأحداث التي واكبت الغارتين السعوديتين. وهنالك فرق بين إيضاح الحقائق الذي ورد في التعليق وبين أن يقال بأن إشارة الدكتورة إلى الهجمات فسر على أنه موقف سلبي منها. وما ورد في التعليق تحقيق لحوادث أراد من أراد أن يضخّمها ويهوّلها دون دليل، فانساق من انساق وراء التضخيم والتهويل دون تمحيص وتدقيق.

ثم ماذا بعد كل ما سبق؟ أرجو أن تكون الصورة قد ازدادت وضوحاً أمام القارىء الكريم. وإن كل باحث قد يقع في خطأ علمي لكن إصراره على عدم الاعتراف بذلك الخطأ، مهما بدا واضحاً، أمر ينبغي تفاديه.

ولا يسعني في نهاية هذه السطور إلا أن أكرّر اعتذاري

للدكتورة ميمونة، وأكرر لها شكري الجزيل على ردّها الذي أتاح لي فرصة العودة إلى المناقشة.

والله وليّ التوفيق

محتويات الكتاب

١ ـ مقدمة. ٥

٢ ـ مدينة الرياض: تاريخها وتطورها. ٧

٣ ـ علاقة حكام الأحساء بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والدولة السعودية الأولى. ٣٥

٤ لمحة من تاريخ المملكة العربية السعودية وعوامل نجاح الملك عبد العزيز في توحيدها. ٥٧

٥ ـ الحياة العلمية والثقافية والفكرية في المملكة العربية السعودية.

٦ ـ حائل في ذاكرة التاريخ الحديث. ١٠٩

٧ ـ وقفة مع مؤلفي الحرس الوطني. ١٢٩

٨ ـ ملاحظات على أطلس تاريخ الإسلام. ١٤٩

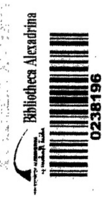
٩ ـ ملاحظات على كتاب الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية. ١٧٧

١٠ ـ تعليق على مقال الأستاذ أحمد العماري عن رسالة الوتري ١٩٣

١١ ـ الدكتورة ميمونة الصباح وكتابة تاريخ الكويت. ٢٠٧

١٢ ـ عود على بدء. ٢٣١

مكتبة
التوبة


Bibliotheca Alexandrina
0238196